



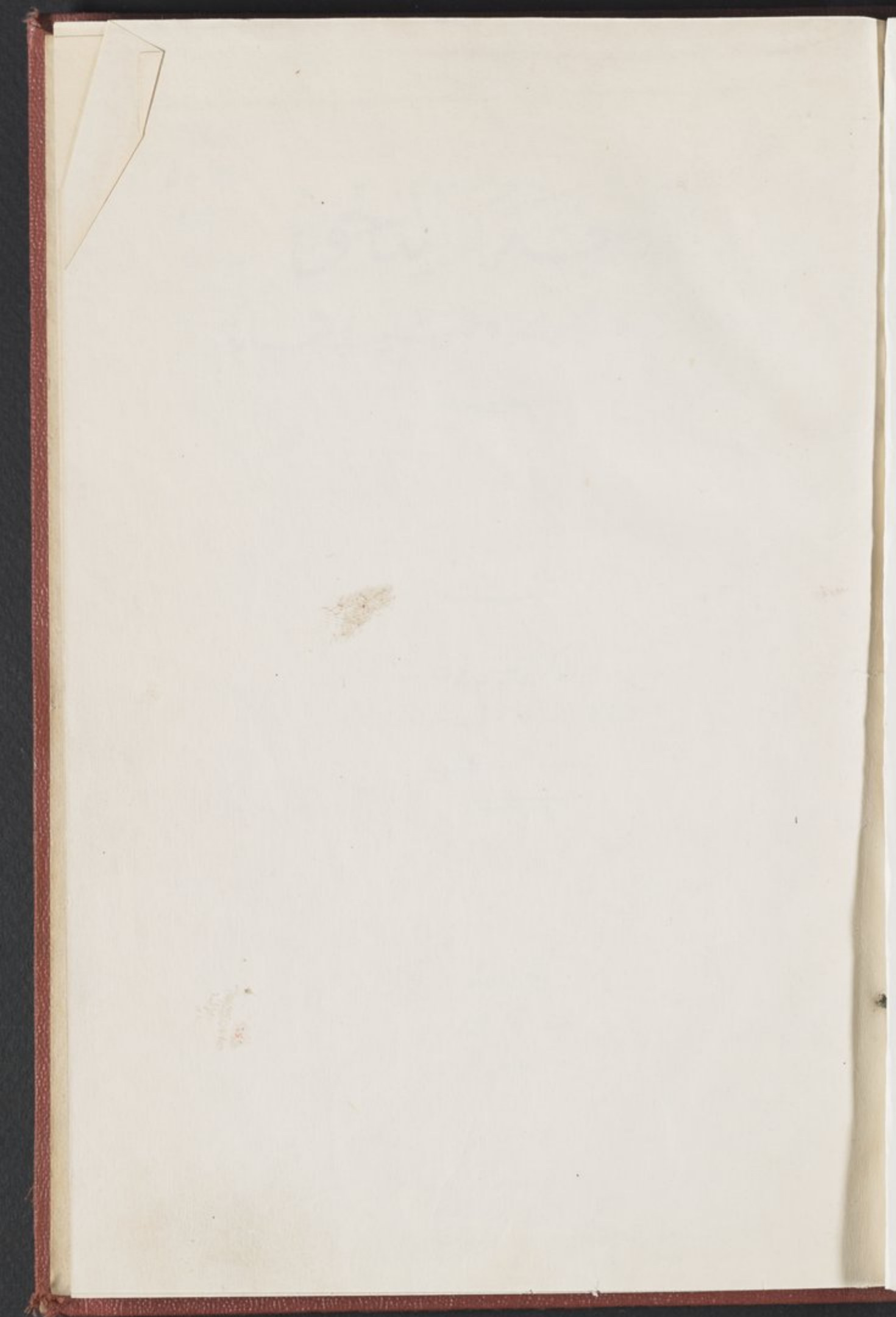
03-84386

Aut Oct 29











٩٥
٦٥٧٥
A92
١٩٥٢

اللغة والنحو

دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة

تأليف

الدكتور حسن عثمان

الأستاذ المساعد بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٢م

مطبعة روابل خلف محكمة إسكندرية الشرعية

٢٩

٢٥٢٣

٥٥٨

١٢٣١

لَمَحَنَاتُ امْرِئِئِشْخَلَا

مَخَالَصُهُ مِيلَاقُهُ تَبَيُّنَاتُ لَمَحَنَاتِهِ

مَفْصِيَالُ

ثَانِيَةُ امْرِئِئِشْخَلَا

بَابُ ١٢٠ فَبَيَّنَ امْرِئِئِشْخَلَا

تَحْقِيقَهُ مَعَهُ

مَدْرَسَةُ

بَابُ ١٢١ فَبَيَّنَ

٢٥٢١

مَدْرَسَةُ

فهرس محتويات الكتاب

١ مقدمة

٧ اللغة

نشأة اللغة ٧ ، رأى أفلاطون في اللغة ٩ ، تقدم العقل على حساب الأديان —
نظرة بقية علماء الغرب إلى اللغة ١٠ ، فارون واللغة ١٣ ، كانتليان واللغة ١٤ ، نظرة
علماء الشرق إلى اللغة ١٥ ، مذهب القول بفكرة التوقيف عند الشرقيين ٢٤ ، المذهب
الروحي في الشرق ٢٥ ، تحليل الغربيين للمذهب الروحي ٢٧ ، لامعنى للقول بتوقيف
اللغة ٢٨ ، اللغة في نظر علماء التشریح ٢٩ ، مراحل نمو اللغة عند الطفل ٣٠ ، أشهر
اللغات ٣٦ ، أسبق اللغات — رأى صاحب الفهرست في أسبق اللغات ٢٧ ؛ رأى
هيرودوت في أسبق اللغات ٣٨ ؛ لغة الاسبرانتو ٣٩ ماهى اللغة العربية ؟ ٤٢ ؛ هل
كانت هناك لهجة تسمى لهجة قريش ؟ ٤٢ ؛ النحو العربي أسس على لهجة قريش ٤٤ ،
حاجتنا إلى معرفة اللهجات العربية الأخرى ٤٤ ؛ ما عمله اليونانيون في لغتهم ٤٥ ؛
دراسة اللغة اللاتينية ٤٦ ؛ فساد الفكرة القائلة بضعف اللهجات العربية الأخرى ٤٨ ؛

٥٠ اللغة والنحو

النحو بالمفهوم اللغة — لا ينشأ النحو مع اللغة ٥٢ ؛ العقل متأخر في الوجود عن
الحس ٥٤ ، نشأة اللغة اليونانية واللغة اللاتينية — الفولكلور واللغة ٥٣ ؛ مبدأ
عمل العقل في اللغة — الرسوم الهيروغليفية والسومرية ٥٤ ؛ أطوار اللغة ٥٥ ،
سبب بقاء الرواسب القديمة في اللغة ٥٨ ؛ مقارنة اللغة العربية بغيرها من اللغات ٦٥ ،
الإعراب بالحركات أسبق في الضبط من الإعراب بالحروف ٧١ ؛ نشأة الطرق
المختلفة في التعبير ٧٢ .

٧٨ نشأة النحو العربي

النحو بمعناه الفني ٧٨ ؛ أسبقية الفنون للعلوم — نشأة النحو الفني ٧٩ ، الفرق
بين تأريخ الفن وتأريخ العلم — ليس من السهل تأريخ النحو بمعناه الفني ٨٠ ؛ ظواهر
النحو الفني ٨١ ؛ الإعراب بالحركات أسبق من الإعراب بالحروف ٨٢ ؛ الأدلة على
سبق الإعراب بالحركات ٨٣ ؛ حروف الإعراب لم توجد كلها دفعة واحدة — وجه
الشبه بين الإعراب بالحروف في العربية واللاتينية — الأدلة على عدم وجود حروف
الإعراب دفعة واحدة ٨٥ ؛ أوائل النحاة وفهمهم للغة العرب ٨٧ ؛ موقف النحاة
من قواعدهم ٩١ ؛ فساد فهم النحاة لبعض الآيات ٩٢ ؛ مثل من تعليقات النحاة
٩٦ ؛ ملاحظات على البحث في النحو الفني ١٠٠ ؛ أثر النحاة اللاتينيين في اللغة
اللاتينية ومقارنة ذلك بنحاة العرب ١٠٦ ؛ صعوبة معرفة تطور اللغة العربية —

مقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية يهدينا لفهم شيء عن تطورها ١٠٨ ، أطوار اللغة اللاتينية ١٠٩ ؛ نتائج المقارنة بين اللغة اللاتينية واللغة العربية ١١٩ ؛ أطوار اللغة العربية ١٢٦ ؛ تطور استعمال اللغة ١٢٨ ؛ نتيجة البحث في النحو بمعناه الفني ١٣٩ .

١٤٩ النحو بمعناه العلمي

سبب وضع النحو عند الشرقيين ١٤٩ ، سبب وضع النحو عند الغربيين ١٥٠ ؛ الشرق يحدوه في تفكيره معنى روحى ١٥١ ، المراحل الدينية في الشرق ١٥٢ ، الغرب يسوده معنى مادي - ينبغى القضاء على روح التشاؤم ١٥٣ ؛ العلوم الإسلامية نشأت لخدمة القرآن ١٥٥ ؛ البيئة العربية مأوى للمهاجرين وطلاب الكسب من الأمم الأخرى ١٥٦ ؛ كان اللحن يجرى في البيئة العربية قبل الإسلام ١٥٨ ، ما وصل إلينا من النصوص الأدبية القديمة لا يمثل اللغة العربية تمثيلاً صحيحاً ١٥٩ ؛ مكة وما كان فيها من بيوت تجارية وسفراء ١٦٠ ؛ ظاهرة الفتيات الأجنبية في الجزيرة العربية ١٦١ ، عدم خطورة اللحن في صدر الإسلام ؛ دور اللحن الخطير ١٦٣

١٦٣ تاريخ اللحن في العربية

أنواع اللحن ١٦٤ ؛ تعريف اللحن ١٦٧ ؛ أخطر أنواع اللحن ١٧٧ ؛ ما يجرى عند علماء القراءات هو نفس ما يجرى عند علماء اللغة اليونانية واللاتينية ٢٧٩ ؛ الفرق بين تاريخ اللحن وتاريخ النحو ١٨١ ؛ أولية اللحن ١٨٢ ؛ اللحن في العصر الجاهلي - اللحن في صدر الإسلام ١٨٥ ، اللحن بعد الفتوح الإسلامية ١٨٦ ؛ اللحن في الطبقات المشقة ؛ لحن الفقهاء ١٨٨ ، لحن القراء ١٨٩ ؛ لحن الشعراء ورجال الأدب ١٩١ ؛ ظاهرة تنقية اللغة ١٩٤ .

١٩٨ نشأة النحو العربي والأسباب التي دعت إليه

نشأة العلوم الإسلامية الأولى ٢٠١ ؛ علم القراءات ٢٠٢ ؛ علم التفسير ٢٠٥ ، علم الحديث ٢٠٦ ؛ علم الفقه ٢٠٧ ؛ الضرورة في وضع النحو كانت أشد إلحاحاً من الضرورة في وضع العلوم الإسلامية الأخرى - موضوع علم النحو ٢٠٨ ، السبب في وضع النحو ٢٠٩ .

٢١٢ من هو الواضع الأول للنحو العربي

صنيع العرب بلغتهم وصنيع الروم بلغته اليونانيين ٢١٢ ؛ الفرق بين العرب والروم من ناحية الفتوح - ترجمة الدواوين إلى العربية ٢١٣ ، كلمة نحو وما يراد منها ٢١٤ ، أصل كلمة نحو وتطور معناها ٢١٧ ، المنهج في معرفة الواضع الأول للنحو ٢١٩ . ما هي اللبنات الأولى في بناء النحو العربي ٢٣٨ ، مناقشة الروايات التي تنسب وضع النحو إلى أبي الأسود ٢٤٣ ، اتصال أبي الأسود باللغة السريانية وبعلمائها ٢٥٠ المراجع . التصويب .

سبح الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ عام ونصف عام تقريباً ظهرت الطبعة الاولى من كتابنا عن العراق وتاريخ حضاراته ؛ ولم يكن ذلك في الواقع سوى خطوة أولى ، ولكنها ضرورية جداً لدراسة الحضارة الاسلامية ؛ اذ أن بيئة العراق تعتبر أهم بيئة بالنسبة لهذه الحضارة فقد احتضنتها منذ أيامها الأولى وغذتها بشمار حضارات تركزت فيها منذ آلاف السنين ، وبقيت تميدها بنتاج عقليات أجنبية تفد اليها من الشرق طوراً ومن الغرب طوراً آخر ؛ وليس هناك من سبيل لدراسة الحضارة الاسلامية دراسة عميقة ، وفهمها فهم صحيحاً إلا إذا درست أصولها وبيئاتها وعرفت مصادرها ومدى ما يمكن أن يتصور من تبادل وامتزاج بين العقلية العربية والعقليات الاجنبية . ولقد قمنا بهذه الخطوة في ذلك الكتاب الذي أشرنا اليه منذ منطور وحرصنا على أن نبين فيه أكثر من مرة أن هدفنا من تأليفه إنما هو التمهيد لدراسة الحضارة الاسلامية في مختلف مظاهرها على أسس علمية صحيحة وفق مناهج البحث الحديث ، فينبغي منذ الآن ألا يكتفى بعرض تلك الحضارة الاسلامية عرضاً عاماً أو وصفها وصفاً شاملاً ، صنيح العلماء والمؤلفين في الشرق ، سواء منهم القدماء والمحدثون ؛ وإنما ينبغي أن تدرس تلك الحضارة دراسة جديدة فتحلل عناصرها ، ويرد ما يمكن أن يرد منها إلى أصوله القديمة ومنابه الاولى ؛ وعلى ضوء هذه الاعتبارات ينبغي

أن تتجه دراساتنا للحضارة الإسلامية وجهة تمكننا من فهم — لم كانت الحضارة الإسلامية هكذا ؟ — بعد أن فهمنا — كيف كانت ؟ ومدى ما وصلت إليه من نمو واتساع — .

ولما كانت هذه الاسس هي رائدنا ، فقد اعتزمنا ، بمؤلفنا اليوم ، أن نضع اللبنة الاولى في هذا البناء الشاخ وأن نرسى إحدى قواعده بعد أن مهدنا له ببحثنا عن العراق وحضاراته . وهذه هي مرحلة ضرورية لدراسة الحضارات الانسانية قديمها وحديثها ؛ فحضارة الشعوب تتكون ثم تمضي عليها قرون والناس منكبون عليها يقتفون آثارها ، وأخيراً يأتي عهد يبدأ فيه العلماء وأصحاب الفكر يحللون تلك الحضارة ويفهمونها مع تعليل مظاهرها ويبحث أصولها ومقارنة مسائلها بغيرها مما سبقها أو عاصرها من حضارات ، وبهذا النظام قد درست الحضارة اليونانية ومن بعدها الحضارة اللاتينية .

وقد يتساءل القراء عن السبب الذي جعلنا نتخير النحو من بين سائر العلوم الإسلامية الاولى ليكون موضوعاً للدرس ، بينما غيره لم يكن أبسط منه شأنًا ولا أقل منه خطراً ؛ ولكنهم سيجدون الجواب عن ذلك مفصلاً في ثنايا أبواب هذا الكتاب وفصوله ؛ ومع ذلك فاننا نستطيع أن نلخصها فيما يلي حرصاً على مصلحة القراء وشافعة أن تتوزع أفكارهم قبل أن يسعفهم الوقت وتواتيهم الفرصة لفهم كل مسألة تعرض لهم دون إهمال ولا إبطاء : —

معروف أن العلوم الإسلامية الاولى عديدة ؛ منها علم الفقه ، وعلم الحديث وعلم الرواية ، وعلم اللغة ، وعلم التفسير وعلم القراءات ، وعلم النحو ؛ ومعروف كذلك أن الظروف التي نشأت فيها تلك العلوم تكاد تكون واحدة والاسباب التي دعت إلى نشأتها لا تكاد تختلف بالنسبة لعلم عنها بالنسبة لعلم آخر . ولكن النحو يمتاز عن غيره من العلوم الإسلامية

اللغة

النقط الأساسية

ما هي؟ كيف تنشأ؟ أشهر اللغات، أسبق

اللغات، ما هي اللغة العربية؟

اللغة

هي أداة من أدوات التعبير والتفاهم في المجتمعات الإنسانية ، بل هي أهم تلك الأدوات على الإطلاق ، يمكن بواسطتها أن نشرح حاجياتنا ، ونعبر عن رغباتنا ، ونبين للآخرين احساسنا وشعورنا . واللغة بهذا المعنى ضرورة اجتماعية ، فلا يمكن لمجتمع ما أن يكون له وحدة وكيان بدون هذه الأداة تربط وحدته وتؤلف بين أفراده ، وتجمع شتات أغراضه وأهدافه .

نشأة اللغة

واللغة أيا كان نوعها تنشأ مع المجتمع الإنساني ، فهي عنصر أساسي من عناصر تكوينه ، وأداة فعالة من أدوات تطوره ونموه ورقبته .

وفي كل طور من أطوار هذا المجتمع تعتبر اللغة مرآة صافية تنعكس عليها حياة ذلك المجتمع ، ليرى من خلالها عقليته وإحسانه وتفكيره ودرجته من الثقافة والتدين . ولهذا فقد اتجه في العصور الحديثة بجهود كثير من العلماء في الغرب أولاً ، وفي الشرق أخيراً إلى دراسة اللغات المختلفة في مهدها وفي عصور نموها ، ليفهموا على ضوءها حالة الشعوب في طفولتها ويدركوا منها حركة التطور العقلي في تلك الشعوب ، بل هي دراسة لتاريخ الشعوب إن أعوز المؤرخين وجود الوثائق التاريخية .

ولمست هذه المحاولات التي نراها من وقت لآخر بين كثير من العلماء الذين يذهبون إلى الشعوب البدائية في أفريقيا وفي آسيا وفي أمريكا الجنوبية لملاحظة لغات هذه الشعوب وما تشتمل عليه من مقاطع وأصوات وما تدل عليه من معاني وأغراض ، ثم لمعرفة مبلغ ما هنالك من تطابق بين هذه اللغات والبيئات التي نشأت فيها ، نقول ان هذه المحاولات ليست إلا نوعاً من تلك الدراسات اللغوية الواسعة . والكلام على نشأة اللغة يحتاج إلى فصل طويل فقد شغل المفكرين قديماً وكان موضع نقاش وجدل يختلفان باختلاف العصور شدة وعنفاً ، ولا يزال نجد حول هذا الموضوع في العصور الحديثة وعلى ضوء العلوم التجريبية والملاحظات النفسية نظريات عدة . ولسنا نستطيع في هذا البحث أن نستعرض بالتفصيل ما اتجه إليه تفكير القدماء ولا ما اهتمت إليه تجارب المحدثين ، فإن ذلك يخرج بنا عن الموضوع الذي رسمنا له الخطة ، وما نظن أن بحثنا في حاجة إلى مثل هذه الإفاضة وإنما يكفي منا أن نعرض لرموس المسائل ونبين أهم الأفكار والآراء حتى يكون القارئ لبحثنا هذا على بينة من الأسس العامة التي تستلزمها طبيعة الكلام عن النحو ونشأته وتحليله ومقارنته ، تاركين التفصيل

في ذلك لعلماء الأبحاث اللغوية الخالصة ولمراجعها المتعددة الواسعة . وعلى هذا فلتتحدث أولاً عن وجهة نظر القدماء بالنسبة لنظرية اللغة ونشأتها ؛ ثانياً عن وجهة نظر المحدثين .

لم نجد فيما قرأنا من أبحاث الغربيين عن اللغات ونشأتها وتطورها من زعم أن اللغة توقيفية ، أى تنزل من السماء أو يوحى بها الله سوى أفلاطون ^(١)

ولهذا الاتجاه من ذلك الفيلسوف ما يبرره ، فإن يديته التى نشأ فيها ، ودراساته التى اهتم بها ، وأساتذته الذين سموا به الى كثير من المعانى الروحية ، وعصره الذى امتاز باحترام العقيدة والأوامر الدينية ، كل ذلك

(١) أفلاطون هو ذلك الفيلسوف اليونانى الكبير ذو العقيلة الجبارة والمؤلفات العديدة الهامة . ولد فى سنة ٤٢٩ ، مات فى سنة ٣٤٧ ق.م ، أى أنه عاش نحواً من اثنين وعشرين سنة . كان وهو فى سن العشرين تقريباً تلميذاً لسقراط ولم يقتل بعد هذا السن على استاذ سواه وصار أستاذاً لارسطو . وتمتاز مؤلفاته بطريقتها التى تكتب بها : إذ كانت تكتب على شكل حوار ، والمتحدث فيها سقراط . أهم تلك المؤلفات : كريتون *Crition* ، فيدوت *Phédon* ، فيدر *Phédre* ، جورجياس *Gorgias* ، بانكيه (الوليمة) *le Banquet* ، الجمهورية *la Republique* والقوانين *les lois* . وليس من السهل أن نمضى فى تعداد مؤلفاته كلها ولا فى تحليل هذه المؤلفات ؛ وحسبنا أن نعلم أن عدد ما ألفه من المحاورات قد بلغ ٤٣ ثلاثة وأربعين حواراً ؛ وله بعد ذلك نحو من ثلاث عشرة رسالة على شكل خطابات ؛ وله فوق هذا العدد الضخم مجموعة من الأفكار مدونه بلا نظام ولا ترتيب ؛ وفيما يختص بهذه الافكار وبذلك الرسائل فلم يثبت بصفة قاطعة أنها له ؛ وقد استطاع النقاد المحدثون أن يثبتوا له فقط من هذه المحاورات ما يقرب من ثلاثين محاوره .

كان حافزاً لتفكير إفلاطون ومهداً لطريقته في مواجهة المسائل الفكرية وحل ما يمكن أن يعترضه من النظريات العلمية . كانت الديانة والآلهة تحتل المكان الأسمى ، وكان ميدان التفكير الإنساني ذا أفق محدود ، ودائرة تجاربه العلمية لا تكاد تتجاوز البيئة التي يعيش فيها ، ولذا فكان سهلاً على الإنسان مهما كانت مكانته العلمية ودرجته في سمو العقل وسعة التفكير إذ ذاك أن يعزو مالا يجد وسيلة لفهمه أو ما يسمو فوق مداركه إلى الطبيعة ، إلى القوة الخالقة ، إلى الآلهة . هذا والدارس لتاريخ الأديان والملم بطبيعة المجتمعات التي نشأت فيها تلك الأديان المختلفة يستطيع أن يلمس تماماً أن تقدم العقل البشري كان في كثير من الأحيان على حساب الأديان ، بمعنى أن العقل البشري كلما اتسعت آفاقه فأدرك بوسائله الخاصة وبتجاربه المختلفة حقيقة من الحقائق التي كانت عسيرة الفهم غامضة الإدراك فيما مضى ، تقول كلما أدرك حقيقة من هذا النوع من الحقائق فإنها تخرج من حظيرة الدين ولا تصبح سرّاً من أسرارهِ ، ولا معجزة من معجزاته وتقع في محيط المدركات العقلية ، وهكذا دواليك يضيق أفق العوالم الإلهية كلما اتسعت ميادين الإدراكات العقلية / أما بقية علماء الغرب فهم مجموعون فيما نعتقد على أنها وضعية أي من وضع الإنسان ، ومن وحى البيئة ، ومستلزمات الظروف . ونظرة الغربيين في هذا نظرة واقعية كنظرتهم إلى أغلب المسائل العلمية والظواهر الاجتماعية . ولذا فقد غلبت عليهم النظرة المادية

الآخري بأشياء ، منها نضوجه المبكر ووصوله سريعاً إلى مرحلة الكمال ، ما
لفت نظر العلماء حديثاً وجعلهم يفيضون في القول بشأنه ؛ ومنها الأثر
الأجنبي الواضح فيه منذ النشأة والذي لازمه في عهد نضوجه واكتياله
ملازمة كادت تخرج به عن موضوعه وتتجاوز حدوده ورسومه ، ولولا
ما نشأ حوله من غلوم استقل كل منها بميدان من ميادين الأبحاث اللغوية
المختلفة كعلم المعاني ، والبيان ، والبديع ، وكعلم فقه اللغة بمعناه القديم ،
نقول لولا نشأة هذه العلوم بجانب النحو العربي وتخفيفها بعض العبء عنه ،
ولولا ما اتصفت به عقلية المؤلفين القدماء من إجلال أساتذتهم السابقين ،
واحترام تراثهم العلمي لتشتت ، فيما نعتقد ، ضوابط النحو وقواعده ،
ولضاعت معالمه أو كادت تضيع في ثنايا هذه المعارف اللغوية الواسعة التي
تآزر على جمعها وتدوينها نخبة من رواة اللغة ، وعدد غفير من علماءها ،
ولأصبح النحو العربي موسوعة ضخمة تضم بين مجلداتها كثيراً من الآثار
اللغوية ، والدينية ، والعلمية ، والأدبية ؛ ولم يكن ذلك ، فيما نظن ، سوى
نتيجة لأثر العقلية الأجنبية ، وتماذا من جانب علماء العربية في تتبع هذا
الأثر واستغلاله إلى حد بعيد وليس كتاب سيبويه الذي هو بين أيدينا الآن
والذي هو صورة مصغرة من تلك الموسوعة الضخمة إلا إيذاناً بهذا
الاتجاه . كل هذا جعلنا نوجه ههنا أول مانوجه إلى دراسة النحو العربي
دراسة تحليلية على ضوء ما قدمناه من دراسة لبيئة العراق وما توالى عليها
من حضارات . هذا وهناك عامل آخر قد حفزنا إلى الإسراع بهذا المؤلف
وإن لم يكن داخلاً في طبيعة البحث ولا مترتباً عليه أحد الأسباب المنطقية
في تأليفه ، ذلك هو ما قدمه لنا معهد الدراسات العليا من فرص مواتية وما
لمسناه في طلابه من شوق إلى المعرفة ورغبة في الاستزادة منها ، فلقد
درسنا معهم هذا الموضوع في خلال العام الدراسي الحالي ونشهد الله أن

ما عهدناه فيهم من سماع للقول ، وقبول للفهم ، واستجابة روحية وعقلية لما
كنا نبديه من آراء ، ونعرضه من نظريات كانت من أهم الدوافع على أن
نمضي قدما في التأليف دون تردد ولا إبطاء .

وموضوع درس الحضارة الإسلامية ، كما يرى القراء ، واسع طويل ،
وهو في حاجة إلى تضافر في القوى وتعاون في التفكير وتأزر في الإنتاج ؛
وليس من السهل أن ينهض بهذا العبء شخص وحده ، وإذن فليس لنا
أن نزعم الاستئثار به بالرغم من هذا التمهيد الذي قمنا به في دراسة بيئة
العراق وكلفنا من الاطلاع والبحث والعناء جهداً لا يكاد يطاق والله نسأل
أن يلهمنا الرشيد في القول والسداد في العمل والتوفيق في الأداء .

مس عود

الاسكندرية في ٣١/٧/١٩٥٢م

وتحكم فيهم وساد بينهم المذهب المادى . وقد قال بذلك شيشرون ^(١)

^(١) شيشرون : هو أكبر خطيب روماني بلا منازع ، ولد في مدينة أربينوم واسمها الآن أربينو . وذلك في سنة ١٠٦ قبل الميلاد . برع منذ شبابه في صناعة القول فاستطاع أن يلفت اليه الانظار ، وتقلب في مناصب الدولة حتى وصل إلى أخطرها ، وهو منصب القنصل . وقد لعب أدواراً هامة في سياسة روما ، فقد عرف بميله إلى نظام الحكم الجمهورى ولذا فإنه أنقذ الجمهورية من مؤامرة ديكتاتورية خطيرة قام بها كاتيلينا ، وذلك بعد أن كشف شيشرون أمرها واستطاع أن يقدم للحكمة أنصار ذلك الديكتاتور فيحكم بإعدامه . وبعد ذلك استحق شيشرون من الشعب الرومانى لقب (أبو الوطن) .

وقد ناصر شيشرون قيصر ما دام يحكم على النظام الجمهورى ، وأظهر شيئاً من التراخى حينما ظهر قيصر بمظهر الديكتاتور . وبعد قيصر عمل على معاونة أوكتافيوس ، ولكن الخصومة بينه وبين أنطونيوس قد أوردته موارد الهلاك : فبعد ما تخرجت الأمور السياسية في روما ، وبالرغم من اعتزاله السياسة فقد هرب شيشرون من روما ليختبئ في القرى . ولكن أنطونيوس وهو المحقق منه ومن لسانه بعث إليه من أدركوه في الطريق وقتلوه غيلة في سنة ٤٣ ق.م .

كان شيشرون إذن خطيباً بارعاً ، ومحامياً ماهراً ، وسياسياً مخمكاً وفوق ذلك فقد كان عالماً كبيراً ومؤلفاً عظيماً : ترجم بعض الكتب عن اليونانية ، وألف في الخطابة ، وفي اللغة ، وفي الدين ، وفي الفلسفة . وها هي مؤلفاته لا تزال معتبرة من أهم المراجع في هذه الميادين العلمية . وينبغى أن نقرر هنا أن الاستاذ مصطفى صادق الرافعى في كتابه

= تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٤٦ ج ١ هو الذي يروى عنه هذا الرأي في نظرية اللغة ولكنه كدأبه لا يذكر نصاً ولا مرجعاً وبالرغم من اطلاعنا الكثير على ما كتبه شيشرون فإننا لم نجد نصاً صريحاً ومع ذلك فإن اتجاهه في مجموع الآراء ، وروحه في التأليف ، ومنزعه في فهم اللغة يؤيد ما نسبته إليه الرافعي .

(١) ديودور الصقلي : هو مؤرخ يوناني كبير عاش في عصر الامبراطور أغسطس

ربما كان أكثر دقة من هيرودوت ، وهو لا يقل عنه شهرة . والذي عرف عنه هو كتابه التاريخي العظيم الذي يعتبر سجلاً لتاريخ العالم القديم حتى سنة ٦٠ ق.م .

وينقسم كتابه في التاريخ إلى ثلاثة أقسام مرتبة على حسب الأحداث التاريخية : القسم الأول يتناول تاريخ الشعوب المعروفة قبل حرب طروادة التي تغنى بها هوميروس في إلياذته ؛ وهذا القسم يشتمل على ستة كتب عشر منها على خمسة فقط ؛ ثلاثة من هذه الكتب الستة تقص تاريخ اليونان في خلال تلك العصور السابقة على حرب طروادة ، وثلاثة أخرى تتناول سائر الشعوب . القسم الثاني يتناول تاريخ الشعوب منذ حرب طروادة حتى وفاة الإسكندر الأكبر ؛ وهذا القسم يحتوي على أحد عشر كتاباً لم يهتم الباحثون إلا على سبعة كتب منها . أما القسم الثالث فهو يتناول أحداث العالم التاريخية منذ وفاة الاسكندر حتى غزو قيصر لبلاد الغال ؛ وهذا القسم يشتمل على ثلاثة وعشرين كتاباً لم يوجد منها سوى ثلاثة كتب فقط . =

ومنذ ذلك الحين لم نسمع ولم نقرأ فيما قرأناه ، رأيا يخالف رأى
هذين العالمين فكأنهما بذلك قد قضيا على فكرة التوقف بالنسبة لما كان
معروفا عن اللغة ، ومهدا السبيل للبحث العلمى المبني على ملاحظات نفسية
وتجريبية ، فقد وجدنا من بعد ذلك علماء تصدوا للأبحاث اللغوية وأفاضوا
في الكلام عنها ، ولكنهم لم يشيروا ، ولم يفهم عنهم ، ولو من
طريق خفي ، أنهم من دعاة نظرية التوقف أو من القائلين بها ؛ نذكر
من هؤلاء العلماء فارون *Varron* ^(١) العالم اللاتيني الغزير المادة والواسع

== وتذكر هنا أيضاً ما ذكرناه منذ قليل من أننا لم نقف بأنفسنا على
نص صريح لديودور في توقيف اللغة ولكن الذى ينسب اليه هذا رأى
إنما هو الاستاذ الرافعى في نفس الكتاب المتقدم ؛ ومع هذا فإن
روحه في التأليف وتفكيره في مواجهة المسائل تجعلنا نطمئن إلى ما نسب
اليه .

^(١) كان فارون دائرة معارف عصره ، عرف بالبدأ والمثابة ، واشتهر
بالبحث الواسع والاطلاع الغزير إلى درجة لا يتصور وقد مات بعد اغتيال
شيشرون بستة عشر عاماً كانت الجمهورية الرومانية في طريقها إلى الانقلاب
والحكم الامبراطورى في سبيل التأسيس . ولقد استغل هذا العالم اللاتيني
معارفه الواسعة واطلاعه الكثير خلف وراءه ثروة طائلة من المؤلفات ،
وصلت إلى أربعة وسبعين مؤلفاً ؛ ولسوء الحظ لم يوجد من هذه الثروة
العلمية حتى الآن سوى مؤلفين ؛ أحدهما « عن اللغة اللاتينية » ؛ وحتى
هذا المؤلف قد وصل مبتوراً ؛ إذ لم يكتشف منه غير ستة كتب ، وهى من ==

الاطلاع . توفي هذا العالم في سنة ٢٧ قبل الميلاد ، وكان عما تركه كتاب
عن اللغة اللاتينية ، قد كتب إهداؤه إلى شيشرون ؛ وفيما كتبه عن اللغة
في هذا الكتاب يفهم منه أن اللغة كائن اجتماعي يتطور بتطور المجتمع ،
ولا دخل لأي قوة خفية في تنشئته أو تنميته

ونذكر كذلك من هؤلاء العلماء — كانتيليان — *Quintilien* ^(١)
الذي عاش قطعاً إلى ما بعد سنة ٩٦ بعد الميلاد وامتاز دون معاصريه

الكتاب الخامس إلى الكتاب العاشر بينما المؤلف كله كان يحتوي على
خمسة وعشرين كتاباً ؛ والآخر عن « الزراعة » . والذي يعيننا بالذات هنا
هو مؤلفه الأول ، وعلى الأخص البحث الذي كتبه عن أصل الكلمات
في اللغة اللاتينية ؛ في هذا البحث تناول فارون ما تناول من مفردات
اللغة بطريقة طبيعية معقولة لا دخل لمسألة التوقيف فيها .

^(١) كانتيليان *Quintilien* : هو من الإسبانيين الذين امتزجوا بالدولة الرومانية
عقلاً وروحاً ولغة وتفكيراً . ولد في مدينة إسبانية اسمها كالاغوريس
Calagurris فيما بين سنة ٣٠ و ٣٥ بعد الميلاد ؛ ثم جاء إلى روما
شأن كثير من الإسبانيين الذين يدرسون في روما ؛ وكانت أهم الدراسة
اذ ذاك هي دراسة اللغة والفلسفة ، بدأ مبكراً في ميدان المحاماة ولكنه
لم يستمر فيها طويلاً فاعتزلها وأنشأ مدرسة لغوية غايتها الكبرى تخرج
الخطيب الكامل ، وقد اتخذ مثله الأعلى شيشرون ، ولهذا فقد بذل عنايته
في تدريس اللغة بما فيها من أساليب وبيان ، وهو في تدريسه ، وفي
تأليفه يتحدث عن اللغة كظاهرة اجتماعية تخضع لظروف المجتمع إلى حد
بعيد ، ولم يؤثر عنه مطلقاً أن اللغة مصدرها وحى أو توقيف .

بدراساته اللغوية وأبحاثه في أساليبها ، وتعليقه لمظاهر رقيها وقوتها ولما ظهر
ضعفها وانحطاطها ؛ وهو في خلال ذلك كله يفهم اللغة ويصورها كما صورها
من قبله شيشرون وفارون .

وهكذا تغيرت نظرة علماء الغرب إلى اللغة واستمروا يفهمونها كظاهرة
اجتماعية تنشأ مع المجتمع وتشاركه في حياته رقياً وضعفاً ؛ واستمرت هذه
النظرة سائدة خلال العصور الوسطى بالرغم مما اكتسبته اللغة اللاتينية
القديمة على يد الكنيسة المسيحية ورجالها من معنى القداسة ومظاهر الإجلال .
ولإذا ما وصلنا إلى العصور الحديثة فإننا نجد القوى تتضافر في الغرب
وملكات العلماء تتآزر على تحليل اللغة كظاهرة اجتماعية ودراستها عند
الأطفال ، وفي البيئات البدائية ، ثم تحليل نشأتها وتطورها وما يلبس ذلك
كله من ظواهر ونتائج . وسرجه الكلام قليلاً عن هذه النظرة الحديثة
لكي نلم أولاً بوجهة نظر العلماء الشرقيين بالنسبة لنشأة اللغة .

أما في الشرق فإننا نجد أنفسنا أمام فرقتين من العلماء : فريق يوافق
الغرب في وجهة نظره ومنهم أبو علي الفارسي ^(١) ،

(١) هكذا يذكر الرافعي في كتابه (تاريخ أداب اللغة العربية) ج ١
صفحة ٤٦ . ولكن ابن سيده في كتابه الخصاص ج ١ صفحة ٤ يذكر أن
أبا علي الحسن ابن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي يراها
من عند الله ؛ وكان يحتج بذلك بقوله تعالى «وعلم آدم الاسماء كلها» =

وتليذه ابن جني^(١) وبعض المعتزلة . والفريق الآخر يرى أن اللغة توقيفية من خلق الله ، ولا إرادة للإنسان فيها ، ويستدل هؤلاء على رأيهم بما فهموه من بعض النصوص الدينية . ولعل أصرحها في ذلك قول الله تعالى في سورة البقرة : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

= والفارسي هذا هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي ؛ يذكر ابن النديم في كتابه - الفهرست صفحة ٩٥ طبعة سنة ١٣٤٨ هـ بالمطبعة الرحمانية بمصر ، أن أبا علي الفارس قد توفي قبل السبعين وثلاثمائة ، وأن له من الكتب - كتاب الحجّة ، كتاب التذكرة ، كتاب أبيات الاعراب ، كتاب شرح أبيات الايضاح ، كتاب مختصر عوامل الاعراب ، المسائل المصلحة يرويها عن الزجاج وتعرف بالاغفال . ويروى أنه توفي سنة ٣٧٧ . وقد اعتمد هذه الرواية الاستاذ مصطفى الرافعي ج ١ صفحة ٢٢٦

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جني ؛ كان مولده بالموصل قبل عام ٣٠٠ هـ وهو من أصل رومي ، إذ أن والده كان مملوكا روميا لسليمان بن قهد بن أحمد الازدي . كان من أشهر تلاميذ أبي علي الفارس ومن أكثرهم مصاحبة له . إذ أنه بقي في صحبته أربعين عاما ؛ ويروى ياقوت أنه ولي منصب كاتب الانشاء في عضد الدولة وفي بلاط خلفه ؛ وفي أثناء قيامه بهذا العمل كان يتنقل ما بين حلب وفارس ، مما سهل عليه التعرف بالمتنبي ومصادقته ؛ ولهذا فقد كان ينظره في النحو ويناقشه في الأدب ؛ ولعل من نتيجة ذلك أيضاً أنه كتب شرحاً لديوان المتنبي . وقد عمر ابن جني =

قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، ^(١)

= طويلاً حتى أشرف على المائة وربما يكون قد تجاوزها ، إذ أن وفاته كانت في سنة ٣٩٢ هـ . واشتهر ابن جني بمعرفته بالنحو وبكل ما يتعلق بالتصريف حتى أصبح في ذلك حجة وثقة . ولم يعرف لابن جني تحييز لإحدى المدرستين النحويتين ، مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، شأن غيره من العلماء المعاصرين ، بل على العكس من ذلك كان واضح الشخصية العلمية فكان يتخير لنفسه مذهباً وسطاً بين المدرستين . وأهم مؤلفاته كتابان : أحدهما (سر الصناعة وأسرار البلاغة) والآخر (كتاب الخصائص) في علم أصول العربية . والآخر منهما يعيننا بالذات ؛ إذ أنه يلقي ضوءاً على رأى صاحبه في نظرية التوقيف في اللغة . وهو وإن لم يبد رأيه بصراحة في أن اللغة وضعية إلا أن المطلع على ما ذكره في أول الكتاب لا يتردد في فهم موقفه من هذه النظرية فهو يميل بوضوح إلى القول بوضعها .

^(١) إن كتب التفسير لهذه الآية تلقى ضوءاً على نظرية اللغة التي نحن بصددنا فهي تذكر المذهبين وتناقش آراء كل فريق ، ولعل أهم هذه الكتب هو تفسير الفخر الرازي . وما هوذا نص ما يذكره صاحب هذا التفسير ج ١ ص ٢٥٧ وما يليها

((المسألة الأولى : قال الأشعري والجبائي والكوفي اللغات كلها توقيفية بمعنى أن الله تعالى خلق عليها ضرورياً بتلك الألفاظ وتلك المعاني وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني واحتجوا عليه بقوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) والحكام على التمسك بهذه الآية سؤالا وجوابا ذكرناه في أصول الفقه وقال أبو هاشم إنه لا بد من تقدم لغة اصطلاحية واحتج على =

== أنه لابد وأن يكون الوضع مسبقاً بالاصطلاح بأمور (أحدها) أنه لو حصل العلم الضروري بأنه تعالى وضع هذه اللفظة لهذا المعنى لكان ذلك العلم إما أن يحصل للعاقل أو لغير العاقل ؛ لا جائز أن يحصل للعاقل لأنه لو حصل العلم الضروري بأنه تعالى وضع ذلك اللفظ لذلك المعنى لصار صفة الله تعالى معلومة بالضرورة مع أن ذاته معلومة بالاستدلال وذلك محال ؛ ولا جائز أن يحصل لغير العاقل لأنه يبعد في العقول أن يحصل العلم بهذه اللغات مع ما فيها من الحكم العجيبة لغير العاقل . فثبت أن القول بالتوقيف فاسد .

(وثانيها) أنه تعالى خاطب الملائكة ، وذلك يوجب تقدم لغة على ذلك التكلم .

(وثالثها) أن قوله « وعلم آدم الأسماء كلها » يقتضي إضافة التعليم إلى الأسماء ؛ وذلك يقتضي في تلك الأسماء أنها كانت أسماء قبل ذلك التعليم وإذا كان كذلك كانت اللغات حاصلة قبل ذلك التعليم .

(ورابعها) أن آدم عليه السلام لما تحدى الملائكة بعلم الأسماء ، فلا بد وأن تعلم الملائكة كونه صادقاً في تعيين تلك الأسماء لتلك المسميات ، وإلا لم يحصل العلم بصدقه . وذلك يقتضي أن يكون وضع تلك الأسماء لتلك المسميات متقدماً على ذلك التعليم .

والجواب عن الأول : لم لا يجوز أن يقال يخلق العلم الضروري بأن واضحاً وضع هذه الأسماء لهذه المسميات من غير تعيين أن ذلك الواضع هو الله تعالى أو الناس . وعلى هذا لا يلزم أن تصير الصفة معلومة ==

== بالضرورة حال كون الذات معلومة بالدليل ، سلمنا أنه تعالى ما خلق هذا العلم في العاقل ، فلم لا يجوز أن يقال إنه تعالى خلقه في غير العاقل ، والتعويل على الاستبعاد في هذا المقام مستبعد .

وعن الثاني : لم لا يجوز أن يقال خاطب الملائكة بطريق آخر بالكتابة وغيرها .

وعن الثالث : لا شك أن إرادة الله تعالى وضع تلك الالفاظ لتلك المعاني سابقة على التعليم ، فكفى ذلك في إضافة التعليم إلى الأسماء .

وعن الرابع : ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى - والله تعالى أعلم .

ثم يمضى صاحب هذا التفسير في مناقشة بقية الآراء حتى يقول :
(القول الثاني) وهو المشهور ، أن المراد أسماء كل ما خلق الله من أجناس المحدثات من جميع اللغات المختلفة التي يتكلم بها ولد آدم اليوم من العربية والفارسية والرومية وغيرها . وكان ولد آدم عليه السلام يتكلمون بهذه اللغات ، فلما مات آدم وتفرق ولده في نواحي العالم تكلم كل واحد منهم بلغة معينة من تلك اللغات ، فغلب عليه ذلك اللسان . فلما طالت المدّة ، ومات منهم قرن بعد قرن نسوا سائر اللغات . فهذا هو السبب في تغير الألسنة في ولد آدم عليه السلام . قال أهل المعاني قوله « وعلم آدم الأسماء » لا بد فيه من إضمار فيحتمل أن يكون المراد وعلم آدم أسماء المسميات ، ويحتمل أن يكون المراد وعلم آدم مسميات الأسماء . قالوا لكن الأول أولى لقوله « أنبئني بأسماء هؤلاء » وقوله « فلما أنبأهم بأسمائهم » ولم يقل أنبئوني هؤلاء ، وأنبأهم بهم . فان قيل فلما علمه الله تعالى أنواع جميع ==

== المسميات ، وكان في المسميات مالا يكون عاقلا فلم قال عرضهم ؟ ولم يقل عرضها ؟ قلنا لأنه لما كان في جملتها الملائكة والانس والجن وهم العقلاء ، فغلب الاكمل ، لأنه جرت عادة العرب بتغليب الكامل على الناقص كلها غلبوا)) .

لقد حاولنا في نقل هذا النص الطويل بما فيه من فلسفة كلامية ، وجدل على أن نقدم للقارئ صورة عن مبلغ مالدی علماء الإسلام من خلاف في مسألة وضع اللغة ، وتوقيفها ؛ ثم لنرى كيف تشعبت أفكارهم حول مسألة اللغة ، وكيف استمرت فكرة التوقيف معروفة عندهم ولها أنصارها ومشايعوها حتى أواخر العصور الوسطى ، بل إننا نجد من يميل إليها ويؤيدها ولو من طريق غير مباشر في المصور الحديثة ؛ من ذلك الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ؛ فإنه يعزو في كثير من مواقفه جمال اللغة العربية ، وحسن تركيبها ، وبلاغة تعبيرها ؛ وسمو أساليبها إلى صفات مستمدة من قوة فوق مستوى البشر ؛ إذ أنه لا يعترف بوجود لغة إنسانية أخرى تسمو إلى مكانة اللغة العربية في هذه المزايا ؛ فهي في نظره معجزة اللغات لينزل بأسلوبها القرآن معجز البشر ؛ وليست هذه الفكرة عند الأستاذ الرافعي إلا من تراث القدماء ، ومن كثرة مذكروه في ذلك .

وشبهه بصنيع المفسرين مذكروه السيوطي في كتابه المزهري ؛ فإنه لخص آراء القائلين بتوقيف اللغة ؛ وكذلك آراء القائلين بوضعها ؛ ثم ناقش إلى حد ما هذه الآراء ، ولكنه — شأنه في أغلب المسائل العلمية — لم يتخذ لنفسه موقفاً معيناً . =

== وجدير بالذكر هنا ، وقد أتينا على كثير من علماء العربية في نظرية توقيف اللغة ؛ أن نشير بكلمة إلى رأى عالم واسع الاطلاع ؛ وحجة محقق ، ذلك هو ابن النديم صاحب الفهرست الذى يعتبر أجمل دائرة معارف عربية قديمة قد وصلت إلينا .

لايتعرض ابن النديم صراحة إلى نظرية التوقيف والوضع فى اللغة ؛ ولكنه يتناول بالبحث أصل اللغة العربية ؛ فيروى آراء من سبقه من العلماء فى هذه المسألة ويستشهد لذلك بما سمعه أو رآه من آثار ؛ ثم فى أثناء هذا البحث الطريف يذكر كلاما يطعن هو نفسه اليه ويفهم القارئ منه أنه يرى أن اللغة وضعية ، وأنها ظاهرة اجتماعية تحيا بحياة المجتمع وتتطور بتطوره وتشكل بشكل البيئة التى هى فيها ؛ وهو رأى جدير بالنظر حقاً إذا عرف الزمن الذى قيل فيه ؛ إذ أنه يتفق إلى حد كبير مع أحدث الآراء التى تقال فى اللغة وفى أصلها وفى تطورها . وكل ما يمكن أن يلاحظ على ابن النديم فيما ذكره هو ماقاله من أن اللغة العربية قد استمرت فى نموها ورقبها حتى نزل القرآن فوقفت عند هذا الحد ولم تتسع ؛ وهما هو نص ابن النديم نضجه أمام أعين القراء ليروا بأنفسهم الى أى حد يتمشى مع المحدثين من علماء اللغات :

يقول ابن النديم فى كتابه الفهرست ص ٧ بعد ذكر كثير من الآراء فى أصل الكتابة العربية ولم يزل ولد اسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ، ويصنعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها فلما اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد الفصيح فى العدنانية ، وكثر هذا بعد معد بن عدنان ، وانكل قبيلة من قبائل ==

وأشهر من قال بذلك ابن فارس^(١)

== العرب لغة تنفرد بها وتؤخذ عنها وقد اشتركوا في الاصل . قال : وإن
الزيادة في اللغة امتنع العرب منها بعد بعث النبي ﷺ لأجل القرآن ،

وهذه الملاحظة التي أشرنا إليها منذ قليل ، بالنسبة لرأى ابن النديم
في توقف اللغة عن الزيادة بعد بعث النبي ﷺ ، تدل على أن صاحب
الفهرست قد نظر إلى اللغة العربية نظرة ضيقة ؛ إذ أن اللغة لم تتوقف
في حقيقة الأمر إلا من ناحية أنها عملت على جمع القبائل العربية على تلك
اللهجة التي نزل بها القرآن ؛ أما فيما عدا هذا فإننا لا نستطيع أن نسايره
فيما يقول ؛ وكأننا نعرف مبلغ ما أصابته اللغة العربية بعد الفتوح
الإسلامية من توسع وزيادة في مفرداتها ، وفي تراكيبها ، وفي أفكارها ،
وفي أخيلتها ، وفي صورها ، وفي أساليبها ؛ بل إن نموها ، بعد أن
اتسعت رقعة البلاد الناطقة بها ، في كل هذه النواحي كان أعمق أثراً ،
وأبعد مدى من نموها قبل أن يبعث الرسول ﷺ

(١) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب ؛
اشتهر في اللغة وفي النحو ؛ وهو أحد تلاميذ مدرسة الكوفة النحوية ؛
توفي سنة ٣٩٥ هـ . وكان كثير الدأب لا يمل البحث ولا الدرس ؛ يدل
على ذلك كثرة تنقله بين المدن الكبيرة لهذا الغرض ؛ فقد أقام في قزوين ،
وفي مكة ، وفي بغداد ، وفي همدان ، وفي الري ؛ وقد ملأت شهرته
اللغوية والخلقية آفاق الدولة الإسلامية فاستدعاه نجر الدولة بن بويه إلى ==

والأشعري^(١) ومن تبعه من علماء العرب ؛ ثم نجد صدى ذلك
أيضاً عند ابن سيده صاحب المخصص^(٢)

= الرى ووكل إليه تأديب ولده مجد الدولة أبى طالب .

كان شافعى المذهب ولكنه تحول عنه إلى المالكية أخيراً وكان شديد
التعصب للعرب ضد الفرس ؛ وقد بلغ من سمو خلقه ، وكرم طبعه ،
وسماحة نفسه أن وهب ما عليه من اللباس إلى الفقراء أكثر من
مرة ؛ ومن أشهر تلاميذه بديع الزمان ، والصاحب بن عباد .

ولابن فارس مؤلفات عديدة أهمها بالنسبة لموضوع بحثنا هذا هو
كتابه — الصحاح في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها — وقد طبع
في القاهرة سنة ١٩١٠ م .

^(١) ينقل هذا رأى عن الأشعري الأستاذ مصطفى صادق الرافعى في
كتابه — تاريخ آداب العرب — ج ١ . ص ٤٥ — ٤٦ .

^(٢) يعرض أبو الحسن على بن اسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى
المعروف بابن سيده والمتوفى سنة ٤٥٩ هـ نظرية نشأة اللغة وما جاء فيها
من خلاف بين أصحاب مذهب التوقيف ، ومذهب الوضع ، ثم يناقش
أدلة كل فريق مناقشة هادئة منطقية ؛ وأخيراً يبدى رأيه صريحاً فى أنه
يؤيد القائلين بالتوقيف :

يقول ابن سيده فى ص ٣ وما بعدها من الجزء الأول من كتابه =

ونحن لو تصورنا موقف هذا الفريق من العلماء ؛ وأمعنا النظر في رأيهم ، ثم تركنا جانباً ظواهر الأشياء ، ونفدنا إلى بواطنها ، وحللناها تحليلاً فلسفياً عميقاً ، لوجدنا أنهم لم يدينوا بهذا الرأي ويعتقدوا ذلك المذهب القائل بتوقيف اللغة ، بناء على هذه النصوص الدينية فقط ولكن لأن في نفوسهم ميلاً ونزوعاً إلى فكرة التوقيف بأوسع مظاهرها . ففشت فيهم تبعاً لذلك فكرة الاستسلام ، ونما عندهم مذهب التواكل . وقد استطاعوا بذلك ، أو توهموا أنهم استطاعوا أن يتخلصوا من بعض المسائل العقلية الصعبة ، وأن يحلوا كثيراً من المشاكل الاجتماعية الخطيرة .

= المخصص الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١٦ هـ :

« وقد اختلفوا في اللغة أمثواطاً عليها أم ملهم إليها وهذا موضع يحتاج إلى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحى ولا توقيف ، إلا أن أبا علي الحسن بن أحمد ابن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي قال هي من عند الله واحتج بقوله سبحانه « وعلم آدم الأسماء كلها » وهذا ليس باحتجاج قاطع وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم ... »

ثم يمضي المؤلف في مناقشة هذا الرأي حتى يقول في ص ٦ : « » وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله تبارك وتعالى بفقوى في أنفسنا اعتقاد كونها توقيفاً من الله تعالى وأنها وحى . »

ونتيجة كل هذا أن وجد في الشرق المذهب الروحي ، ونما عند الشرقيين كل ماله مساس بالمعاني الروحية .

والدارس لتاريخ الشرق ، والمتتبع لأنظمة المجتمع في الشعوب السامية على الخصوص يستطيع أن يلمح فيهم هذه النزعة الروحية ، وذلك الميل إلى الالتجاء إلى القوى الخفية ، إلى السماء ، إلى الآلهة ، في كل ما يعز عليهم إدراكه أو ما يحار العقل في فهمه . فكثير من أخلاقهم ، وعاداتهم ، بل وقوانينهم كان متأثراً إلى حد بعيد بهذه القوى المدبرة ، الخالقة ، وبذلك العوالم الخفية المجهولة ؛ وليس نظام التحكم الإلهي بصوره العديدة إلا أثراً من آثار ذلك النزوع الروحي ، والاستسلام العقلي إلى ما تكشفه السماء ، ويصدر عن الآلهة ^(١) . وقد انتقل هذا النظام من الدولة البابلية إلى الدولة الآشورية وامتدت آثاره إلى سكان شبه الجزيرة العربية ؛ ولا يزال الآن نرى صوراً مختلفة منه في قبائل البدو الضاربين في الصحراء الشرقية من أرض مصر . وتبع ذلك أيضاً ما كان معروفاً عند شعوب الشرق منذ القدم من إلقاء زمام كثير من

(١) لقد فصلنا الكلام عن نظرية التحكم الإلهي في كتابنا - العراق وما توالى عليه من حضارات - الطبعة الأولى ص ١٧ . وانظر أيضاً : قصة الحضارة - تأليف ول ديورانت - وترجمة الأستاذ محمد بدران - الجزء الثاني - الشرق الأدنى - ص ٢٠٧ وما بعدها .

الأُمور في نظام المجتمع إلى المعابد ورجال الدين ؛ فكان منهم الأطباء ،
وكان منهم القضاة ، وكان منهم المشرعون ، وكان منهم العلماء ، وكان
منهم المنجمون ؛ ولم يكن يرد لهم في أغلب الأحيان رأى ، بل لقد
وصل من مكائهم في المجتمع أن كانوا يملون إرادتهم على رجال السلطة
الدنيوية ؛ فكانوا هم الذين يولون الملوك . كانت هذه الظواهر الاجتماعية
من أهم ما لفت نظر الإغريق عند ما جاءوا يدرسون العلم والحكمة في
الشرق ، ثم يدرسون تاريخه ، وأخلاقه ، وعاداته .

وكلمة تغلغل الإغريق في معرفتهم بالشرق ، وزاد اختلاطهم بالشرقيين ،
كانت تزداد دهشتهم من سمو السلطان الروحي واستشاره بنفوذ أوسع ،
وبسلطة أكبر إذا ما قورن بالسلطان المادي .

ولعل أقرب صيغة في مصطلحات الشعوب الحديثه لتصوير ذلك عند
المجتمعات القديمة في الشرق هي : الدين مصدر السلطات ؛ كما يقال الآن الأمة
مصدر السلطات ؛ بل إن ذلك الاصطلاح كان يحمل معنى أوسع وأدق
نما يحمله هذا الاصطلاح الحديث .

ولم تنقطع دهشة الإغريق ، بل انتقلت إلى الرومان فأخذوا يدرسون
الشرق على ضوء المعارف الإغريقية ؛ ثم اتصلوا مباشرة بالشرقيين
وبدءوا يفهمون ويحللون هذه المظاهر الروحية فكتبوا عن ذلك معجبين

مرة وسآخرين أخرى ^(١) .

ورث الغرب الحديث عن أسلافه من اليونانيين والرومانيين هذه المعارف ، ولاحظ بنفسه وجود أثر المعنى الروحي عند الشرقيين ؛ فبدأ علماءه وباحثوه يفهمون نفسية الشرق ونزعتهم بالنسبة للأنظمة الاجتماعية ، ولكنهم اتجهوا في تعليمهم لكل ما يقفون عليه وجهة تخالف وجهة علماء اليونان وعلماء الروم .

وقد علل علماء الغرب هذه الظاهرة الاجتماعية في العالم الشرق بأن الشرق أرض الأديان ، ومهبط الوحي ومبعث الرسل والأنبياء .

وإن بيئة هذا شأنها لخلق بها أن تكون مصبوغة بالصبغة الدينية ومتأثرة بالزعات الدينية ، وقائمة على الأسس الدينية ؛ والذي عهد في كل الأديان ، وثنيها وسماويها ، هو الاهتمام العظيم بتربية الروح ، وغرس بذور الخضوع في صورة الاحترام والتقديس لكل ما هو خفي

^(١) لقد تناول الكلام عن الديانة والآلهة وأثر ذلك في الأنظمة الاجتماعية في الشرق وبصفة خاصة في مصر كثير من الكتاب اللاتينيين مثل تاسيتوس ، وفيرجيليوس ، وجوفينال ؛ ولعل أهم من أفاض في ذلك هو شيشرون في مؤلفه — عن طبيعة الآلهة — الكتاب الأول — الفصل السادس عشر والرابع والعشرين ، والسادس والثلاثين .

وبعيد عن العقل البشرى إدراكه .

ومن شأن الاحترام والتقديس في هذه الصورة أن يقيدا العقل إلى حد ما ، ويخلقوا حوله جوا ليس من السهل تجاوز حدوده ، ولا اختراق آفاقه بحثاً عما يكون وراءه من أسرار ، وطلباً لفهم ما يمكن أن يوجد من مجهولات . وقد تناول شيشرون قديماً هذا المعنى في كثير من مواقفه ؛ ولعل أهم من بحث هذا الموضوع وأفاض فيه من المحدثين هو الاستاذ امـدى ديكسنـل *Amédée Duquesnel* في كتابه « تاريخ الآداب *Histoire des Lettres* » المطبوع في سنة

١٨٤٥ .

وأظننا الآن لانبجد معنى للقول بأن اللغة توقيفية ، فما نشاهده بأنفسنا في اللغات المختلفة ، وما نراه من تكيف كل لغة بتكيف الشعب الذي ينطق بها والبيئة التي تنمو فيها لا يترك مجالاً للشك في أن اللغة ظاهرة اجتماعية يخلقها المجتمع الإنساني ، ويتجه بها حيثما توحى إليه ظروف البيئة التي يعيش فيها : ومن هنا كانت اللغة يغلب عليها الاتجاه الروحي ، وتسود فيها المعاني الروحية ، وتنتشر فيها الألفاظ التي تعبر عن تلك المعاني ، إذا كانت في بيئة دينية روحانية . ويغلب عليها الاتجاه المادي ، وتنتشر فيها أسماء الآلات والصناعات والمكتشفات إذا كانت في بيئة مادية صناعية . وهكذا إذا تتبعنا اللغات المختلفة في البيئات المختلفة .

والآن بعد أن استعرضنا آراء القدماء شرقاً وغرباً بالنسبة لنشأة اللغة وما قيل فيها من توقف ووضع نحب أن نلم سريعاً برأى المحدثين لكي تتم لدينا صورة واضحة عن طبيعة اللغة وكيف كانت تفهم قديماً ؛ وكيف يمكن أن تفهم الآن .

لقد خطت الدراسة اللغوية في العصور الحديثة خطوات سريعة ، وتناولها كثير من العلماء باعتبار أنها أهم مظهر من مظاهر رقى المجتمع وأعظم سجل لتاريخ المجتمعات ؛ ولم يقتصر أمر هذا البحث على علماء النفس والاجتماع ، ولا على رجال اللغة والأدب ، ولكنه تعدى كل هذه الطبقات ، وشغل جزءاً هاماً من علم التشریح فسخر الأطباء جانباً من مجهودهم لتحليل هذه الظاهرة الاجتماعية وإزالة ما علق بها من غموض . ونحن نؤثر بالذكر رأى هذه الطبقة في نشأة اللغة لما لهم من نظرة ثاقبة ، وتجربة دقيقة ، وخبرة تامة بالنفس الانسانية وبوظيفة أعضائها : —

يرى علماء التشریح أن أول ظاهرة من ظواهر اللغة الانسانية إنما هي صراخ الطفل بعد ولادته ؛ إذ أن هذا الصراخ ليس في الواقع سوى نتيجة لإحساسه بشيء يؤلمه ؛ وليس من سبيل لتحديد هذا الإحساس ولا نوع الألم الذي صدر عنه ذلك الإحساس ؛ وكل ما يمكن أن يقال بشأنه إنما هو إحساس عام ؛ والذي يحدث في مثل هذه الحالة هو أن تسرع الأم أو من يشرف على شأن الطفل ببذل شيء لإسكاته ومراضاته إما بابتسامة

تهديها ، أو بأنشودة تغنيها ، أو بشدى تقدمه لأرضاعه ، أو بشيء لذيد تعطيه
 لإطعامه ، أو بضممة رحيمه إلى صدرها . أو بهزة لطيفة بين يديها ؛
 وقد يكون الطفل راغباً عن كل ذلك ، وقد يكون صراخه ناتجاً عن
 إحساسه بالألم ، ولكنه سرعان ما يزول عنه مصدر ذلك الإحساس ،
 ويدرك بحسه لا بعقله أن ذلك الصراخ قد منحه شيئاً حلوا وأعقبته
 مرضاة لذيدة ؛ ومن ذلك يبدأ الطفل في استعمال الصراخ لا ليعبر به عن
 ألم بحسه ، ولكن ليشرح به حاجة يطلبها ، ورغبة يتمناها ؛ ومن هنا
 يكون الصراخ أول مرحلة من مراحل اللغة ، وأسبق تعبير من تعبيراتها .
 والمرحلة التالية من مراحل اللغة هي الإشارة ، حيث يبدأ الطفل في
 التوفيق بين إشاراته وبين الاصطلاحات الخارجية التي تحيط به ، ثم يأتي
 بعد ذلك مباشرة دور التوفيق بين هذه الاصطلاحات الخارجية وبين
 إشاراته هو بالنظر أو بالرأس أو باليد ؛ ومما أثبتته التجارب أن
 إدراك للطفل لما تنطوى عليه الإشارة باليد أو بالنظر أو الإشارة
 المتعلقة بالذوق العام أسرع من إدراكه لما تنطوى عليه الإشارة المتعلقة
 بالسمع . والطفل ، بالرغم من تأخره في إدراك المسموعات ، يأخذ
 ميكراً في محاكاة تلك المسموعات فيخرج أصواتاً لا يفهمها الآخرون
 ولا تؤدي في نظرهم أى معنى ، ولكنها تعبر عن إدراكات لديه ،
 ورغبات عنده . وفي أثناء ذلك يتكون الجهاز الصوتي عنده ويبدأ
 يمارس وظائفه ، فينتقل الطفل بهذا الجهاز إلى مرحلة ثالثة من مراحل

اللغة فيخرج أصواتاً تدل على معانى ولكنه أيضاً لا يستطيع أن يعقد صلة
 بين هذه الألفاظ وبين موضوعها ، وذلك مثل كلمة « بابا » وكلمة « ماما » .
 المرحلة الرابعة هي التي يبدأ الطفل فيها فيعقد الصلة بين الألفاظ وبين
 موضوعاتها ، وهنا يبدو تقدمه في اللغة بواسطة الكمية التي يعيها من الأسماء ؛
 وقد لوحظ في هذه المرحلة أيضاً أن إدراك الأسماء أسبق من إدراك
 الصفات ، وأن أدراك الصفات المتعلقة بالذوق أسبق من إدراك الصفات
 المتعلقة بالإحساسات الأخرى . هذا فيما يختص بالأسماء والصفات التي
 لا صلة لها بالزمن ؛ أما الصيغ المعبرة عن الأحداث والمتصلة بالزمن
 فلنشأتها وتطورها نظام آخر : لوحظ أن الصيغ الزمنية الأولى التي يلجأ
 إليها الطفل للتعبير عما يدركه من أحداث إنما هي صيغ الحاضر ، إذ
 إنه لا يعرف الأمس ولا مايتعاق به ، ولا الغد ولا ما سيكون فيه . ثم
 ينمو إدراكه بالأحداث الزمنية ويتجاوز الحاضر إلى الماضي فيبدأ يذكر
 ما حصل له ، وما أحس به ، ولكنه يستمر فترة من الزمن قد تطول
 وقد تقصر وهو بعيد عن إدراك المستقبل الذي يحتاج إلى
 شيء غير يسير من الجهد والتفكير إذ أنه من السهل على الطفل أن يقارن
 بين الصور التي يلمسها ويحسها في الحاضر ، وبين صور أخرى تشبهها قد
 لمسها وأحس بها في الماضي ؛ أما ما لم يكن رآه ولا أحس به مما هو متصل
 بالمستقبل فإنه يصعب عليه إدراكه وتصوره . وهذه الصعوبة التي تحول

بينه وبين إدراكه للمستقبل تشبهه الى حد كبير نفس الصعوبة التي تحول
بينه وبين إدراكه لمعنى — أنا — فهو لا يستطيع بعد أن ينطوى على نفسه ،
ولا أن يوجه إدراكه وإحساسه إليها بدل أن يصرّفها إلى ما يحيط به من
عالم خارجي ؛ ولذا فهو لا يتحدث عن نفسه ؛ ولكنه يتحدث عن
الغير ؛ وإن يكن في مقدوره إدراك نفسه ، والإلمام ببعض آفاقها إلا
بعد أن تتكون لديه مجموعة كبيرة من الصور ، وطائفة غير يسيرة
من المدركات ؛ وحتى في هذه الحالة عندما يبدأ يدرك نفسه لا يتحدث
عنها بصيغة — أنا — وإنما يتحدث عنها بصيغة الشخص الثالث ، أى
بصيغة الغائب ؛ إذ أن حديثه عن الآخرين يدخل ضمن القصص
والوصف ؛ والتعبير الطبيعي لهذين النوعين من الكلام إنما هو التعبير بصيغة
الحاضر والماضي ؛ وقد ظهر فيما مضى أن إدراك صور الماضي والحاضر
أسرع بكثير من إدراك صور المستقبل . أما الحديث عن النفس فإنه
يدخل في نطاق الانشاء ، والإنشاء مرحلة لا تأتي إلا بعد اعداد .

وفي كل هذه المراحل التدريجية التي مر بها الطفل منذ إدراكه لبعض
الصور حتى استطاع أن يعبر عما يدركه بالصيغ الزمنية الرئيسية الثلاث
ينبغي ألا يغيب من حسابنا أن إدراكه للحسوسات أسرع من إدراكه
للمعنويات ، فهو يرى ويسمع قبل أن يتخيل ويفهم .

ولعلّ مما يتصل بموضوع اللغة ونشأتها أيضاً هو ما يذكره علماء

التشريح من أولية الكتابة والقراءة ، فإنهم يقررون أن الكتابة تسبق القراءة إذ أن الكتابة وليدة الحس بينما القراءة وليدة الإدراك ؛ وكما أن الإشارة باليد تسبق النطق باللسان فإن الرسم يسبق الكتابة ؛ وإذن فمراحل اللغة من ناحية التسجيل ؛ لا من ناحية النطق ، هي : الرسم ، ثم الكتابة ، ثم القراءة .

ونحن لو استعرضنا تاريخ اللغات الكتابية لوجدنا أنها كانت في أول أمرها رسوما ، ثم أنها قد أخذت في التطور حسب مقتضيات الظروف والأحوال حتى آل أمرها إلى رموز صوتية بدل أن كانت رسوما لأمور حسية . وليس لنا الآن أن نفيض في الكلام عن هذا الموضوع فقد يبعدنا عن بحثنا الأصلي ؛ ولكتنا نريد أن نمثل فقط بما هو معروف من اللغات لنثبت ما أشرنا إليه بصفة إجمالية .

إن اللغة الهيروغليفية مثلاً واللغة المسمارية لم يكرنا في أول أمرهما شيئاً آخر سوى رسوم لكائنات محسوسة ^(١) : أناس ، حيوانات ،

(١) انظر - وادي الرافدين مهد الحضارة - ص ٣٢ دراسة اجتماعية لسكان العراق في فجر التاريخ للسير ليونارد وولي وتعريب أحمد عبد الباقي . طبع دار الكتاب العربي بمصر - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ - وانظر أيضاً ما جاء في كتب التاريخ عن مصر القديمة من نهج ص -

طيور ، أسماك ، نباتات ؛ ثم اختصرت هذه الرسوم وتحوّرت على ممر الزمن فأصبح الرسم الواحد يدل على جملة أشياء بدل دلالته على الكائن الحي نفسه ؛ وأخيراً استعالت إلى رموز صوتية قريبة الشبه بما نراه اليوم في الكتابات الحديثة المختلفة كالكتابة العربية ، والكتابات اللاتينية ؛ وها نحن أولاء لا نزال نرى صورة من الكتابة الرسمية القديمة عند الشعوب المتحضرة كالفرعنة ، والسومريين ، والبابليين ، والآشوريين ؛ نقول لا نزال نرى صورة من تلك الكتابة الرسمية القديمة عند الشعب الصيني .

هذا والطفل في أول عهده ، كما يقرر ذلك أيضاً علماء التشريح ، يلجأ إلى الرسم ويمارسه قبل أن يمارس الكتابة ؛ فهو إن أعطى ورقة وقلماً يبدأ في التخطيط وفي رسم أشياء مما يقع تحت حسه قبل أن يبدأ في الكتابة ؛ ولن يأخذ في الكتابة إلا بعد نمو عقله وإدراكه غير قليل ؛ وحتى في أول عهده بتعلم الكتابة إنما يبدأ المعلم معه بتعليمه نسخ شيء أو نقله ، فهو أيضاً في هذه المرحلة يرسم لا يكتب ، ويقلد لا يخلق ولا يعبر ؛ إذ أن الرسم في مراحله الأولى وفي أشكاله المختلفة وليد الحس ، أما الكتابة بمعناها المتعارف فهي وليدة العقل ؛ وبما أن الحس أسبق في تكوينه من العقل ؛ فإن ما هو وليد الحس أسبق مما هو وليد العقل .

== هيروغليفية ، حيث يوجد صور عدة ومختلفة عن الكتابتين : المسمارية والهيروغليفية .

وقد استدل على ذلك علماء التشریح بأدلة منها : إننا نستطيع أن نعلم الآخرين نسخ شيء أو نقله دون أن نعلم هؤلاء الآخرين قراءة ذلك النسخ أو النقل وذلك مثل ما كان يحدث عند المصريين القدماء وعند السومريين كذلك ؛ ومن هذه الأدلة أيضاً ما لوحظ بصفة مؤكدة من أننا نفقد القدرة على القراءة ، ولا نفقد القدرة على الكتابة .^(١)

قد يظن القارئ أننا أطلنا الحديث عن نشأة اللغة ، وأننا خرجنا عن موضوع البحث في اللغة كظاهرة اجتماعية إلى اللغة كيف تنشأ عند الطفل أما عن النقطة الأولى فإن كل ما ذكرناه لا يتجاوز القدر الضروري فيما نظن ، لعرض اللغة ، والتعريف بها . وأخذ صورة واضحة عنها وعن مراحل تكونها ؛ وخصوصاً إذا عرفت خطورة الأبحاث اللغوية ، ومكانتها بالنسبة لسائر الأبحاث الأخرى وأدركت مهمة فهم اللغة ، وطبيعة تكونها بالنسبة لبحثنا عن النحو العربي وتحليله .

وأما عن النقطة الثانية فإننا عرضنا لرأى علماء التشریح في نشأة اللغة

(١) انظر الفصل الثالث من كتاب : « العبقريّة الأدبية »

Paris 1912 le génie littéraire par Dr A. Remond et Paul Vouvenet.

حيث يوجد عرض كامل لهذا الموضوع عند علماء التشریح .

عند الأطفال وبيان المراحل التي تمر بها ، سواء أكانت لغة النطق أم كانت لغة الكتابة ، لأن كلام هؤلاء الأطباء عن اللغة عند الأطفال يرسم لنا في نفس الوقت صورة عن اللغة عند المجتمعات ؛ وهل المجتمعات البدائية سوى أطفال بالنسبة للمجتمعات الراقية ؟ وهل حياة المجتمع ومظهره تطوره في اللغة ، وفي الكتابة ، وفي الإدراك ، كما يدرسها ويحللها علماء النفس والاجتماع ، نقول هل حياة المجتمع بالنسبة لهذه النواحي يمكن أن تكون شيئاً آخر سوى صورة من حياة الطفل ، ومظاهر تطوره في اللغة ، وفي الكتابة ، وفي الإدراك ؟

أشهر اللغات

واللغات المشهورة التي شغلت العلماء ، وكانت هدفاً لأبحاثهم ، وموضوعاً لدراساتهم هي اللغات التي تفرعت عن هذين الاصلين : الآري والسامي . فمن الآري تفرعت السنسكريتية ، واليونانية ، واللاتينية . أما السنسكريتية فقد انتشرت في الشرق . وأما اليونانية واللاتينية فقد نمتا وتفرعتا في الغرب .

ومن الاصل السامي تفرعت اللغات السامية المعروفة وهي : البابلية - الآشورية ، والكنعانية (الفينيقية والعبرية) ، الآرامية ، والينينية ، والحبشية ، والعربية .

ولما لم يكن من شأننا ولا من موضوع بحثنا أن ندرس هذه اللغات
العديدة ، ونتبع فروعها الكثيرة المتشعبة فسنتركها جانباً ، ونخص بالكلام
اللغة العربية التي هي موضوع درسنا الحقيقي .

أسبق اللغات

أما الكلام عن أسبق اللغات ، وأيهما كانت اللغة الأولى للمجتمع
الإنساني فنظن أنه كلام لا طائل تحته ، إذ لا سبيل لمعرفة ذلك الآن ،
أفكل ما لدينا من وثائق التاريخ ووسائل العلم لا يجعلنا نطمئن إلى ما ذكره
القدماء بخصوص هذا ، ولا يجعلنا كذلك نؤمل أن نصل إلى معرفة ذلك
بعد قليل . وكل ما ذكره القدماء في ذلك إنما هو من قبيل التخمين ،
قد أملاه عليهم في أغلب الأحيان نوع من التعصب للجنس أو للدين :
من ذلك ما قيل من أن لسان آدم كان سريانياً أو عبرانياً .

وإليكم ما يذكره صاحب الفهرست ^(١) : « قال تبادورس المعسر في
تفسيره للسفر الأول من التوراة أن الله تبارك وتعالى خاطب آدم باللسان
النبطي وهو أفصح من اللسان السرياني وبه كان يتكلم أهل بابل فلما بلبل
الله الألسنة تفرقت الأمم إلى الأصقاع والمواضع وبقي لسان أهل بابل

^(١) الفهرست ص ١٨ . المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ .

على حاله فأما النبطي الذي يتكلم به أهل القرى فهو سرياني مكسور غير
مستقيم اللفظ . وقال غيره اللسان الذي يستعمل في الكتب والقراءة وهو
الفصيح فلسان أهل سوريا وحران والخط السرياني استخرجته العلماء
واصطلحوا عليه وكذلك سائر الكتابات وقال آخر إن في أحد الأناجيل
أو في غيره من كتب النصارى أن ملكا يقال له سيمورس علم آدم
الكتابة السريانية على ما في أيدي النصارى في وقتنا هذا ، ثم يمضى صاحب
الفهرست في بيان أقلام السريانيين .

ونحن نورد هنا على سبيل المثال ما ذكره هيرودوت المؤرخ اليوناني
الكبير :

يرى هيرودوت أن أحد الفراعنة من ملوك مصر أراد أن يعرف اللغة
الطبيعية الأولى للجنس البشري . ولعله سأل في ذلك العلماء والفلاسفة
ورجال الدين ، فلم يجد لديهم جوابا يطمئن إليه ، وأخيراً فكر في هذه
التجربة ونفذها : ذلك أنه أمر أحد خواصه بأن يبحث عن طفلين رضيعين
حديثي عهد بالولادة ، ويضعهما بمعزل في مكان ناء عن المجتمع بحيث لا تصل
إليهما أصوات الناس ، ثم يتعمدهما بالرضاع والإطعام حتى يكبرا
دون أن يسمعا أى لفظ كان من أى إنسان كان . وقد أشرف هذا الرجل
على تنفيذ إرادة المالك . وفي يوم ما وهو يقدم إليهما الطعام سمع أول
لفظة ينطق بها أحد الطفلين وهي (بيكوس) فطار بها الرجل وأبلغها

للملك . ولما لم تكن هذه اللفظة معروفة في اللغة المصرية فقد سأل العلماء في ذلك ، وأخيراً عرف أن هذه اللفظة إحدى ألفاظ اللغة اليونانية ، وأن معناها (الخبز) .

وأظننا في غير حاجة لأن نشير إلى الروح التي أملت على هيرودوت أن يقص هذه القصة ، وفي غير حاجة أيضاً لأن نذكر الهدف الذي رمى إليه من وراء هذه القصة .

ومما يدخل معنا أيضاً ويتصل بهذا الموضوع ما يقال عن مستقبل بعض اللغات مثل مانسمعه من أن لغة القبر هي السريانية ، أو أن لغة أهل الجنة هي اللسان العربي ، أو أن الشعوب جميعاً صائرة إلى أن تصبح شعباً واحداً يتفاهم بلغة واحدة . ومما يشبه ذلك ما قام به العلماء منذ قليل من ابتكار لغة عالمية تصلح أداة لتفاهم الشعوب جميعاً ، تلك هي لغة الاسبيرانتو .

وبالرغم من مشاركة القائمين على شأن هذه اللغة حتى اليوم ، وبالرغم من محاولاتهم العديدة لتثبيت أقدامها والعمل على تعميمها ونشرها ، وبالرغم مما ألفوه في هذا الميدان من كتب ، وما أنشئوه من مكنتات ، وما نشروه من أبحاث فإنها لا تزال في دائرة ضيقة محدودة ، ولا تزال بعيدة عن أن تصبح لغة تفاهم حتى بين القائمين عليها .

واقعد أردنا أن نخبر هذه اللغة ، وحاولنا أن نبين مدى قبولها للانتشار

فقرأنا بعض ما كتب منها باللغة الفرنسية ، واتصلنا ببعض المشرفين على تعليمها في باريس خلال عامي سنة ١٩٤٧ و سنة ١٩٤٨ م ، ولكننا خرجنا من كل ذلك بفكرة هي : أن هذه اللغة صائرة إلى الموت قبل أن تغادر المهد وأن هذه المحاولات مآلها الفشل بالرغم من صدق المشرفين عليها ، ومن إخلاصهم في العمل . ونستطيع أن نعزو ذلك إلى أسباب نلخصها فيما يلي :—
أولا : أن اللغة لا تفرض على الشعوب فرضا فهي ليست مظهراً خارجياً يمكن تشكيله حسبما تتطلب الظروف وإنما هي عنصر أساسي من عناصر تكوين المجتمع تمتزج بروحه منذ طفولته ، وتلازم تطوره العقلي في كل مظهر من مظاهر ذلك التطور ، وليس أدل على ذلك من فشل محاولات بعض الشعوب في فرض لغاتها على بعض المناطق التابعة لدول أخرى ، جرياً وراء أغراض سياسية ، وذلك مثل محاولات فرنسا في إقليم السار التابع لألمانيا ، ومحاولات ألمانيا المتكررة في إقليم الألزاس واللورين التابعين لفرنسا . بل هناك ما هو أبعد من ذلك في الدلالة ، فقد تقوم الدولة السياسية على عنصرين أو أكثر من عناصر الأمة الواحدة ، ومع ذلك يستمر كل عنصر يحافظ على لغته الخاصة ، وأسلوبه في التعبير والأداء ، دون أن يتأثر بمحاولات الدولة من أجل التوحيد في اللغة ، كما تأثر بها في محاولاتها من أجل التوحيد في الأهداف السياسية للوطن وفي كثير من المظاهر الاجتماعية للمواطنين ؛ وأوضح مثال لذلك بلجيكا ، التي تضم بين حدودها عنصرين متباينين في اللغة : عنصر ينطق بلغة هي من أصل

ألماني ، وعنصر ينطق باللغة الفرنسية ؛ وأكثر من ذلك سويسرا التي تضم بين حدودها ثلاثة عناصر مختلفة ؛ عنصر يتحدث بالفرنسية ، وعنصر يتحدث بالإيطالية ، وعنصر يتحدث بالألمانية .

وأما أيضاً من الأمثلة الحية ما رأيناه من فشل محاولات الإنجليز في فرض لغتهم في يوم ما على المصريين ، وعلى الهنود ؛ وكذلك ما رأيناه من فشل محاولات فرنسا في فرض لغتها على شمال أفريقيا ، وعلى سوريا ولبنان . أما ما نراه في كندا أو في الولايات المتحدة أو في غيرها من البلاد الأخرى فإن اللغة فيها لم تفرض على السكان الأصليين ، ولكن السكان الجدد هم الذين جاءوا إلى هذه البلاد بلغة جديدة فاستعمروها واستمروا يتحدثون بلغتهم الأصلية .

ثانياً : أن تعليم لغة جديدة من اللغات لأفراد أو لشعب من الشعوب لهم لغتهم الأصلية يستلزم في كثير من الأحيان شيئاً من المنطق ؛ واللغة كظاهرة طبيعية من مظاهر المجتمع تتنافى مع المنطق ؛ ويكاد يكون مستحيلاً تعليم شعب بأسره مادة من المواد تخضع للبقايس المنطقية ؛ ولم يكن فشل المحاولات التي أشرنا إليها سابقاً إلا نتيجة لذلك .

ما هي اللغة العربية ؟

واللغة العربية التي نحن بصدد الحديث عنها هي تلك اللغة التي كان ينطق بها أفراد القبائل الضاربة في شبه الجزيرة العربية ، من شمال اليمن حتى ريف العراق وبادية الشام .

وكانت هذه اللغة متشعبة ومتنوعة بتنوع القبائل الناطقة بها ، وذلك ما يعرف باللهجات العربية . ومنذ نهضت قبيلة قريش في أرض الحجاز وبدأت تسود غيرها من القبائل وتزعمها في الدين والسياسة والاقتصاد أخذت لهجتها كذلك تسود اللهجات الأخرى ، وتتغلب عليها . وقد استمرت هذه اللهجة في طريقها من الرقي بواسطة عدة عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية حتى كادت تهمل في جانبها لهجات القبائل الأخرى ، وهي التي أورثتنا هذه الآثار الدينية والأدبية والعلمية ؛ وهي أيضاً لغة القرآن والحديث والأدب العربي .

وعلماء الشرق مجمعون على أن هذه اللهجة هي لهجة قريش ؛ ولكن من بين الغربيين الآن من بدأ يناقش هذا الرأي قائلاً بأن ما يسميه العلماء لهجة قريش يغلب على الظن أنه غير صحيح ، إذ من الصعب أن نتصور لقريش لهجة خاصة مع ما نعرفه من عدم بقائها في بيئة منعزلة عن القبائل الأخرى . فقد كانت بيئتها مورداً للقبائل العربية يأتون إليها للتجارة والحج والمفاخرة والمنافرة في الأسواق .

وكانت قريش بحكم زعامتها الدينيه والاقتصادية دائمة الاتصال تقريبا بهذه القبائل .

وعلى هذا فإن لهجة قريش يمكن أن يقال عنها بأنه لا وجود لها ، وما هي في حقيقة الامر إلا خليط أو مزيج من لهجات القبائل الأخرى تكون على مر الزمن ، وانتهى به الامر إلى أن يكون لهجة البيشة الحجازية التي تسكنها قريش .

ونحن بدورنا نقول إن هذا الرأي مع ما له من وجهة ، وفيه من نضوج وعمق تفكير لا يسهل التسليم به : إذ أننا كيف ننفي وجود لهجة قرشية بسبب كثرة الدخيل فيها ؟

من المسلم به أن قريشا كانت على صلة بالقبائل العربية الأخرى ، وأن لهجتها كانت في أغلب الأحيان هدفالاً تطعم من اللهجات الأخرى .

ومها كثرت الدخيل في تلك اللهجة القرشية فلن يرق فيما نظن إلى أن ينمحي أمامه الأصل ليتأصل ذلك الدخيل . والذي ينبغي أن نتصوره ونطمئن إليه هو أن لقريش لهجة خاصة ممتازة ، وكانت مع ما لها من صلات دائمة باللهجات الأخرى تبتلع وتهضم ما يفسد إليها من تلك اللهجات . وليس أدل على ذلك من هذه الفروق في اللهجات الأخرى التي نجدها في بعض الأمثلة والشواهد التي نقلها إلينا من تصدى جمع اللغة وتدوينها من القدماء . وحتى لو سلمنا جدلاً بأن اللهجة القرشية الأولى قد انمحت تماماً وحل

محلها هذا الخليط من اللهجات الأخرى فإننا لا نزال نجد أنفسنا أمام لهجة
متناسكة ومتميزة عن غيرها من اللهجات الأخرى . ويستوى في ذلك أن
نسميها لهجة قريش أو لهجة بيئة الحجاز .

هذه اللهجة القرشية السائدة في بيئة الحجاز والمتزعمة تبعاً لمكانتها لجميع
اللهجات العربية الأخرى هي التي نزل بها القرآن ، وزوى بها الحديث ،
وما بقى من الشعر الجاهلي . ثم هي نفسها الأداة التي دونت بها العلوم
والمعارف الإسلامية في مختلف العصور . وسنرى عند الكلام عن النحو
العربي أنه أسس على هذه اللهجة القرشية ، ولم يتعرض لغيرها من اللهجات
إلا في القليل النادر . وكذلك الحال بالنسبة لمن تصدى لجمع اللغة العربية
وتدوينها . وهذا ما جعلنا نحس دائماً بفجوة في معلوماتنا عن اللغة العربية ،
وبعجز عن فهم بعض النصوص العربية التي وردت عفواً في ثنايا الكتب ،
والتي علمها علماء اللغة بما يسمونه الشذوذ ؛ وما كان يملأ هذه الفجوة ولا
يوضح تلك الأمثلة الشاذة — كما يسمونها — إلا معرفتنا بتلك اللهجات
العربية الأخرى . ومن هنا نلمس كم أتعبنا هؤلاء العلماء وأضاعوا علينا من
الفوائد ، وإن لم يكن ذلك منهم عن قصد واختيار . ولو أنهم نقلوا إلينا
(فيما نقلوا) سائر اللهجات العربية الأخرى لأراحوا النحاة وأراحونا معهم
من تلك التأويلات البعيدة ؛ وذلك التخريج العجيب ، وليكن سبحانه الله
وغفر لهم .

١١ على أننا لم نصل بعد إلى درجة اليأس من الوصول إلى معرفة شيء
كثير من تلك اللهجات . فهناك يمكن أن نعثر على بعضها في بطون
كتب اللغة ؛ وفي ثنايا كتب النحو ؛ وفي خلال النصوص الأدبية ؛
وخصوصاً في القراءات العديدة التي قرئت بها آيات القرآن . نعتقد أننا
لو قرأنا ذلك كله قراءة الممحض المدقق ؛ واستخرجنا من تلك الكتب
جميعاً ما يدخل في هذه الدائرة من البحث ؛ ثم جمعنا هذه العناصر المبعثرة ؛
وألفنا بين هذا الشتات لتكبرنت لدينا ثروة لا تشك في أنها تصلح لأن
تكون موضوعاً لهذا الدرس . ١٢

إن تعدد اللهجات من طبيعة اللغات ، سواء في ذلك قديمها وحديثها ؛
وكثيراً ما كان الحرص على معرفة اللهجات المختلفة معيناً على فهم أساليب
اللغة وما فيها من أسرار بلاغية ؛ ووسيلة لإدراك الفروق بين الشعراء
والكتاب الناشئين في بيئات مختلفة اللهجات ، وكثيراً ما كان الحرص على
جمع اللهجات المختلفة للغة من اللغات أساساً لدراسة تلك اللغة . ومعرفة
الظروف التي نشأت فيها . ثم تطورت حتى أخذت لها مظهراً موحداً ؛
وأسلوباً عاماً .

ونظرة بسيطة إلى تاريخ اللغة اليونانية . وآثارها الأدبية . ثم مقارنة
هذه الآثار بعضها ببعض . بالنسبة للألفاظ ومعانيها والجل وتركيبها ،
والأفكار وطرق عرضها ؛ نقول إن نظرة بسيطة إلى ذلك تليق ضوءاً على

قيمة معرفة الدراسين باللهجات المختلفة في اللغة الواحدة . ولقد ترسم علماء اللغة اليونانية وآدابها هذه الخطوات فاهتموا إلى نتائج هامة بالنسبة لفهم اللغة وآدابها . ولعل أهم تلك النتائج من الناحية العملية بالنسبة للغة ، ومن الناحية العلمية بالنسبة للدراسين هو ما وجدوه من ثروة طائلة في وسائل التعبير عن الفكرة الواحدة .

ولقد ساءت اللغة اللاتينية بعد اليونانية نفس الخطوات . وكان اهتمام الباحثين فيها وفي آدابها مماثلا لاهتمام الباحثين في اللغة اليونانية . ثم إن النتائج المادية والعلمية لجمع اللهجات ودراساتها وتحليل أساليبها بعد أن اتخذت سبيلها إلى التوحيد تشبه في جملتها نفس النتائج التي وصلت إليها دراسات اللغة اليونانية وآدابها .

هذا وقد أخذ العلماء في دراسة اللغات الحديثة وآثارها بنفس الطريقة التي درست بها اللغات القديمة . واستطاعوا ملاحظة كثير من الفوارق بين الأدباء المختلفين باختلاف بيئاتهم ولهجاتهم . وذلك مثل ما حدث في اللغة الفرنسية ، فإن ما يمتاز به الآن من ثروة في المفردات ، وسهولة في التعبير ، ودقة في الأداء . إنما مرجعه إلى تعدد لهجاتها ، وتباين أساليبها ، ثم إبقائها على الكثير من مزايا هذه الأساليب وتلك اللهجات .

ومن هنا يتبين لنا إلى أي حد ينبغي أن نوجه عنايتنا بدراسة اللهجات في اللغة العربية ، وألا يكون صنيعنا حيالها صنيع رجال اللغة والنحو من

القدماء . وللوصول إلى هذه الغاية ينبغي ألا نستصغر شأن ما لدينا من أمثلة وشواهد لتلك اللهجات ، فإن إهمال القدماء لها وعدم اهتمامهم بجمعها وإبداء رأيهم بصريح العبارة فيها من أنها ضعيفة أو شاذة ، أو غير مشهورة كل ذلك قد حط من شأن قيمة معرفة هذه اللهجات ، وزهد من سبقونا في دراستها ؛ ويقابل هذا الإهمال تشيع متعمد من ناحية أخرى بالنسبة للهجة قریش ، فقد رفعوا من شأنها على حساب اللهجات الأخرى ، بل لمنهم زادوا في احترامها ، وأسبغوا عليها صفات هي أقرب إلى صفات القداسة .

وعلينا الآن ، بعد أن اطلعنا على مناهج البحث الحديث ورأينا النتائج التي وصل إليها علماء هذه المناهج ، أن نواجه نظرية اللهجات في اللغة العربية بفكرة جديدة ، وفهم واسع ، ونجمع أولاً ما يمكننا جمعه منها مما قل ؛ فن الخيوط البسيطة الواهية يتكون الحبل القوي المتين . وهل كانت أوائل العلوم الواسعة سوى بعض المسائل البسيطة الهينة ؟ ولعل منشأ قصور الدارسين حتى اليوم هو أنهم لم يوسعوا دائرة اطلاعهم ، ولم يستوعبوا كل ذلك التراث العلي الواسع ، والأدبي الغزير . وحتى من اطلع منهم على الكثير منه لم يقرأه وهو يقصد ذلك الهدف ، أو يرمى إلى تلك الغاية التي أشرنا إليها .

ولما لم يكن من طبيعة هذا البحث أن يتعرض في شيء من التوسع لذكر هذه اللهجات العربية المختلفة ، وذكر بيئاتها ، والتعريف بمميزاتهما ،

وجمع ما يمكن جمعه من أمثلتها وشراهدا ، فإننا نترك ذلك كله لدرس
مستقل ؛ فهو ميدان بكر وخصب معا يستحق من الدارسين المختصين عناية
عظيمة وجهداً كبيراً .

ولكننا مع ذلك لا نود أن نتركه دون أن نشير إلى تلك الفكرة الخاطئة
التي سادت فيما بيننا زمناً طويلاً والتي كان من شأنها أن فهم الباحثون
قلة الموروث من تلك اللهجات ، وعدم الغناء في جمعها ، وإحيائها ؛ وكان
من شأنها كذلك أن دب اليأس في نفوس الدارسين فانصرفوا عن الاهتمام
بها أجيالاً عديدة ، وأصبحوا لا يذكرونها إلا في معرض التدليل على
ضعفها ، وفي سبيل الاستشهاد على قاعدة نحوية غريبة أو شاذة .

هذه الفكرة هي القائلة بضعف هذه اللهجات ، وبعدم مساواتها للهجة
قريش في الفصاحة والبيان ، وقد ألمعنا فيما مضى إلى فسادها ؛ وليس أدل
على ذلك من نزول بعض آيات القرآن بها ، ولإجماع علماء الإسلام على
صحة قراءة المشهورين من القراء بأساليبها ، وموقف الرسول ﷺ من
تصويب القراءات المختلفة بالنسبة للنص القرآني الواحد .

كل هذا يدعونا إلى نبذ تلك الفكرة ، وإلى أن نكرس جزءاً من
مجهودنا إلى جمع اللهجات العربية ودرسها . ولسنا نميل إلى مشايعة القائلين
بقلة الموروث من هذه اللهجات ؛ بل إننا نستطيع أن نزعم بأن ما يوجد
منها في ثنايا الكتب والآثار يصلح لأن يكون موضوعاً كافياً للدرس ؛

وقد أشرنا فيما مضى إلى مظان وجود تلك اللهجات ، وإلى المصادر التي ينبغي أن نعتمد عليها لنجمع منها المادة الأولى ؛ ونضيف إلى ما تقدم كتب التاريخ وكتب السير ، والنصوص الأدبية حتى نهاية العصر الأموي . وإن نظرة عامة إلى ما جاء في كتاب سيديويه وحده من أمثلة للهجات القبائل العربية المختلفة لتقنعنا بصدق ما نزعم ، وتكفيينا ماثونة الاستقصاء لتدعيم الدليل .

والآن بعد هذا العرض العام بخصوص اللغة ونشأتها ورأى العلماء ، قديماً وحديثاً في ذلك ، ثم بخصوص أهم اللغات ، والأسس التي قامت عليها دراسة هذه اللغات ؛ نقول بعد هذا العرض العام لهذه المسائل ، محاولين ما أمكن أن نظهر هدفنا الخاص من وراء ذلك ، وهو موضوع اللغة العربية التي الذي هو مدار بحثنا ، ننتقل إلى موضوع آخر أخص من الأول وهو الصلة بين اللغة والنحو .



اللغة والنحو

اللغة العربية - النحو :

صلته باللغة - نشأته

لقد كان موضوع حديثنا فيما مضى بمثابة تمهيد لا بد منه للحديث عن النحو ، وقد انتهينا منها إلى بيان كيف كانت اللغة العربية متعددة اللهجات ومنشرة في كل القبائل الضاربة في شبه الجزيرة العربية تقريباً ، ثم كيف تضاءلت هذه اللهجات وانحصرت في لهجة قریش فقط ، وذلك بواسطة صنيع الرواة والعلماء ، ومن تصدى لجمع اللغة ، وتدوين ملاحظات عليها .

نحن إذن أمام اللغة العربية ممثلة في لهجة قریش فقط التي ورثنا بها نصوص القرآن ومتن الحديث والتراث الأدبي القديم .

ونحن إذ نقرر ذلك إنما نساير الفكرة الشائعة التي أوضحناها في الفصل السابق ، ولسكننا حيث نجرد أنفسنا من تلك الفكرة ومن مثيلاتها من الفكر ، التي أخذناها عن القدماء بطريقة هي أقرب إلى التلقين ، حين نواجه النصوص الدينية ، والأدبية ، واللغوية مواجهة صريحة نجد أن كثيراً من لهجات القبائل العربية الأخرى ممثلة في هذا التراث اللغوي الواسع ، غير

أن ذلك التمثيل لم يكن كافياً في نظر القدماء لكي يدخلوه في حسابهم ويتناولوه بالدرس ، أو يسلموه لنا على الأقل مجرداً من تلك الاعتبار الواهية التي ألصقوها به ، والأحكام الشبيهة بالخاطئة التي أصدروها عنه ؛ فكان لذلك أثر سيء في نفس من جاء بعدهم بالنسبة لتقدير هذا التراث .

وإن صور الخلاف بين اللهجات التي نقلها إلينا النحاة في ثنائيات كتبهم لتشهد بما كان لبعض اللهجات من قوة تكاد تساوى بها قوة لهجة قريش ؛ فكل من درس النحو يدرك مبلغ النفوذ الذي كانت تتمتع به لهجة تميم ، ويعرف ما أثبتته النحاة في قواعدهم ، وفي مؤلفاتهم من خلاف بين « ما » الحجازية و « ما » التيمية . وإذا كان النحاة لم يسكتوا من صور الخلاف بين لهجة قريش ، ولهجات القبائل العربية الأخرى ، وتعمدوا فيما نظن أن يغضوا عن كثير منها ، إلا أننا نستطيع أن ندرك في سهولة صوراً أخرى كثيرة ، وقوية ومنتشرة بين سكان الجزيرة العربية فيما كان يحدث بين القبائل من مفاخرة ، ومنافرة ومهاجاة ؛ إذ أنه ليس من السهل أن نتصور خضوع شعراء القبائل جميعها للهجة قريش في كل ما يثمدونه من قصائد في مجتمعاتهم ، وفي أسواقهم الأدبية ؛ وليس من السهل أن نتصور كذلك أن الحكم بين الشعراء من قبائل مختلفة كان يدخل في حسابهم ، حين يصدر حكمه على قيمة الشعر ، ما كان من خلاف في اللهجة بين شعراء هذه القبائل المتباينة .

١٦ والنحو بالنسبة للغة هو عبارة عن مجموع الملاحظات والنواعد التي
تلتزمها أساليب اللغة في طرق أدائها للبعاني . فالالتزام الرفع في كل من
يصدر عنه الفعل أو الحدث ، والالتزام النصب في كل من يقع عليه الحدث ،
والالتزام الجر في كل حالة من حالات الإضافة وفي كل اسم مسبوق
بحرف من حروف الجر ، والالتزام الجزم في الفعل المضارع إذا أسند إلى
نون النسوة أو سبق بحرف من حروف الجزم ؛ نقول إن التزام حالة من
حالات الإعراب المختلفة لكل حالة من حالات الكلمة بالنسبة لموضعها من
الجملة إن هو إلا طريق من طرق الأداء في اللغة العربية . أما ملاحظة
ذلك للسير على نهجه فهو من النحو ١٧.

١٨ ومن هنا نلص نقطة هامة وهي أن النحو لا ينشأ مع نشأة اللغة ،
وإنما هو مرحلة من مراحل نموها ، ومظهر من مظاهر رقيها ؛ إذ هو بهذا
الاعتبار وليد العقل ، واللغة في نشأتها الأولى وليدة الحس .
وليس من شك في أن العقل متأخر في الوجود عن الإحساس . وليس
أدل على ذلك من أن النحو لا يوجد إلا في اللغات الراقية ذات الآثار
الأدبية والعلمية الواسعة ١٩.

وقد سارت اللغة العربية في هذا الطريق سير غيرها من اللغات الأخرى
كاللغة اللاتينية واليونانية مثلاً . وإذا لم يكن لدينا من الوثائق التاريخية ،
ولا من الأدلة العلمية اليقينية ما يسهل علينا مهمة إثبات ذلك بالنسبة للغة

العربية ، فإن ما نجده في مثيلاتها من اللغات الأخرى يجعلنا نطمئن إلى هذا الحكم ، ونضرب صفحا عن رأى بعض علماء العرب القائلين بأن النحو العربي قديم النشأة ، بل إنه توقيفي . كما أن اللغة في نظرهم توقيفية أيضاً . ومن هؤلاء العلماء ابن فارس ^(١) ، وستعرض بالتفصيل لوجهة نظره عند الكلام على نشأة النحو العربي .

من الثابت أن كلا من اللغة اليونانية واللاتنية قد نشأت بسيطة في ألفاظها وفي تراكيها ، محدودة في أساليبها ، وفي طرق أدائها للمعاني . غير أنها لم تلبث أن اتسعت دائرتها ، وتعددت أساليبها ، وتلا ذلك طبعاً ما يشبه التعقيد المعنوي ، فبدأت تلتزم طرقاً خاصة لتأدية المعاني ، وتميز بعض التراكيب عن بعض . إذ أن اللغة في حياتها تخضع لحياة المجتمع وطبيعته ؛ فكما اتسع المجتمع ، وتعددت مشاكله ، وتعقدت أموره كان في حاجة إلى أن تتسع لغته ، وتعدد تراكيها ، وتشكل أساليبها وفق ما يستلزمه النمو العقلي في المجتمع . ولعل أول مظهر من مظاهر رقيها هو ما وجد فيها من الأغاني الشعبية التي تكون جزءاً مما يعرف عند الغربيين بالفولكلور *Folk-lore* . ولما كانت زمام هذه الأغاني الشعبية لا يزال منوطاً بيد الحس ، ولا دخل للعقل فيه إلا عن بعد ، فإن الملاحظات النحوية والالتزامات الدقيقة المنظمة لا ترى ولا تحس إلا قليلاً ؛ ولنا فيما نراه

(١) التعريف بابن فارس تقدم في ص ٢٢

من الأغاني الشعبية شاهد على ذلك ،

ولكن عندما يدخل العقل في دور العمل ويتسلم زمام اللغة ، ويبدأ في تصريفها وترتيبها بحيث يسهل أن يؤدي بها كل ما يتصور من المعاني ، وماتدعو إليه الحياة الاجتماعية ؛ نجد اللغة تبعاً لذلك تدخل بدورها في التزام طرق للأداء مخصوصة ، وأساليب في التعبير متباينة تباين المعاني والتراكيب .

فلغة الشعوب البدائية بعيدة كل البعد عن ذلك التشقيق وتلك الطرق المتباينة في الأداء ؛ بل إن مجموعة بسيطة من المفردات وبقية يسيرة من التراكيب ، وطائفة قليلة من الأساليب التقليدية تكفي للتعبير عن حاجيات هذه الشعوب ، ولشرح أغراضها . ولكي نتصور ذلك في وضوح فما علينا إلا أن نرجع بأذهاننا إلى الورا لننظر في تاريخ الكتابة الهيروغليفية أو السومرية ؛ فإن عدداً بسيطاً من الرسوم كان كافياً لأداء ما يراد أدائه ، وللتعبير عما يراد تسجيله ؛ وبقدر ما كان يظهر من النمو العقلي في المجتمع كانت تتطور وتتعدد تلك الرسوم ؛ ولكن حينما ضاقت هذه الرسوم عن كل ما يدور في أفق المجتمع ، وكل ما يقع تحت حسه الباطني أخذت الصورة الواحدة تدل على كثير من المعاني ، فأصبحت الكتابة بذلك وسطاً بين الزمن والتصوير ؛ وفي المرحلة النهائية للكتابة تنقل إلى الرمزية الخالصة حيث تعجز الرسوم تماماً عن شرح وأداء ما يراد . وتاريخ الكتابة التصويرية يعتبر إلى حد كبير مرآة لتاريخ اللغة نفسها ؛ وكل من اللغة

والكتابة يمثل النمو العقلي في المجتمع بعد مرحلة الحس الخالص . وحينما
تصل اللغة إلى الدرجة التي تستطيع أن تسير بها المجتمع في إحساسه ،
وتصوره ، وخياله ، وإدراكه للأمور فإنها تكون قد استكملت إلى حد
كبير ثروتها في التراكمب والأساليب كما استكملت ثروتها في المفردات .
وحيث نجد أن هذه الطرق ، وتلك الأساليب هي التي تهمد الملاحظات
النحوية ، ولاستنباط القواعد والأحكام التي هي من عمل النحاة .

هذا ولو استعرضنا تاريخ حياة اللغة على ضوء هذه الاعتبارات السريعة
لوجدناها تمر بأطوار أساسية ثلاثة : طور الطفولة ؛ وطور الشباب ؛ وطور
النضوج . على أن المدة التي تقضيها اللغة في كل طور من هذه الأطوار
تختلف باختلاف الظروف والملابسات ، فقد تبقى اللغة في طفولتها لا تنتقل
إلى طور آخر مادام الشعب في حياته البدائية الأولى كلغات الشعوب في
إفريقيا الوسطى ؛ وقد تنتقل طفرة إلى طور النضوج إذا أتيح لها من
الفرص ما يؤهلها لأن تأخذ مكانتها بين اللغات المهذبة الراقية . وهكذا نجد
اللغة ، باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، تتأثر بما يتأثر به سائر الظواهر الاجتماعية
الأخرى ؛ وهذه الأطوار الثلاثة التي تكلمنا عنها إنما هي المراحل الرئيسية
الثلاث التي مرت بها كل من اللغة اللاتينية واليونانية . ونعتقد أنها هي
نفسها التي مرت بها اللغة العربية . وما يقال غير ذلك فليس بمقبول ؛ إذ
أن اللغة العربية لم تكن بدعا ولا منفردة في نشأتها عن اللغات الأخرى .

وينبغي ألا يحول جملنا بتاريخ هذه اللغة بيننا وبين الاطمئنان إلى هذا الافتراض ، كما ينبغي ألا يمنعنا ذلك الجهل أيضاً من تطبيق ما حصل في اللغات الأخرى على اللغة العربية من حيث النشأة والتطور ؛ إذ أن القوانين الطبيعية واحدة في ماهيتها وإن اختلفت في الشكل والمظهر . هذا وما وجد حتى الآن من النصوص العربية القديمة ، سواء ما كان منها منقوشاً على بعض المقابر أم ما كان مدفوناً في بعض الأماكن ، يعتبر بداية طيبة لدرس تاريخ هذه اللغة ، ويذكر بأن وراء هذه النصوص نصوصاً أخرى سيكشف عنها البحث ، وستلقي ضوءاً على نشأتها ، وتطورها . ولقد كانت أمثال هذه النصوص على قلتها وبساطتها في اللغة اللاتينية أساساً لمعرفة أوليتها ، ودرس تاريخها ؛ وما حدث في اللغة اللاتينية يشبهه إلى حد بعيد ما حدث في اللغة الفرنسية . وليس من هدفنا في هذا البحث أن نعرض لتاريخ هذه اللغات ، قديمها وحديثها ، ولا أن نبين في وضوح عهود انتقالها مع ذكر المميزات لكل عهد ؛ ولكننا قد قصدنا بما تقدم بيان القوانين العامة ، والأسس الطبيعية التي تخضع لها اللغات ؛ ومنها يتضح موقفنا من اللغة العربية ؛ ونستطيع أن نحدد أهدافنا من درسها ؛ ونبدي بعض الملاحظات على ما خفي من أمرها .

وإذن فن هذا العرض السريع يمكننا أن نستخلص الحقائق الآتية :-

أولاً : اللغة العربية التي نحن بصدد الكلام عنها لم توجد في أول عهدها

كاملة ناضجة ؛ فذلك يناقض القوانين الطبيعية العامة ؛ وإنما سارت على سنن غيرها من اللغات الأخرى ومرت بالمراحل الثلاث التي مرت بها سائر اللغات : طفولة ، شباب ، نضوج .

ثانياً : اللغة العربية كما نراها ونقرؤها تمثل المرحلة الثالثة ، التي هي عبارة عن مجهود زمن طويل ، وربما أجيال عديدة ، في سبيل تنوعها واتساعها وبلوغها إلى درجة من الدقة والرقى تستطيع معها أن تعبر عما تستلزمه حياة صاخبة في مجتمع عظيم .

ثالثاً : لم تلزم اللغة العربية طرق الأداء الخاصة ، والنظام الدقيق في ملاحظته علامات الإعراب من حركات وحروف إلا في هذه المرحلة الأخيرة . أما ماسبقها من مراحل أخرى فليس من المعقول أن تكون كذلك من هذه الدقة والانضباط .

ومن هنا يظهر لنا فساد الرأي عند القائلين بأن اللغة العربية توقيفيه في قواعدها كما هي في نظرهم توقيفيه في مفرداتها . وكذلك يظهر فساد رأى من قال بأن اللغة العربية لم تعرف اللحن مطلقاً ، أو أن العربي لا ينطبق باللحن وليس من طبيعته أن يلحن . ليس هنا مجال عرض آراء هؤلاء العلماء ، ولا مناقشه هذه الآراء ، والرد عليها ؛ فسيكون لنا معهم بعد قليل موقف آخر ، نسائلهم ، ونحلل آراءهم ، ونبين مدى مخالفتهم لطبائع الأشياء . ويغلب على الظن أن مانجده الآن في بطون

الكتب القديمة ، وفي ثنايا النصوص من أمثلة نحوية وشواهد أدبية
خارجة عن تلك القواعد التي وضعها النحاة ، ثم التمسوا لها تخریجا من
تخریجاتهم حتى يتخلصوا منها وينسجموا مع قواعدهم ، فعللوا طورا بالسمع ،
وطورا آخر بالشذوذ . نقول يغلب على الظن أن مانجده من هذا القبيل
إن هو إلا بقايا من اللغة العربية في مراحلها الأولى يوم أن كانت لا تلزم
هذه الطرق المعروفة في الأداء ، ولا تتبع بالضبط هذه العلامات من
الإعراب . وقد يتساءل القراء عن بقاء سبب هذه الآثار القديمة وعدم تطورها
بتطور اللغة نفسها ، ولكننا نجيب عن ذلك بأن تعليل استمرار هذه
البقايا على ألسنة العرب ، وفي استعمال العربية حتى أيام نهضتها ، وبلوغها
درجة الكمال ، سهل ميسور . فالمسألة لا تعدو في نظرنا أحد أمرين :

١ - إما أن تكون هذه البقايا من الأمثلة النادرة أو الشاذة قد
جاءت على لسان بعض القبائل العربية الأخرى غير قبيلة قريش . وحيث
يمكن أن تعلل هذه الأمثلة بأن تلك اللهجات العربية الأخرى التي لم
تصل إلى ما وصلت إليه لهجة قريش من النضوج والكمال ، قد استمرت
تتمثل فيها العهود الأولى للغة حيث لا يلتزم فيها باطراد نظام مخصوص
للأداء ، ولا قواعد مضبوطة للتعبير ، كما هو الشأن في اللغات الأخرى
وحيث كانت القبائل العربية منفصلة متباعدة . لا تجتمع إلا في ظروف
ضيقة ؛ وحتى في هذه الظروف لا يجتمع إلا بعض أفراد منها كرؤساء

القبائل ، والقائمين بشئون التجارة ، مما لا يـكفي معه أن تتأثر لهجة قبيلة
بلهجة قبيلة أخرى ؛ فاستمرت العزلة ، وساعد على استمرارها ظروف
الحياة في شبه الجزيرة العربية حتى بعد نهضة قبيلة قريش ، ومحاولة الإسلام
الكبرى بتوحيد القبائل ، وجمعها على لهجة واحدة . وذلك عكس ما لوحظ
في شبه جزيرة اليونان ، وفي شبه جزيرة إيطاليا بالنسبة لما كان هناك
من لهجات متباينة ، ثم من صلات متبادلة ، وتوحيد في اللهجة سريع .

ولقد كان من نتيجة هذه الحياة ونظمها الاجتماعية في شبه الجزيرة
العربية أن أصبحنا نجد هذه الفوارق في طرق الأداء ، ونحس بما كانت
تحدثه من خلاف واضطراب عند رجال النحو واللغة حينما تصدوا لجمعها
ودراستها ، وتدوين ملاحظاتهم عليها . وإليك بعض الشواهد مما يلقي ضوءا
على ذلك ؛ وقد حاولنا جمع هذه الشواهد في طوائف . كل طائفة منها
خاصه بقاعدة نحوية ؛ فما يخص بقاعدة أفراد الفعل مع تقدمه
على الفاعل المثنى أو الجمع نجد :

جاءوني بنو فلان ، وأكلوني البراغيث
وقول الشاعر

رأين الغواني الشيب لاح بعارضى * فأعرضن عني بالحدود النواضر
وقول الآخر

تج الربيع محاسنا * ألقحها غر السحاب (١)

ومنها أيضاً قول أمية بن أبي الصلت :

يلومونني في اشتراء النخيل أهل فكلهم ألوم

وقول ابن قيس الرقيات :

تولى قتال المارقين بسيفه * وقد أسلباه مبعد وحميم

وقول الفرزدق ضمن قصيدة يهجو بها ابن عفره الضبي :

ولكن ديا في أبوه وأمه * بحوران يعصرن السليط أقاربه (٢)

وقد جاء القرآن بأمثلة من هذه اللهجة فقال تعالى : « وأسروا النجوى

الذين ظلموا » وقال : « ثم عموا وصموا كثير منهم » . ومن ذلك

أيضاً ما روى : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

(١) انظر فقه اللغة للثعالبي — القسم الثاني ؛ سر العربية ص ٤٨٨

(٢) هذه الأبيات الثلاثة قد ذكرها الحافظ جلال الدين عبد الرحمن

السيوطي في كتابه « همع الهوامع على جمع الجوامع » بمناسبة الكلام على القاعدة

النحوية التي ذكرناها ؛ ثم شرحها وعلق عليها الأستاذ أحمد بن الأمين

الشنقيطي في كتابه — الدرر اللوامع — على همع الهوامع شرح جمع الجوامع —

ج ١ ص ١٤١ — ١٤٢ . وقد ذكر بعض النحاة أن هذه الشواهد قد جاءت

بلهجة طيء ، وقال بعضهم إنها لهجة أزد شنوءه ، الذين يأتون بالالف في

الفعل مع المثني ، وبالواو مع الجمع للذكر وبالنون مع الجمع للثؤنث .

هذه الأمثلة لجمع الفعل مع تقدمه مع الفاعل الجمع تيسر لنا سبيل القول بأنه من المرجح أن تكون هذه الطريقة في التعبير أسبق من القاعدة العامة المعروفة الآن وهي إفراد الفعل عندما يتقدم الفاعل الجمع ، فالمعقول أن يجمع الفعل مع الجمع ، ويفرد مع المفرد . وقد أحس بهـذا الثعالبي وأشار إليه ^(١) حين اعترف بأصالة هذا التعبير ؛ والثعالبي هو من أولئك العلماء الذين امتازوا بقوة الإدراك ، ودقة الحس بالنسبة لحقيقة اللغة العربية ، وأساليبها ؛ وله في كتابه « فقه اللغة » مواقف عدة تؤيد صحة هذا القول ؛ فكثيراً ما ثار على النحاة وانتقدهم في طريقة فهمهم لأساليب اللغة ، ونبهه إلى أن اللغة ينبغي أن تدرك بالذوق والحس قبل أن تدرك بالمنطق والعقل .

ومن العجيب أن نجد النحاة يقررون عكس هذا المبدأ ، فيسمون حالة إفراد الفعل مع تثنية الفاعل أو جمعه قياساً ؛ ويكون العكس إذن ، وهو تثنية الفعل مع الفاعل المثني ، وإفراده مع الفاعل المفرد ، وجمعه مع الفاعل الجمع ، خروجاً عن القياس . ^(٢)

(١) فقه اللغة ص ٢٨٨

(٢) انظر الدرر اللوامع للشنقيطي ج ١ ص ١٤١

ومن القواعد النحوية أيضاً ، التي اهتم بها النحاة وأكثروا فيها من
الأمثلة والشواهد الخارجة على قواعدهم المقررة ، والمشيرة إلى لهجات قبائل
أخرى غير لهجة قريش ، قاعدة إعراب الأسماء الخمسة .

ومن ذلك أيضاً ما نجده في كثير من أبيات الشعر لشعراء قبائل
مختلفة قد اهتم بها النحاة ، وأوردوها في جملة من أبواب النحو مثل
الأسماء الخمسة ، والمثنى ، وجمع المذكر السالم وملحقاته ، وجمع المؤنث
السالم ، وما لا ينصرف ... الخ

ونذكر من ذلك على سبيل المثال فقط لا على سبيل الاستقصاء قول
أبي النجم العجلي ، وهو من بني عجل من بكر وائل :

واها لريا ثم واها واها * هي المني لو أننا نلناها

يا ليت عينيها لنا وفاها * بضمن نرضى به أباه

إن أباه وأبا أباه * قد بلغا في المجد غايتها

وهنا نلاحظ قصر الـأب من الأسماء الخمسة على الألف ، وكذلك

/ قصر المثنى على الألف في (غايتها) . ومن قصر المثنى أيضاً قول

الشاعر . (١)

تزود منابن أذناه ضربة * دعته إلى هابي التراب عقيم

(١) شرح جمع الهوامع ج ١ ص ١٤ . هابي التراب = ما اختلط منه بالرماد ،

عقيم = لا يلد .

نلاحظ « أذناه » بدل « أذنيه »
وقول عمرو بن العاص ، في رواية ، حين حمله معاوية على مبارزة على
ابن أبي طالب : مكره أخاك لا بطل .

ومن ذلك أيضاً ما جاء على لسان رجاز من ضبة كما يقول المفضل ^(١)

إن لسلي عنسدنا ديوانا * يخزي فلانا وابنه فلانا

كانت عجوزاً عمرت زمانا * وهي ترى سيئها إحسانا

أعرف منها الأنف والعينانا * ومنسخرين أشهباً ظبياننا

نلاحظ « عينانا » و « ظبياننا » مع « منسخرين » .

ثم نلاحظ كذلك التزام فتح نون المثني في تلك اللهجة ، ويقال إنها
لغة بني الحارث بن كعب ، إذ أنهم يقلبون الياء الساكنة إذا انفتح ما
قبلها ألفاً فيقولون : أخذت الدرهمان ، واشتريت ثوبان ، والسلام علاكم .
قال ذلك أبو حاتم والآخرش . ^(٢)

ومن العرب أيضاً من يلزم المثني الألف ، ويعربه بالحركات على
النون ، من ذلك هذا البيت الوارد في كتاب المواقيت منسوباً إلى أبي
عمر الزاهد :

يا أبننا أرقى القذان * فالنوم لا تطعمه العينان ^(٣)

(١) شرح معجم الهوامع ج ١ ص ٢١

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢١

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢ . القذان = جمع قذة : البراغيث

ومما خرج عن قاعدة إعراب جمع التصحيح وما ألحق به ما روى عن جرير أنه قال أبياتا يخاطب بها فضالة العربي منها :

عرفنا جعفرأ وبني أبيه * وأنكرنا زعانف آخرين

حيث روى بكسر النون في « آخرين » وقد قرر فريق من النحاة أنها لغة في الجمع .^(١)

ومنها ما نقله الشنقيطي عن السيوطي : إلا الخلائف من بعد النبيين^(٢) بكسر النون أيضاً في « النبيين » .

ومن الملحق بجمع المذكر السالم ماورد بلغة بعض بني تميم وبني عامر حيث يلزمونه الياء ويجعلون إعرابه على النون ؛ وذلك مثل بيت جرير الذي قاله ضمن قصيدة يهجو بها الفرزدق :

رأت مر السنين أخذن مني * كما أخذ السرار من الهلال

حيث كسرت النون بالإضافة إلى (مر) .

وبيت آخر يروى لشاعر من خزاعة أو من جرهم .^(٣)

ألم نسق الججيج سلى معدأ * سئينا ما تعدد حسابا

حيث لزمت الياء أيضاً في « سئينا » ونصبت النون .

(١) انظر: الدرر اللوامع للشنقيطي ج ١ ص ٢١ .

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٢ .

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٢٠ .

وهكذا نستطيع أن نمضي في ذكر أمثلة من جمع المؤنث السالم ،
والاسم الممنوع من الصرف قد شذت عن القواعد النحوية التي قررها
النحويون لها ؛ ولكننا نحيل القارئ إلى هذين البابين في كتب النحو
الواسعة كشرح ابن عقيل وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك ؛ وكتاب
المفصل للزمخشري ، وعلى رأس هذه الكتب جميعاً كتاب سيبويه .

هذه الشواهد التي ذكرها النحاة في مؤلفاتهم وعلى رأسهم سيبويه ، وحاولوا
جهدهم فهمها فيها منطقياً وتعليل خروجها عن قواعدهم المقررة تعتبر في
الواقع بعيدة الدلالة ؛ فهي لا تقف عند إثبات لهجة من اللهجات كما
يذهبون ، وإنما تلقى ضوءاً على كثير من المسائل الحساسة في اللغة
العربية ؛ إذ أنها تبين إلى حد بعيد طرق الأداء المختلفة عند القبائل ،
وحالات الإعراب في اللهجات ، وطبيعة اللغة في العصر الجاهلي ومدى ما
كان هناك من خلاف في الأساليب مع توافق في المعنى .

والذي يزيدنا اهتماماً بهذه الأمثلة وتشبثاً بدراساتها دراسة عميقة ، وفهمها
فهما جديداً هو ما نجده من شبيه لها في النصوص القديمة من اللغات
المعربة كال يونانية واللاتينية ، فقد كانت هذه الأمثلة في هاتين اللغتين بمثابة
أساس انبنى عليه كثير من المسائل لفهم تاريخ اللغة ، وتطور الإعراب
فيها . وما دامت اللغات في مجموعها خاضعة لنواميس طبيعية واحدة فإن

مقارنة اللغة العربية بغيرها من اللغات القديمة المعربة يعتبر عظيم الجدوى لفهم ما غمض من مسائلها ، وما أهمل من موضوعات الدرس فيها . ولقد كان من نتائج هذه الدراسات المقارنة أن تذهب لها كثير من العلماء فتوسعوا فيها حتى شملت كثيراً من العلوم كالآداب المقارن ، والنحو المقارن ، والقانون المقارن ؛ وأكثر من ذلك إنها فتحت آفاقاً جديدة لفهم بعض الأمور في كل ميدان على حدة من ميادين المعرفة الإنسانية ، بل لقد تخطى بعض العلماء هذه الميادين جميعها وأدخلها في الأديان يقارنها ببعضها ، ويبين مدى ما يمكن أن يكون بينها من تشابه واختلاف ، ومدى ما يمكن أن يكون بعضها قد استمد مبادئه وتعاليمه من البعض الآخر . لهذه الاعتبارات قد اعتمدنا في بحثنا اعتماداً كبيراً على مقارنة اللغة العربية ونحوها بغيرها من اللغات الأخرى وما يتصل بها من دراسات ؛ وسيرى القارئ صوراً عدة من هذه المقارنة كلما امتدت به القراءة في هذا البحث .

عرضنا منذ قليل لبعض الشواهد الأدبية من لهجات القبائل المختلفة التي لا تتفق مع قواعد النحو المقررة ، وعرضنا لبيان وجهة النظر عند الحاجة في فهمها ، ثم بينا وجهة نظرنا نحن إذا ما وجدناها وحاولنا دراستها . وأما ما نجده من ذلك في القرآن أو في الحديث ، أو ما جاء عن لسان بعض القرشيين فيمكن أن يعلل بتعليل آخر :-

ذلك أن يكون القرآن أو الحديث قد التجأ إلى هذه الطرق من التعبير

لفرض خاص استلزمه أمر بلاغى أو ظرف اجتماعى ، فأحياناً يلجأ البليغ إلى التعبير بأساليب قديمة ؛ إما لأن موضوع الحديث يستدعى ذلك ، وإما لأن المتحدث إليه تجمع به بذلك القديم صلة وثيقة ؛ وإما لاستحضار صورة من ذلك القديم لأغراض أخرى .

كفرض التأثير ، أو الإيقاظ ، أو التبجيل ، أو الذكرى ؛ فإن مجرد الإشارة فى كل هذا يغنى عن عبارة ؛ وقد اتخذ علماء البلاغة من هذا ميداناً لدرسهم وتكفلوا ببيانها ، وذكر الآثار النفسية والأدبية ، التى تحدثها هذه الطرق فى الأداة . ولم يكن ذلك بدءاً فى اللغة العربية ولا فى أساليبها ، فإننا نجد كبار الكتاب اليونانيين والرومانيين يصنعون ذلك فى أساليبهم لأغراض بلاغية كالأغراض التى ذكرناها من قبل ، فتكون هذه التعابير القديمة ، سواء أكانت خاصة باللغة أم بالقواعد النحوية ، فى ثنايا الأساليب الحديثة بمثابة حلية تزينها ، أو لجمه تكسيها قوة .

ومن أشهر من عرف بذلك هو فيرجيل ، أكبر شعراء اللاتينية فى ملحمة « الإنيادة » وتيتوس ليفوس من أكبر مؤرخيها أيضاً فى تاريخه الرومانى .

ثم اتنا نجد مدى ذلك كله واضحاً تمام الوضوح فى صنيع المؤلفين

المسرحيين ، قديمهم وحديثهم على السواء . كأرسطوفان ^(١) *Aristophane* .
أوريبيد ^(٢) *Euripide* من اليونانيين ، وبلوت ^(٣) *Plaute* ، تيرانس ^(٤) *Terance*
من اللاتين ، وشكسبير ^(٥) *Shakespeare* من الانجليز ؛

^(١) ارستوفان *Aristophane* عاش في القرن الخامس قبل المسيح .
اشتهر بشعره المسرحي في أثينا وله أحد عشر مسرحية انتقد فيها الأدب
والسياسة في عصره .

^(٢) أوريبيد *Euripide* ولد نحو سنة ٤٨٠ ق.م ومات سنة ٤٠٦
أو ٤٠٥ ق.م شاعر مسرحي أيضاً وله عدد كبير من المسرحيات يصف
فيها نزعات الحب ، ويعالج الناحية العاطفية معالجة دقيقة .

^(٣) بلوت *Plaute* ولد نحو سنة ٢٥٠ ق.م ، مات نحو سنة
١٨٤ ق.م
شاعر مسرحي روماني وقد استطاع أن يصور في مسرحياته نزعات
عصره وأخلاق المجتمع .

^(٤) تيرانس *Terance* شاعر مسرحي روماني ولد في قرطاجنة سنة ١٩٤
ق.م ومات ١٥٩ ق.م وهو من العبيد المحررين وله عدد كبير من
المسرحيات قلد فيها المسارح اليونانية .

^(٥) شكسبير *Shakespeare* ولد سنة ١٥٦٤ ومات ١٦١٦ م
أكبر شاعر مسرحي إنجليزي وله عدد كبير من المسرحيات المشهورة ،
وقد استطاع أن يصور بصدق كل الإحساسات وكل نزعات الحب .

وكورنى *Corneille* ^(١) ، وموليير *Molière* ^(٢) ، وراسين *Racine* ^(٣) من
الفرنسيين . هؤلاء جميعاً قد لاحظوا فى مسرحياتهم هذه الاعتبارات ملاحظة
دقيقة ؛ إذ أنهم فى حاجة إلى تصوير شخصياتهم ووصف مناظرهم تصويراً
ووصفاً حقيقيين أو شبيهين بالحقيقة حتى يكون المنظر على نفس الناظر
أعظم وقعاً ، وأبعد أثراً ؛ فإن كانت أشخاص المنظر من القدماء استحضروهم
بهياتهم وأجروا على أنفسهم نفس لهجاتهم وأساليبهم وألفاظهم وتركوا
منطقهم يعبر عن تفكيرهم ، ويشرح مبلغ ما لديهم من ثقافة ومعرفة ؛ وإن
كانت أشخاص المنظر من المحدثين لاحظوا فى تمثيلهم وتصويرهم كل ما يتصل

(١) كورنى *Corneille* ولد سنة ١٦٠٦ ومات ١٦٨٤
وهو أبو التراجيدى الفرنسية كما يقول رجال الأدب فى فرنسا . وله
عدد كبير من المسرحيات يصور فيها أخلاق عصره .

(٢) مولير *Molière* ولد سنة ١٦٢٢ مات ١٦٧٣ م
وهو شاعر مسرحى وممثل ومدير لمسرح فى آن واحد . وقد تجول فى
ميدان المسرحيات منذ أبسطها حتى أسماها . وقد خدم بمسرحياته لغة الأدب
وله عدد كبير من المسرحيات .

(٣) راسين *Racine* ولد سنة ١٦٣٩ مات ١٦٩٩ م
وقد قلد القدماء فى مسرحياتهم وأساليبهم التى تدور حول تصوير العواطف
والإحساسات . وله عدد عظيم من المسرحيات .

بظروفهم الاجتماعية ، والثقافية ، والأخلاقية ، وحاولوا إبراز هذا كله
في هيئاتهم . وفي لغتهم ، وأساليبهم ؛ وكذا كان نجاح المؤلف المسرحي
عظيماً في هذه الأمور ، كانت مكانته في التأليف أكبر ، وشهرته أوسع .
ولإذن فعلى ضوء هذا المبدأ البلاغي الذي يكاد يكون مبنياً على إحساس
فطري يمكن أن يفهم ما جاء في القرآن والحديث موافقاً للهجات القبائل
العربية الأخرى غير قبيلة قريش .

ومن أمثلة ذلك في القرآن ما تجده في قوله تعالى :

وأسروا النجوى الذين ظلموا .

ثم عموا وصموا كثير منهم .

واتبعوا ما تتلوا الشياطين .

وفي الحديث :

يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

وكل ذلك خاص بجمع الفعل مع تقدمه على الفاعل الجمع .

ولعل من هذا القبيل أيضاً ما تجده في القرآن من مخاطبة الواحد بلفظ
الاثنتين كقوله تعالى مخاطباً مالكا خازن النار : « ألقيا في جهنم كل كفار
عنيد » .

ومن ذلك أيضاً ما يلجأ إليه القرآن من تأنيث بعض الأسماء مرة
وتذكيرها أخرى دون أن يلتزم طريقة واحدة في هذه الأسماء ومنها :

« وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً » ثم يقول بعد ذلك : « إذا رأيتم
من مكان بعيد . » فمرة ذكر السعير ومرة أنه .

« إذا السماء انشقت » . « السماء مفطر به . »

فمرة ذكر لفظ السماء ومرة أنه .

ومن هذا القبيل أيضاً ما نجده في القرآن من التزام المثني للآلف
في حالة النصب والرفع مثال ذلك قوله تعالى :

« إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما . »

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن السيدة فاطمة رضي الله عنها أنها قالت :

(يا حسنان يا حسنيان .)

إن ما أوردناه من الأمثلة وما هو موجود في كثير غيرها يمكن
بسهولة أن يعمل بما ذكرنا ، ثم إنه فوق ذلك يلقي ضوءاً قوياً أمام
الباحثين بالنسبة لمن يدرس اللغة العربية وتطورها ، والنحو العربي ونشأته ،
إذ أننا لو استعرضنا كل ذلك مع ملاحظة تطبيق هذين المبدئين المنطقيين :
البنسب يسبق المركب ، وما يدركه الحس يسبق ما يدركه العقل ؛ نقول لو
استعرضنا هذا الخليط من الشواهد العربية مع ملاحظة هذين المبدئين لحل
أمامنا كثير من المشاكل التي لم يتنبه لها نحاة العرب ، ولا استقنار طريق
وضع تاريخ لتطور قواعد النحو من وجهة النظر الفنية لا العلمية ؛ فنذكر
مثلاً أن التزام قاعدة الإعراب بواسطة الحركات كانت أسبق إلى
الانضباط منها إلى الإعراب بواسطة الحروف ؛ ونذكر كذلك أن

الألفاظ الدالة على المحسوسات كانت أسبق في الوجود من الألفاظ الدالة على الأمور المعنوية ؛ وأن الألفاظ المكونة من مقطع واحد - أى من حرف متحرك وآخر ساكن - أسبق من الألفاظ المكونة من مقطعين أو ثلاثة .

وهذا ما سار عليه الألب انستاسى مارى الكرملى فى كتابه « نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها » وما سنسير عليه عند الكلام على النحو العربى ونشأته .

إن ما أوردناه من أمثلة حتى الآن ، وما حاولناه من تعليل لوجود هذه الشواهد فى القرآن وفى الحديث ، وفى كلام بعض القرشيين إنما هو من قبيل العرض ، والوصف لما هو كائن ؛ والتعليل لبقائه واستمراره حتى سادت لهجة قريش وعمت أساليبها ؛ أما تعليل نشأته فإننا لم نتعرض لذلك بالتفصيل . وينبغى ألا نختتم بحثنا فى اللغة العربية ، وألا ننتقل إلى البحث فى النحو قبل أن نبين السبب فى نشأة هذه الطرق المختلفة فى التعبير التى كانت من جرائها هذا التمايز فى اللهجات ، وذلك الاضطراب فى الأساليب ؛ إننا نرجح أن مصدر هذا الخلاف فى تذكير بعض الأسماء وتأنيثها على السواء ، وفى إعرابها مرة بالحروف ، ومرة بالحركات ، وفى دلالتها طوراً على معنى ، وطوراً آخر على معنى يخالف المعنى الأول ؛ نقول إن مصدر كل هذا يمكن أن يرجع بصفة إجمالية إلى تعدد اللهجات ؛ فبعضها

كان يستعمل ألفاظاً على أنها مؤنثة ، والبعض الآخر كان يستعملها على أنها مذكرة ؛ وبعضها كان يستعملها بمعنى ، والبعض الآخر كان يستعملها بمعنى آخر .

وليس من السهل أن يكون الأمر كما وصفنا إلاحينما كانت القبائل العربية منفصلة تماماً ؛ وكل قبيلة تخلق من الألفاظ وتكون من التراكيب ما يتلاءم مع بيئتها ، وظروفها الطبيعية والاجتماعية .

وها نحن أولاء لانزال نجد صورة حية من ذلك بين قبائل البدو المختلفة الضاربة في صحراء مصر الشرقية ؛ فلقد جمعنا منذ سنتين مجلس مع أحد البدو المقيمين في الصحراء قريباً من مدينة حلوان ؛ وسار بنا الحديث حتى تكلمنا عن لهجات القبائل البدوية المختلفة ، ومكث يقص علينا أوجهاً من الخلاف في الألفاظ وفي المعاني ، وإن هذه القبيلة مثلاً تعبر عن نفس المعنى بلفظ كذا ، وتلك القبيلة تعبر عن نفس المعنى بلفظ آخر ؛ ثم ذكر حادثة كان هو شاهد عيان فيها قال : اجتمع أحد البدو بشيوخ قبيلة تقيم بناحية الفيوم ، وفي أثناء الحديث انتسب البدوي إلى قبيلة معروفة من القبائل الضاربة في الصحراء الشرقية ما بين مسديتي حلوان والصف ؛ ولكن شيوخ القبيلة قد لاحظوا عليه لكنة غريبة ولهجة لا تتفق مع لهجة القبيلة التي انتسب إليها ؛ فتصدى له أحدهم ، ووجه إليه بضعة أسئلة يلجأ إليها البدو عادة في مثل هذه الظروف لكي يميزوا أفراد قبيلة من أفراد قبيلة أخرى ؛ ذلك أن

ذكر له جملة أسماء لمسميات ، ثم طلب منه أن يذكر أسماءها في القبيلة التي
انتمسب إليها ؛ فراح ذلك البدوي يذكر أسماءها كما يعرف ؛ ولم يمض
طويل حتى كشف أمره وعرف كذبه ، وتبينوا أنه أجني عن تلك القبيلة
جاء من قبيلة أخرى متسكراً يريد بأحد الأفراد شراً .

هذه الحادثة هي بلا شك ، صورة لما كانت عليه لهجات القبائل
العربية في العصور الجاهلية الأولى ، ولما كانت تمتاز به لهجة قبيلة عن
لهجة قبيلة أخرى ؛ ولكن حينما بدأت هذه القبائل تتصل ببعضها ،
وأخذت لهجاتها بحكم هذا الاتصال تتقارب ، نشأ فيما نعتقد ، ما يشبه أن
يكون لغة عامة يشترك جميع القبائل في التفاهم بها وإن انفردت كل قبيلة
بلهجتها الخاصة ؛ هذه اللهجة أو هذه اللغة كانت ممثلة في لهجة قريش التي
سادت شبه الجزيرة العربية بمكاتها الدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

هذه اللهجة الموحدة لم تنضج ولم تتسع إلا على حساب اللهجات الأخرى ،
أي أنها أخذت من اللهجات العربية ما تستحسنه من الألفاظ والتراكيب ،
وطرق الأداء ؛ ثم مزجت ذلك كله ، وأبرزته في صورة لغة موحدة .

ولذن فإننا نزعم أن أكثر ما في اللغة العربية على الأقل من
مترادفات ، ومن طرق متنوعة لبيان معنى الواحد ، ومن أساليب
إعرابية متعددة لنفس التركيب الواحد ، إن هو إلا أثر من آثار تلك
اللهجات العربية التي أخذته لهجة قريش وأضافته إلى ما كان فيها من

ألفاظ وأساليب .

وإن نظرة إلى النص القرآني ، وما فيه من مفردات كانت تختص بقبائل أخرى غير قبيلة قريش لستينا إلى أي حد كانت تستمد ألفاظاً من اللهجات الأخرى ، وإلى أي حد كانت لغة القرآن صدى للهجات العرب جميعاً . وقد لفتت هذه الظاهرة في نص القرآن نظر علماء الإسلام فكتب بعضهم في هذا وحاول أن يشير إلى ما في القرآن من ألفاظ غير قرشية ، ثم عزا كل لفظ من هذه الألفاظ إلى القبيلة التي هو مأخوذ منها .^(١)

(١) انظر كتاب اللغات في القرآن أخبر به اسماعيل بن عمرو المقرئ عن عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرئ بإسناده إلى ابن عباس

تحقيق ونشر صلاح الدين المنجد

وقد ذكر صاحب هذا الكتاب مجموعة من الألفاظ الخاصة بالقبائل العربية ونسب كل لفظ إلى القبيلة التي تنطق به ؛ ثم إنه قد ذكر الألفاظ الواردة في القرآن والخاصة بقبيلة قريش دون أن يشركها فيها غيرها . والألفاظ المذكورة في هذا الكتاب تدل على مبلغ ما جاء في القرآن من لهجات القبائل المختلفة لا فرق بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها ولا بين شرقيها وغربيها وإليك أسماء القبائل التي أخذ القرآن من ألفاظها :

قريش ، هذيل ، كنانة ، حمير ، جرم ، تميم ، قيس عيلان ،
جثعم ، أزد شنوءه ، أهل عمان ، طيء ، مذحج ، مدين ، غسان ،
بنو حنيفة ، حضرموت ، أشعر ، أنمار ، خزاعة ، بني عامر ، لخم ، =

كندة ، سبأ ، أهل اليمامة ، مزينة ، ثقيف ، سدوس ، سعيبد
 العشيرة ، العباقة ، عذرة ، الأزدي ، تغلب ، الأوس ، همدان .
 ونجد في الصفحات الأولى من هذا الكتاب جدولاً يذكر اسم هذه
 القبائل ويشير إلى عدد الألفاظ التي أخذت من كل قبيلة :

اسم القبيلة	عدد الألفاظ
قريش	١٠٤
هذيل	٤٥
كنانة	٣٦
خمير	٢٣
جسرهم	٢١
تميم ، قيس عيلان	١٣
أهل عمان ، أزدشنوءه ، خثعم	٦
طى ، مذحج ، مدين ، غسان	٥
بنو حنيفة ، حضرموت ، أشعر	٤
أنصار	٣
خزاعة ، بنو غامر ، لخم كندة	٢
سبأ ، أهل اليمامة ، مزينة ، ثقيف ، العباقة ، سدوس ، سعد العشيرة	١

ويؤيد هذا الفرض الذي افترضناه بالنسبة للغة العرب ما حدث بالنسبة للغة
اليونانية ، ولغة اللاتينيين ، ثم اللغة الفرنسيين من حيث وجود مفردات متعددة لمعنى
واحد بعد أن توحدت لهجاتها في لغة واحدة ، ومن حيث وجود التردد في التذكير
والتأنيث لبعض الألفاظ ومن حيث وجود الطرق المختلفة للتعبير عن الفكرة
الواحدة . ولدينا أمثلة عديدة لكل هذا في كل من هذه اللغات الثلاث ؛
ولولا أن ذلك يبعدنا عن بحثنا ، ويطيل ما لجأنا إليه مضطرين من
استطراد لاتينا على الكثير منها .

والآن بعد كلامنا على اللغة وما يتصل بها نوجه همنا إلى الكلام على
النحو وما يتصل به .



نشأة النحو العربي

لسنا نبغي من وراء هذا البحث أن نتناول النحو العربي كما تفاهم عليه العلماء أو كما نجده مدوناً في كتبهم ولكننا سنذهب إلى الوراثة البعيدة ، ونتناول النحو تناولاً لم يعمد حتى الآن ؛ فنبين حقيقة ؛ ونذكر موضعه من اللغة ؛ ونشرح الصلة بينهما على ضوء نشأة كل منهما وإذن فما لاشك فيه أن النحو العربي كغيره من سائر العلوم الأخرى ؛ قد نشأ فناً قبل أن يكون علماً ؛ أى أن هذه الطرق الخاصة للأداء في اللغة العربية قد التزمت باطراد في تراكيبها وأساليبها ومرنت عليها ألسنة العرب وتمكنت من طبائعهم قبل أن توضع لها القواعد النحوية المجردة وضعاً عليها وتدرس دراسة مستقلة لتعرف وتحتذى . ١

ولإذن فنحن أمام نحوين إن صح هذا التعبير : نحو فنى ؛ ونحو على . أما النحو الفنى فهو جزء من اللغة وعنصر أساسى من عناصر تكوينها كالأصوات المسموعة ؛ وهو فى نشأته فى اللغة يسكاد يسكون فطرياً وإن كان الأساس فى وجوده هو المجهود العقلى . فإن اللغة بعد أن تتجاوز مرحلة الطفولة ؛ ويبدأ العقل يتصرف فيها من حيث الاشتقاق ، والنحت ؛ والتصريف ، ثم من حيث التراكيب ووضع الضوابط المميزة بين هذه

التراكيب بالنسبة لأدائها للمعاني ؛ نجد نفسها مضطرة بحكم مسيرتها لظروف المجتمع إلى التزام بعض الضوابط لتمييز بعض التراكيب عن بعض ، ولعرفة وظيفة كل لفظ بالنسبة لموقعه من الجملة . هذه الضوابط في صورتها الأولى هي عبارة عن النحو الفنى . ١١

وهو كسائر الفنون يسبق النحو العلمى ؛ ففن الهندسة أو الهندسة العملية وجدت قبل أن يوجد علم الهندسة ؛ وفن النحت وجد قبل أن توجد النظريات العلمية له . وفن الموسيقى وجد قبل أن تسجل نظرياتها العلمية . ١٢ ولا نزال نرى في الطبقات العامة من الشعوب فنانين قبل أن يدرسوا هذه الفنون أو يتلقوا نظرياتها عن أساتذة أو في معاهد خاصة . فهناك الموسيقيون وهم لا يعرفون شيئاً عن علم الموسيقى ، وهناك البنّاؤون وهم لا يعرفون شيئاً عن النظريات العلمية في العمارة . وهناك الزارعون وهم لا يدرسون شيئاً عن مسائل الزراعة ، بل وهناك الأطباء وهم لا يؤدون شيئاً عن علم التشريح . وهكذا لو استعرضنا تاريخ الشعوب وتاريخ حضاراتهم لوجدنا أنهم كانوا في كل شيء فنانين قبل أن يكونوا علماء ، وأن مظاهر الفن قد سبقت نظريات العلم . وعلى هذا فإن اللغة كما ذكرنا منذ قليل حينما تدخل في دور النمو في الألفاظ والتوسع في التعبير يبدأ العقل الاجتماعى في وضع ضوابط يمكن بها تمييز المعاني بعضها عن بعض ، ويسهل بواسطتها فهم الأساليب العديدة المتنوعة ، والنحو الفنى وإن لم يصاحب اللغة من يوم نشأتها

إلا أنه يلزمها من يوم نموها ولا ينفصل عنها مادامت هي في سبيل الحياة
ومن هنا كان ذلك النحو واحداً في كل اللغات لا يختلف في لغة عنه في لغة
أخرى إلا بمقدار ما تختلف لغة عن لغة أخرى في ألفاظها ودلالاتها وخواص
تركيبتها ١٠

ومن هنا أيضاً كانت نشأة ذلك النحو طبيعية في كل لغة قدر لها أن
تكون لغة أدب وعلم وفن .

ولعل القراء يتسائلون الآن عن تاريخ ذلك النحو الفني ، وعن الحالة
التي كان عليها في عهده الأول ، وعن الظاهرة الأولى التي بدرت لتكون بمثابة اللبنة في
بناء تلك الضوابط النحوية العملية ؛ ونحن نقرر أنه ليس من السهل أن نجيب
عن هذه الأسئلة ، إذ الفرق بعيد جداً بين تأريخ الفنون وتأريخ العلوم
فالفن جزء من الماهية ، وهو إلى حد بعيد يعتبر صدى للإحساسات ؛
والإحساسات قديمة النشأة في الإنسان ، دقيقة التكوين فيه . أما العلم
فهو تجريد أو وصف لما تمتاز به الماهية ، وهو إلى حد بعيد يعتبر صدى
للعقل ؛ والنقل يحىء بعد مرحلة تكوين الإحساس .

ومن هنا كان تأريخ الفن تأريخاً حقيقياً من المسائل الصعبة بل من
المشكلات ؛ أما تأريخ العلم فسهل ميسور متى عرفت ظروفه وجمعت وثائقه . وإن من
يدعى تأريخ الفن بهذا الاعتبار الدقيق كمن يدعى معرفة أول بيت بني على
الأرض ، وأول نبت نبت فيها ؛ وذلك وهم وخيال .

ولإذن فكل محاولة لتأريخ النحو بمعناه الفني تعتبر محاولة عابثة ؛ غير

أننا نستطيع أن ننظر في تلك الضوابط النحوية التي تميز تراكيب اللغة ،
ونستطيع أن نستعرضها في مجموعها لنقارن بين ظواهرها المختلفة في الكلام ،
فن ألفاظ تلزم حالة واحدة في النطق معها تغير موضعها في الجملة كالمبنيات ،
ومن ألفاظ تتغير بتغير التراكيب كالمعربات ؛ ثم من هذه الألفاظ المتغيرة
ما يتغير بالحركات فقط كالرفع ، والنصب ، والجزم ، والجر ، ومنها ما يكون
مظهر التغير فيها بواسطة الحروف كالألف ، والواو ، والياء ، والنون .

وعلى ضوء ذلك النظر ، وهذه المقارنة نستطيع أن نقرر ولو على
سبيل الافتراض أن بعض هذه الظواهر كان أسبق من بعضها الآخر ،
وأن بعضها قد تطور من حالة إلى أخرى بينما التزم البعض الآخر نفس
الحالة التي عرف بها منذ القدم .

وقبل أن ندخل في تفصيل الكلام عن هذه الظواهر الفنية في تراكيب
اللغة العربية نحب أن نذكر أولاً أننا نستبعد تماماً أن تكون اللغة العربية
قد وجدت أول ما وجدت وفيها تلك الظواهر الفنية ، أو أن تكون
قد عرفت أول ما عرفت وهي متميزة بضوابط الإعراب المختلفة . وليس
لنا أن نمضي في الاستدلال على صحة ما ذهبنا إليه ، ففساد الحكمين
أمر بديهي ؛ وسيكون لنا في هذا الموضوع كلام آخر .

وعلى هذا فإننا نتناول الآن بعض ما يبدو لنا من ملاحظات على
طبيعة هذه الظواهر ، وما يمكن أن نصل إليه من نتائج :

كما أن حالة الإفراد في اللغة ، على ضوء ما تقدم من ملاحظات
تسبق حالة الجمع ، نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون أن حالة الإعراب
بواسطة الحركات من رفع ونصب وجرح قد سبقت حالة الإعراب بالحروف
من ألف وواو وياء ونون ؛ وليس أدل على ذلك من الإبقاء على الإعراب
بتلك الحركات مع وجود هذه الحروف وذلك في بعض اللهجات كأن
يقال مثلاً :

جاء الزيدان ، ورأيت الزيدان ، ومررت بالزيدان .
رفع النون في الأول ، ونصبها في الثاني ، وجرحها في الثالث ؛ وعلى هذه
اللهجة ورد البيت الذي تقدمت الإشارة إليه منذ قليل :

يا أبنائا أرقى القذان * فالنوم لا تطعمه العينان
ومن ذلك أيضاً ما ذكره الإمام الشنقيطي عن الشيباني من ورود هذا
المثال : هما خيلان ، بالتزام ألف التثنية وضم النون .^(١) ومن هذا
الباب أيضاً ما سمع من السيدة فاطمة رضي الله عنها — يا حسنان
ويا حسينان — ؛ وقد قيل إن ضم النون في هذه الأمثلة وما شابهها لغة
من بعض القبائل .

ومن ذلك أيضاً ما ورد من الإعراب بالحركات في الجمع وملحقاته مع

(١) — الدرر اللوامع على همع الهوامع للشنقيطي ج ١ ص ٢٢

وجود الحروف وهي لهجة لبعض بني تميم وبني عامر ؛ إذ كانوا يلزمون الياء للجمع ويبقون على الإعراب بالحركات مثل بيت الشعر لجرير ، الذي ذكرناه فيما مضى من قصيدة يهجو بها الفرزدق :

أرى مر السنين أخذن مني * كما أخذ السرار من الهلال ^(١)
ومثل هذا البيت وهو فيما يظهر لشاعر من خزاعة أو من جرهم كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

ألم نسق الحجيح سلى معدا * سنياً ما تعد لنا حساباً ^(٢)
ومثل هذا البيت أيضاً :

رب حي عرندس ذى طلال * لا يزالون ضارين القباب ^(٣)
ويمكن الاستدلال على صحة هذه النظرية (الإعراب بالحركات وجد قبل أن يوجد الإعراب بالحروف) بما يأتي :

أولاً :- البسيط يسبق المركب ، والإعراب بالحركات بمثابة البسيط والإعراب بالحروف بمثابة المركب .

ثانياً :- الإعراب بالحروف وجد في ألفاظ لا يمكن أن تكون قد وجدت واللغة في حالتها الأولى ، فالمثنى والجمع وجداً حتماً بعد الألفاظ المفردة ، ووجودهما يدل على تطور في اللغة ، ويتبع ذلك أن علامات إعرابها قد وجدت بعد علامات إعراب المفردات .

ثالثاً :- ما جاء في بعض اللهجات من شواهد وأمثلة فيها علامات

^(١) انظر شرح صمع الهوامع ج ١ ص ٢٠

^(٢) المصدر السابق . عرندس = شديد ، طلال = الحالة الحسنة ، ضارين = ضاربن القباب

الإعراب بالحركات مع وجود الحروف ، وقد تقدمت طائفة كبيرة من تلك الشواهد ، ويمكن العثور على مئات منها مبعثراً في كتب اللغة والنحو .

رابعاً :- النسبية فيما نجده في اللغة معرباً بالحروف بجانب ما هو معرب بالحركات ، فلقد جمع النحاة ما هو معرب بالحروف فيما يأتي :-

الأفعال الخمسة : يفعلون ، وتفعلون ، ويفعلان ، وتفعلين .

والأسماء الستة : أبوك ، وأخوك ، وحموك ، وفوك ، وهنوك ، وذو مال .

ثم المثنى ؛ والجمع للذكر السالم ، وما ألحق بهما .

وهذه الأنواع الأربعة يمكن أن ترجع إلى نوعين اثنين هما المثنى والجمع .

أما الأفعال الخمسة فيمكن أن تلحق بالمثنى والجمع إذ أنها صور منها . وكذلك الأسماء الستة فهي إما أن تكون حروفها امتداداً لحركات الإعراب الحقيقية الموجودة على الحروف السابقة ؛ وإما أن تكون مضافة ، أي مركبة ؛ فتلحق بالمثنى أو بالجمع من حيث إضافة شيء جديد إلى الاسم في حالته الأولى ، وهي إذا قطعت عن الإضافة رجعت إلى الإعراب بالحركات كالمثنى والجمع إذا رجع كل منها إلى حالة الأفراد .

وعلى هذا فالقائمة تبدو واضحة ؛ إذ أننا لا نجد ما يعرب بالحروف على هذا الاعتبار سوى المثنى والجمع وما بقي فهو ملحق بهما ، ولنا في صنيع النحاة وفي اصطلاحهم تأكيد لما ذهبنا إليه ، فقد قالوا إن هذه الحروف في تلك الأنواع التي تعرب بها ليست إلا نيابة عن حركات الإعراب .

وهناك ملاحظة أخرى تتصل بهذه الحروف التي نابت عن الحركات في الإعراب ؛ ذلك أننا نرجح أن الإعراب بهذه الحروف من واو ونون . ومن ياء ونون ، ومن ألف ونون ، لم يوجد كذلك مرة واحدة ، ولم تلتزم طرق الاداء به من أول الأمر بهذه الصورة التي نراها الآن ، وإنما وجد الحرف الاول وهو الألف أو الواو أو الياء ، وسارت اللغة على ذلك مدة من الزمن ، ثم التزمت النون بعد ذلك .

ولنا على هذا ما نجده مثلاً في اللغة اللاتينية ، قبيل أن تستقر فيها علامات الإعراب وتلتزم طريقة خاصة ؛ فقد كانت بعض العلامات الإعرابية المكونة من حرفين فأكثر غير مستقرة على نظام ، وغير كامله العدد بالنسبة للحروف التي نراها مكونة لعلامات الإعراب بعد أن شمل اللغة نظام واحد من الإعراب . ويسكاد يكون هذا طبيعياً في تطور اللغة ، فالسكالم مسبق بنقصان . وسنعرض بعد قليل لكثير من الأمثلة في اللغة اللاتينية يتضح منها حالة تلك العلامات الإعرابية قبل أن تأخذ وضعها النهائي .

ومما يمكن الاستدلال به على هذا في اللغة العربية هو ما نراه في بعض اللهجات من أمثلة وشواهد ، وحاول النحاة أن يوجدوا لها تخریجاً أو تعلیلاً كدأبهم في كل ما يتنافى مع قواعدهم أو يشذ عنها .

وهذه بعض الأمثلة كما نراها في كتب النحو واللغة :-

هما خطتا إما إساير ومنة ، وإما دم والقتل بالحر أجدر

وقد ورد هذا البيت ضمن أبيات في حماسة أبي تمام ، وقد استشهد به النحاة على أن النون في « خطتان » قد حذفت للإضافة المقدرة ، وراحوا يتأولون هذا المضاف المحذوف . ورأى فريق منهم أن المضاف إليه هو إيسار . وقد فصل بين المضاف والمضاف إليه بـ إما .

وأما ابن جني فإنه يرى رفع « إيسار » ويستجوده .^(١)

ومعنى هذا أنه يقرر حذف النون من المثني مع عدم الإضافة إلى كلمة « إيسار » ، وأصرح من هذا ما ذكره البغدادي من أن هذا الشاهد وأمثاله قد جاء بلغة من يحذف نون التثنية من القبائل دون أن يكون هناك ما يستدعي حذفها كالإضافة .

وقد ذكر من ذلك أمثلة شعرية وأخرى نثرية تؤيد وجود هذه اللغة عند العرب . ومن ذلك أيضاً هذا البيت :-

خليلى ما إن أنتم الصادقا هوى * إذا خفتما فيه عدولا وواشيا
وقد علل النحاة حذف النون من « الصادقان » للاقتصار ، ولم يشيروا مطلقاً إلى احتمال أن تكون هذه هي الحالة الأولى لطريقة الأداء في التعبير بالمثنى أو الجمع ، وذلك بالرغم من تعليلهم أحياناً ما يرونه من شذوذ على القواعد النحوية بأنه قد جاء على لغة قبيلة كذا ، أو بلهجة قبيلة كذا

(١) - شرح همع الهوامع ج ١ ص ٢٢

وكأنهم بهذا يفهمون أن اللغة وجدت كاملة ناضجة لم تتعثر في طريق تكوينها ،
وأن النحو وطرق الأداء كما يتصورونها قد نشأت عامة شاملة ، وفي دفعة
واحدة . وظاهر جداً أن عدم تروى النحاة في المسألة ، أو عدم تنبيههم إلى
تلك المراحل الطويلة التي مرت بها اللغة والنحو ، وهما في طريق التكوين ،
قد جعلهم يتفنون في التعديلات ، ويمعنون في التخريج ، حتى ولو كان
ذلك على حساب المعنى في الجمل والتراكيب . بل إنهم قد يتغاضون عن
المعنى أحياناً ؛ ويلجئون إلى تأويلات قد تضره أو تفسده .

ولهم في ذلك مواقف عدة يظهر منها تمسكهم الشديد بحرفية القواعد
التي وضعوها أو تلقوها ؛ من هذه المواقف ما نجده في بعض الشواهد الأدبية
وطريقة تحكمهم في فهمها ، وفي بعض الآيات القرآنية ومحاولتهم فرض قواعدهم
على قراءتها ، وتخطئة القراء إن هم أخلوا بتلك القواعد . على أنه ينبغي أن
نحيط في هذا الحكم بالنسبة للنحاة فلا نتهمهم جميعاً بهذا الجور في التفكير ،
والصلابة في تطبيق القواعد ، إذ أن منهم وهم أوائل النحاة ، وعلى رأسهم
الخليل بن أحمد وسيبويه والقراء من كانت درايتهم باللغة واسعة ، وذوقه في
إدراكها سليم .

وكتاب سيبويه يشتمل على أمثلة عدة تبين إلى أي حد كان مؤلفه يحتمل
إلى اللغة لا إلى القواعد النحوية ، وينفذ إلى طبيعتها وطبيعة الناطقين بها
وظروف المعاني التي قصد بها التعبير عنها ، دون أن يقف عند شكلها الظاهري

وملاحظها المنطقية ، التي كثيرا ما تتنافى مع طبيعة نشأتها وتطورها . من ذلك ما نجده له عندما يجانب النحو وضوابطه ويتكلم عن اللغة من حيث أداؤها للمعاني ، فيناقش الجملة مناقشة المدرك لأسرارها البلاغية ، ولتقتضيات ظروفها وأحوال الناطق بها .

ومن ذلك أيضاً ما نراه عندما يناقش مسألة نصيب بعض الأسماء دون أن يكون في الكلام فعل ظاهر يعمل فيه ، فإنه يفهم النصب على أنه من طبيعة الاستعمال العربي ، لا على أن الضوابط النحوية هي التي أدت إلى هذا .

يقول سيبويه^(١) في هذا : ((وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام ؛ ولعلم المخاطب أنه محمـول على أمر ؛ ونظير ذلك قولك : انتـه يا فلان أمراً قاصداً ، إنما أردت انتـه وآت أمراً قاصداً ، إلا أن هذا يجوز لك فيه إظهار الفعل ، ومثل ذلك قول القطامي :

فكرت تبغـيه فوافقتـه * على دمه ومصرعه السباعا

ومثله قول ابن الرقيات :

لن تراها ولو تأملت إلا * ولها في مفارق الرأس طيبا

وإنما نصب هذا لأنه حين قال وافقتـه وقال لن تراها فقد علم أن

الطيب والسباع قد دخلا في الرؤية والموافقة وأنها قد اشتملا على ما بعدها

(١) - سيبويه - الكتاب ج ١ ص ١٤٣

في المعنى ، ومثل ذلك قول ابن قميئة :

تذكرت أرضاً بها أهلها * أخوالها فيها وأعمامها

لأن الأخوال والأعمام قد دخلوا في التذكر . ومثل ذلك فيما زعم الخليل :

إذا تغنى الحمام الورق هيئني * ولو تغربت عنها أم عمار

قال الخليل : لما قال هيئني عرف أنه قد كان ثم تذكر لتذكرة الحمام وتهيج فالتقى ذلك الذي قد عرف منه على أم عمار كأنه قال : هيئني فذكرني أم عمار ((إن طريقه هذين العالمين الجليلين في تحليل هذه الشواهد ، ومناقشتها وفهمها تدل على مبلغ تحررها من القواعد الجافة ، التي ألفنا وجودها عند من جاء بعد ذلك من النحاة وترينا من ناحية أخرى أن أهم العوامل في علامات الإعراب المختلفة إنما هو المعنى الذي يريد العربي أن يعبر عنه . وبجانب سيبويه وأستاذه الخليل نجد الفراء يسلك نفس السبيل في فهم الأساليب العريضة ؛ سواء ما كان منها في الأدب أم في القرآن .

ومواقفه في ذلك عديدة ومشهورة في كتابه - معاني القرآن - الذي لا يزال مخطوطاً حتى الآن . وإن من يطلع على هذا المخطوط يستطيع أن يلاحظ بوجه عام أن الفراء في تحليله للأساليب ، وفي تعليقه للضوابط الإعرابية يركن إلى طبيعة العربي ، وحسه في استعمال اللغة ثم إلى حسه هو في فهمها ؛ فهو تحليل يتلاءم مع أولى المراحل العلمية في اللغة يوم أن كانت قريبة جداً من النقاء ولادخل

للصنعة المنطقية فيها . ومن أمثلة ذلك تعليله للفرق في المعنى بين إضافة اسم
الفاعل إلى مفعوله ، ونصبه له ، فهو يقول إن الإضافة تفيد معنى الماضي في
الحدث ، والنصب يفيد معنى الحالية . وذلك عند شرحه لقوله تعالى « هل
هن كاشفات ضره »^(١) .

ولقد تنبه إلى هذا الأمر أيضا بعض من تصدى لدراسة اللغة وآثارها
من غير النحاة الخالص ، وصفت مداركه لفهم كنهها وآثارها مثل المبرد الذي لم
يكن شديد الثقة بالنحاة ، ولم يكن يتخرج من تخطئتهم ، والتصريح بعدم
مقدرتهم على فهم بعض أسرار التراكيب ، إذ أنهم كانوا شديدي الحرص على
ظواهر التركيب ، وحرفية القواعد .

من ذلك قوله : من الآيات التي ربما يغلط في مجازها النحويون قول الله
تعالى « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . والشهر لا يغيب عنه . ومجاز الآية :
فمن كان منكم شاهدا بلدة في الشهر فليصمه ، والتقدير : فمن كان شاهدا في
شهر رمضان فليصمه ، ونصب الشهر للظرف لانصب المفعول^(٢) . ويضاف
إلى ذلك أيضا ما نراه من موقف الألويسي في تفسيره^(٣) .

وفي المغرب للبطرزي ، أن النحاة زعموا أن العرب أماتت ماضى (يدع)

(١) - أنظر ص ١٦ من المخطوط سطر ١٢

(٢) فقه اللغة للثعالبي ج ٢ = ٥٤٦ طبعة مصطفى محمد ١٩٣٣

(٣) ١٥٦ / ٣٠ / روح المعاني - حموده ص ١٤٤

والنبي صلى الله عليه وسلم أفصحهم وقد قال عليه الصلاة والسلام « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات » . وقرأ صلى الله عليه وسلم « ما ودعك » بالتخفيف .

وقال أبو الأسود الدؤلي :

ليت شعري من خليلي ما الذي * غاله في الحب حتى ودعه

وهو دليل على استعمال ودع بمعنى ترك .

وفي الحديث « اتركوا الترك ما تركوكم ودعوا الحبشة ما ودعوكم » ^(١) ولعل أوضح ما يستشهد به على ذلك هو تأويلاتهم الغريبة في بابي الاشتغال والتنازع ، فإنهم هنا كثيراً ، ما يضربون صفحاً عن سر التراكيب اللغوية لكي يقوموا قواعدهم التي وضعوها ، ويتمشوا مع مبادئهم التي افترضوها ، من وجوب وجود العامل لكل معمول يبدو ظاهراً في الكلام وامتناع أن يعمل العامل الظاهر في ذلك المعمول بحجة أنه شغل عنه بالعمل

^(١) ثم يمضي الأستاذ حموده في سرد شواهد أخرى وأدلة أخرى على مغالاة النحاة وتقديسهم لقواعدهم مع عدم بصرتهم بالعربية كما يجب ص ١٤٤ - ص ١٤٩ ؛ وقد يبدو في كثير من المواقف أن المؤلف متحامل على النحاة ولكن تحامله لا يلبث إلا أن يكون تعبيراً عن الواقع حينما نرى آراء النحاة بالنسبة لقراءات القرآن وتخطئهم للقراء كلما لمسوا فيهم بحفاة لقواعد النحو التي هي من صنيعهم دون أن ينظروا إلى كل اللامحجات العربية نظرة دقيقة شاملة .

فى الضمير ، وكان المسألة فى نظرهم عملية حسابية ، أو نظرية قياسية منطقية ،
 دون أن يكون للمعنى الذى فى نفس المتكلم أثر فى التعبير . وكتب النحو
 فى هذين البابين تذكر أمثلة عدة من هذه التأويلات ؛ منها ما هو مأخوذ
 من الشواهد الأدبية ، ومنها ما هو مأخوذ من النصوص الدينية ؛ وليس لنا
 أن نتناول جميع مذكروه من شواهد لنناقشهم فيها ونبين وجهة نظرنا
 بالنسبة لأرائهم ، ولكننا نكتفى بآية قرآنية واحدة نستعرض فيها وجهة
 نظرهم ، ثم نشرح وجهة نظرنا لكي يتبين للقراء مدى تصور النحاة لأساليب
 اللغة ، ومبلغ تمسكهم بحرفية مقاييسهم ولو كان ذلك على حساب المعنى وبلاغة
 التركيب ، هذه الآية هى قوله تعالى « والأنعام خلقها لكم فيها دفر ومنافع » ؛
 ورأى النحاة فيها واضح معروف ، فهم يقررون أن الأنعام مفعول لفعل
 محذوف يفسره المذكور ، وهو خلق ؛ ولا يصح أن يعمل هذا الفعل المذكور
 فى الأنعام لأنه شغل بالعمل فى ضمير الأنعام ؛ وإذن فلا بد من تقدير
 عامل آخر لكي يسر العمل فى لفظ الأنعام ، وهذا العامل فى تقديرهم هو
 من لفظ « خلق » المذكور .

هذه هى وجهة نظرهم ، ونحن لو سايرناهم فى هذا لكان تركيب الآية
 هو « وخلق الأنعام خلقها لكم . . . » ونحن نترك الركة اللفظية مؤقتاً
 ولا نعترض بها عليهم لأنهم يستطيعون الدفاع عنها بأن الفعل
 واجب الاستتار فلا يمكن أن يظهر ، وبالتالي لا تظهر الركة اللفظية ونحاول
 أن نناقش الآية من ناحية المعنى بالنسبة لتقديرهم : إن الآية فى اعتبارهم
 تؤدي إلى تأكيد الخلق فيكون اهتمامها الأول موجهاً إلى هذه العملية وهى
 خلق الأنعام ، بينما الأنعام نفسها وهى نتيجة عملية الخلق تصبح فى الدرجة

الثانية من العناية والاهتمام . ونحن لا نظن أن القرآن في هذا التركيب قد قصد إلى ذلك ، ونستبعد أن يكون اهتمامه موجهاً إلى الخلق لا إلى الأنعام . ثم كيف يمكن أن يفهم التأكيد لعملية الخلق واللفظ لم يذكر صراحة في صدر التركيب ؟ وكيف يمكن أن يفهم ذلك أيضاً والآية كلها تؤكد وتلح في التأكيد بالنسبة للأنعام ؟ وهذا التأكيد يبدو واضحاً في تصدرها وفي عود ضمائر أربعة عليها : الأول في « خلقها » ، والثاني في « فيها » ، والثالث في « ومنها » ، والرابع في « ولكم فيها جمال » ، وفي شحن الآية بصفات من خواصها : « دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » ١٢٠

١١ من كل ذلك يظهر جلياً أن الآية شديدة الاهتمام بالأنعام لا بعملية الخلق فيها : ولكن النحاة — ساء بهم الله — قد جانبوا المعنى وبلاغة التركيب وتمسكوا بحرفية قواعدهم ، وبتطبيق مقاييسهم فجاءت تأويلاتهم كما نرى في هذه الآية .

١٢ وعلى ضوء هذا نقدر أننا لا نمانع ولا نجد غضاضة في أن يكون لفظ الأنعام مفعولاً مقدماً للفظ خلق المذكور ، وأن تقديمه على الفعل قد جاء لغرض بلاغي كما تقدم ، ولا نجد غضاضة أيضاً في أن يكون الضمير المتصل بخلق ؛ والذي أوجد الإشكال في نظر النحاة فمنعهم من نصب

الأنعام بلفظ خلق المشغول بالضمير ، نقول إننا لا نجد غضاضة أيضاً في أن يكون هذا الضمير تأكيداً للفظ الأنعام ؛ إذ المسألة لا تخرج بهذا عن دائرة بعض التعبيرات اللغوية مثل : جاء زيد هو . ولهذا التركيب نظائر في اللغات الأخرى كاللاتينية والفرنسية ؛ ففي اللاتينية نجد الضميرين : *Ipsa - idem* يذكران في الجملة أو يذكر أحدهما ، ويقصد منها التأكيد إن كان المؤكد مذكوراً في الكلام ، ويتبعانه في حالة الإعراب ، والعامل في الكل واحد ؛ ويحذف محله إن لم يكن مذكوراً في الكلام .

ونعود بعد هذا إلى ما نحن بصدده فنقول : إنه مما يمكن الاستشهاد به أيضاً على حذف النون من المثني والإبقاء على الألف فقط قول الأخطل من قصيدة يفخر فيها بقومه ويهجو جريراً^(١) :

أبني كليب إن عمي اللذا * قتل الملوك وفككا الأغلالا

فقد حذف النون من « اللذان » وأبقى على الألف فقط .

وقوله أيضاً :

هما اللتا لو ولدت تميم * لقل فخر لهم صميم

فقد حذف النون كذلك من « اللتان » واقتصر على الألف .

^١ - شرح صمع الهوامع ج ١ ص ٢٣ . يقصد الأخطل بعميمه عمراً ومرة ابني

كلثوم ، فإن عمراً قتل عمرو بن هند ملك العرب ، ومرة قتل المنذر بن النعمان ابن المنذر .

وها هي ذى أيضاً بعض الأمثلة للجمع الذي حذفت منه النون واكتفي
بالحرف السابق لها ؛ سواء أكان ذلك الحرف واوا أم ياء ؛
فشال الواو ما ذكره عمرو بن امرئ القيس الخزرجي ، وهو جد
عبد الله بن رواحة ، وقد مات قبل الاسلام :

والحافظلو عورة العشيرة لا * يأتيهم من ورائنا وكف^(١)
فقد روى بفتح عورة على أنها مفعول لاسم الفاعل قبلها ، وحذفت
النون من « الحافظون » وهذا البيت وإن كان قد روى بكسر « عورة »
أحياناً لتجويد حذف النون للإضافة ، إلا أنه يكفينا للدلالة على ما
نحن بصده أن يكون قد روى أيضاً بنصب « عورة » دون أن
تخطأ هذه الرواية .
ومن ذلك أيضاً :

غشوم حين ينقذ مستفاد * وخير المطالي الترة الغشوم^(٢)
وهذا البيت كالبيت السابق ، غير أن البيت الأول كان لفظ الجمع
في حالة الرفع ، فاستبقى الواو . والبيت الثاني لفظ الجمع فيه في حالة الجر
فاستبقى الياء وحذف النون .
ومن ذلك أيضاً حذف النون في الاسم الموصول للجمع في بيت للأشهب
بن رميلة^(٣)

إن الذي حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد

(١) - الوكف : العيب والإثم

(٢) - همع الهوامع للسيوطي ص ٤٩ - شرح همع الهوامع للشنقيطي ج ١ ص ٢٤

(٣) - المصدر السابق ج ١ ص ٢٤ الفلج = اسم موضع

وبعد فربما يبدو للقارئ هنا أيضاً أننا أطلنا في ذكر الأمثلة والشواهد ، وفي تحليلها والتعليق عليها ، ولكننا قصدنا إلى ذلك قصداً لنرى صورة واضحة عن مظهر الإعراب بالحروف عند العرب . ومبلغ ما كان هناك من اضطراب في هذه المظهر ، ولكي نثبت من وراء ذلك مذهبنا إليه من ملاحظات .

وقبل أن نترك هذا الميدان نحسب كذلك أن نعرض موقف النحاة من هذه الشواهد وأمثالها حتى تتبين روحهم في فهم الأساليب العربية القديمة . وكيف كانوا خاضعين لقواعدهم بالنسبة لتلك الشواهد .

ولكم مثلاً من أمثلة تعليقات النحاة يوضح موقفنا منهم ، ويزيدنا ثقة من أنهم لم ينظروا إلى اللغة العربية ككائن حي ينشأ صغيراً غير واضح المعالم ، ولا يفصل الأعضاء ، ثم ينمو وتبين أجزاؤه ، وأخيراً يكبر مع الزمن ، ويصل إلى درجة الكمال :

لاحظ النحاة أن البصريين والكوفيين متفقون على جواز حذف النون من الأسماء الموصولة ، سواء أكان ذلك في حالة التثنية أم في حالة الجمع ، وقد اختلفوا بعد ذلك في تعليل هذا الحذف فذهب البصريون إلى أنها تحذف لاستطالة الأسماء الموصولة بالصلة بعدها . ورأى الكوفيون أنها تحذف مطلقاً سواء أطالت الصلة أم قصرت ، إذ أن حذفها عندهم بناء عن

لغة فيها ، وهذا صحيح . فإن بنى الحارث بن كعب وبعض بنى ربيعة كانوا يحذفون النون من الأسماء الموصولة في حالتى التثنية والجمع^(١) . وحينما جاء هذا على لسان بعض الشعراء في غير الأسماء الموصولة من الأمثلة التى تقدم ذكرها حاول النحاة أن يعللوا هذا الحذف الذى خرج عن قواعدهم النحوية : فقالوا إن النون قد حذفت فى الأمثلة المتقدمة تشبيهاً لها بالأمثلة الموصولة . إذ أنها صفات وصلت « بأل » الموصولة . ومن قال بذلك صراحة ابن جنى^(٢) . ولكن حينما وجدوا هذا الحذف وارداً أيضاً فى ألفاظ لاصلة لها البتة بالأسماء الموصولة مثل :

أقول لصاحبي لما بدالى * * * معالم منهما وهما نجيا

بدل « نحيان » ومثل :

لو كنتم منجدي حين استعنتكم * * * لم تعدموا ساعداً منى ولا عضداً

نقول إنهم حينما وجدوا الحذف هنا لم يجدوا مخلصاً لهم سوى أن يلجئوا إلى ضرورات الشعر . ومع ذلك فإذا عساهم يقولون حينما نورد لهم هذا المثال العربى القديم فيما حكاه العرب عن لسان الحيلة تخاطب القطة :

بيضك ثنتا وبيضى مائتا

أى بيضك ثنتان وبيضى مائتان^(٣)

(١) ، (٢) شرح معجم الهوامع للشنقيطى ج ١ ص ٢٢-٢٣

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٢٢

فلم يكن ذلك من الأسماء الموصولة . ولم يكن كذلك مما يشبه الأسماء الموصولة . ولم يكن أيضاً في الشعر حتى يمكن التعلل بالضرورة . ومن ذلك الضرب أيضاً ما أثر عن العرب من حذف نون التثنية في حالة النقي مثل :

لا غلامى لك ، ولا يدى لزيد ، وقيص لا كمى له ^(١) .
ومن ذلك أيضاً ما نجده في بعض نصوص القرآن والحديث ، فمن القرآن قوله تعالى : (تظاهروا)

بتخفيف الظاء ، وهى قراءة فيها . وكذلك الحديث الذى خرجه مسلم في قتلى بدر حين قام عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فناداهم ، فسمع عمر قوله ، فقال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنى يجيبوا . وإذا كنا بصدد التدليل على أن هذه الأمثلة ، التى أوردناها ، لها صلة بالتقديم وأنها استمرار لاستعمال اللغة منذ كانت غير ناضجة ، ولا مستقرة على نظام واحد ، نقول إذا كنا بصدد التدليل على هذا ، وبصدد نقد النحاة في موقفهم من اللغة ومن فهم أساليبها فأننا نجد أيضاً دليلاً لنا فيما اعترفوا هم به ، ذلك أنهم أقروا مبدأ الترخيم في المنادى ، واعترفوا بوجود لهجة من لهجات القبائل العربية تحذف آخر الكلمة مثل « يا أبا الحك » بدلا من « يا أبا الحكم » ^(٢) . ونحن نظن أن الترخيم ليس إلا ذكرى من ماضى اللغة . وأثراً من آثارها

(١) فقه اللغة للشعالبي ج ٢ . ص ٥٠٧

(٢) هذه اللهجة عرفت بها قبيلة طيء وقد اصطاح العلماء على تسمية تلك اللهجة - قطعة طيء - بضم القاف ؛ وكان ذلك عاما عندهم في كل الكلمات .

القديمة ولم يكن الأمر فيه كما فهمه النحاة من أنه استغناء عن الحرف الأخير في الاسم مادامت الحروف الباقية تدل عليه .

وكذلك الشأن فيما يختص بلهجة طيء ، التي لانزال نجد آثارها في بعض اللهجات بمصر ^(١) . ولنا بعد هذا أن نقول :

الواقع أن النحاة لم يكن من شأنهم أن يمعنوا النظر في اللغة ، ولا في تكوينها ، شأن النحاة في سائر اللغات الأخرى ؛ ولم ينظروا إلى النحو نظرة فاحصة مدققة ، ليدركوا أن هذه الطرق في الإداء ، والأنظمة المتبعة في التراكيب لم تنشأ كاملة من أول الأمر وإنما مرت بأدوار من الرقي حتى وصلت إلى المرحلة النهائية التي بنى النحاة عليها قواعدهم . ومن أجل ذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من تعليقات وإشكالات . (١)

وصوروا اللغة لمن جاؤا بعدهم تصويراً يبعدها عن طبيعتها ، ويجعل بينها وبين ماضيها فجوة واسعة يجد الدارس كثيراً من الغناء إذا ما حاول أن يملأها . وقد أحسننا نحن بهذه الفجوة وبذلك الغناء حينما بدأنا دراسة فقه اللغة العربية ، لا كما كان يعالجه القدماء ، بل وفقاً للنهج الحديث عند الغربيين في دراسة هذا العلم . فقد كنا في سبيل البحث عن تاريخ بعض المفردات ، وتاريخ استعمالها الحسي والمعنوي في مختلف العصور ، ومعرفة التغير الذي طرأ على بنيتها ومؤداها في مراحلها الطويلة ، نقول أننا كنا في سبيل ذلك كمن يتحسس الطريق بغير مرشد . كنا لانجد أمامنا سوى معاجم اللغة ، وهي خليط هائل من المعاني ، وكتب الأدب والنحو وهي غير

^(١) في بعض جهات من مديرية بني سويف يحذف الناس المقطع الأخير من الكلمة فيقولون مثلاً : محم ، حسيه ، محمو ، بدلا من محمد ، حسين ، محمود .

محددة الأهداف بالنسبة لما نريد التعرف عليه ، فنغوص هنا وهناك ، ونعمل
الفكر في الافتراضات حتى نهتدى إلى خيط بسيط نستمسك به ونجمع حوله
من الخيوط الأخرى ؛ ومع هذا فكنا ننجح طوراً في عمل نسيج متماسك
من تلك الخيوط ، ونفشل طوراً آخر فنهمل ما جمعناه ، ونتركه نهياً للنسيان
كان هذا ، ولا يزال دأبنا في دراسة فقه اللغة ؛ وها نحن أولاء نقضى
نحو من أربع سنوات في دراسة سورة المطففين دراسة تتفق مع منهج فقه
اللغة الحديث ؛ وبالرغم من ذلك كله ، وبالرغم من النتائج الهامة التي
اهتدينا إليها في فهم آياتها وإدراك بعض أسرارها البلاغية من ناحية
الالفاظ ، والمعاني ، والأسلوب ، فإننا لا نزال غير مطمئنين لوضع
الأسس العامة لهذا العلم بالنسبة للغة العرب ، ولا نخرج بحث ناضج فيه .

والآن بعد مناقشة هاتين النظريتين الخاصتين بمظاهر النحو الفنى ؛
ومناقشة النحاة في فهمهم ؛ وتعليقهم لوجود تلك المظاهر ؛ ثم الاستدلال
على صحة ما ذهبنا إليه خاصة بتلك النظريتين ؛ نستطيع أن نثبت
باختصار النتائج العملية من وراء ذلك ؛ وهي تنحصر في هذه الملاحظات:

أولاً : — التأكد من أن كل ما سماه النحاة شاذاً أو خارجاً على
القواعد النحوية أو سماعياً يعتبر أثراً قديماً قد بقى في اللغة بمثابة الرواسب ؛
التي تبقى في بعض فروع النهر بعد أن تجف ؛ وتتحول جميعاً إلى مجرى واحد
ثانياً : — ينبغي أن نسقط كل هذه الأمثلة من حسابنا إذا أردنا أن نضع النحو

وضعا جديداً ، فلا ندع قواعده تتعثر بسببها وذلك كصنيع النحاة في سائر اللغات
المعربة ، حيث تركوا جانباً بقايا اللهجات القديمة ووجهوا همهم إلى اللهجة
القوية الموحدة . //

ثالثاً : — هذا يمهّد لنا السبيل لمعرفة تاريخ اللغة أو فترة من تاريخها على الأقل ، ثم
إنه يرينا نوعاً من أنواع التطور اللغوي ، وبهذا نستطيع أن نضع الأساس لدراسة
فقه اللغة على المنهج الغربي الحديث ، الذي اشرنا اليه وإلى بعض وسائله واتجاهاته
منذ قليل .

رابعاً : — إن هذه العلامات التي سماها النحاة علامات أعراب لم تكن أولاً
باتفاق الجميع ، ولم توضع في أول الامر بناءً عن فكرة مجردة عن معنى كل علامة من
هذه العلامات ، ولم يكن الحكم في وضعها معنى الجمل والتراكيب وإنما هو اتفاق
الناطقين باللغة على هذه الطريقة أو تلك من الأداء ، فالمسألة اتفاقية لا منطقية أو
قياسية ، وبمعنى أوضح أنهم لم يفكروا في رفع الفاعل قبل أن ينطقوا به مرفوعاً ولا
في نصب المفعول قبل أن ينطقوا به منصوباً ولا في جر المضاف اليه قبل أن ينطقوا
به مجروراً وذلك عكس طريقة النحاة في فهمهم لهذه العلامات الاعرابية وتحليلهم
لها ، ولو كان الامر كما ذهب النحاة لاستلزم أن يكون النضوج العقلي عند العرب
قد سبق النضوج اللغوي بمراحل طويلة وهذا ما لا يمكن أن نتصوره بحال من الاحوال
والمسألة في نظرنا لا تعدو أن يكون الناطقون باللغة قد اتفقوا ، بأي طريق كان ،
على رفع فصيحة من الاسماء لها اعتبار خاص في تركيب الجملة ، ونصب فصيحة أخرى

منها لا اعتبار آخر وجر فصلة لا اعتبار يغير الاعتبارين السابقين حتى يمكن بذلك
التفرقة أو التمييز بين هذه الاعتبارات المختلفة .

ومما يدل بوضوح على أن المسألة في علامات الاعراب هي كما صورناها أننا نجد
في بعض الأحيان قبيلتين عربيتين قد اختلفتا في علامة الاعراب بالنسبة للاسم
الواحد ، ومكانته من الجملة هي هي ، واعتباره في نفس الجملة هو هو ، مثل المسألة
« الزنبورية »^(١) ، التي اختلف فيها سيديويه ، عالم البصرة ، والكسائي ، عالم الكوفة ، وهذه

(١) يمكن تلخيص هذه المسألة وظروفها فيما يأتي : يقال أن سيديويه . وهو عالم
البصرة اذ ذاك ، قدم إلى بغداد ، وكان فيها الكسائي يعلم الامين وفد سيديويه على يحيى
بن خالد البرمكي وولديه جعفر والفضل ، وأبدى لهم رغبته في مناظرة الكسائي ،
وهو أعلم أهل الكوفة اذ ذاك فعمل يحيى وولده على توصيله إلى الرشيد واقامة
المناظرة وكان مما وجهه الكسائي من أسئلة إلى سيديويه قوله : كيف تقول : ظننت
أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، فإذا هو هي ، أو : أياها ... ؟

فقال سيديويه : فإذا هو هي ، وخالفه الكسائي فأجاز القولين ، الرفع والنصب
في الخبر وذلك لأن نصب الخبر المعرفه بعد « إذا » يحيزه الكوفيون ويمنعه البصريون
ثم قال الكسائي : كيف تقول يا بصري : خرجت فاذا زيد قائم أو قائماً ؟ فقال سيديويه
أقول : قائم ولا يجوز النصب . فقال الكسائي أقول : قائم وقائماً .

فقال الرشيد : قد اختلفتما وأتما رئيساً بليديكما ، فمن يحكم بينكما ؟ فقال له
الكسائي : هذه العرب ببابك ، قد سمع منهم أهل البلدين ، فيحضرون ويسألون .
رما جاءوا بالاعراب الذين كانوا يومئذ بالبواب . وهم أبو فقحس ، وأبو دثار ، وأبو
الجراح ، وأبو ثروان ، وعرضوا عليهم مسائل الخلاف بين سيديويه والكسائي ،
وطلبوا حكمهم في هذا ، وافقوا الكسائي فيما ذكر .

المسألة مشهورة عند النحويين ، ورواها كثير من المؤلفين ، وكانت مثار خلاف بين الرواة ، فمنهم من ينسبها إلى سيديويه والكسائي ، ومنهم من ينسبها إلى سيديويه والقراء ومنهم من يقرر أنها كانت بحضرة الخليفة هارون الرشيد ومنهم من ينفي ذلك ، ويدعى أنها كانت بحضرة يحيى بن خالد البرمكي . ونحن لا نعني بالخلاف بين أسماء النحاة ، ولا بين من كان في حضرته هذا الخلاف ، بقدر ما تعنينا المسألة في ذاتها ، فسواء لدينا أكان الخلاف بين سيديويه والكسائي أم بينه وبين القراء ، والمهم أن نقرر أن الخبر المعرفة بعد - إذا - يمكن أن يكون مرفوعاً كما يمكن أن يكون منصوباً .

ومن هذا القبيل أيضاً مسألة المستثنى في الكلام الناقص بين التميميين والحجازيين .

ومثالها : ليس الطيب إلا المسك^(١) .

(١) — يذكر أبو علي القالي في كتابه الأملالي ٣ : ٣٩ حدثنا أبو حاتم قال سمعت الأصمعي يقول : جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو « ما شيء بلغني عنك تجيزه ؟ » قال وما هو ؟ قال « بلغني عنك أنك تجيز : ليس الطيب إلا المسك » بالرفع فقال أبو عمرو « نعم يا أبا عمرو وأدج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع » ، ثم قال أبو عمرو : « قم يا يحيى يعني اليزيدي - وأنت يا خلف - يعني الأحمر - فاذهبا إلى أبي المهدي فإنه لا يرفع ؛ واذهبا إلى المنتجع ولقناه نصب فإنه لا ينصب » . =

فالحجازيون ينصبون والتميميون يرفعون . وعلى هذا الخلاف في الرفع
والنصب بين الحجازيين والتميمين جاءت القراءة في قوله تعالى :
« ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك »^(١) .

== قال فذهبا فأتيا أبا المهدى فاذا هو يصلى ؛ وكان به عارض ؛ وإذا هو
يقول : « لقد أحساناه عنى » ثم قضى صلاته والتفت إلينا وقال : ما خطبكما
قلنا : « جئناك نسألك عن شيء » قال : « هاتيا » فقلنا : « كيف تقول
ليس الطيب إلا المسك - بالرفع - ؟ فقال « أتأمراني بالكذب على كبرة
سنى ؟ فأين الجادى وأين كذا ؟ وأين بنة الأبل الصادرة ؟ » فقال له خلف
« ليس الشراب إلا العسل - بالرفع - فقال « فما يصنع سودان هجر ؟ ما لهم
شراب غير هذا التمر » قال اليزيدى : فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس
ملك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها فقال « هذا كلام لا دخل فيه ، ليس
ملك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها » . فقال اليزيدى : ليس ملك
الأمر إلا طاعة الله والعمل بها » فقال : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى
فيكتبنا ما سمعناه منه . ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلا يعقل فقال له خلف
« ليس الطيب إلا المسك » فلقناه النصيب وجهنا فيه فلم ينصب وأبى إلا
الرفع فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح ؛ فأخرج عيسى
بن عمر خاتمه من يده وقال : ولك الخاتم بهذا والله فقط الناس .

^(١) سورة هود : ٨١

فالحجازيون ينصبون وعليه أكثر القراء ، والتميميون يرفعون وعليه اثنان
من القراء ^(١).

ومن هذا الوادى أيضاً ما نجمده من خلاف بين الحجازيين والتميمين
في عمل - ما - وأهمالها مثال ذلك قوله تعالى :
« ما هن أمهاتهم » ^(٢)

فالنصب على لغة الحجازيين والرفع على لغة التميميين ، الأولى قرأ بها الجمهور
والثانية قرأ بها المفضل عن عاصم . وما ذكرناه من الأمثلة إنما هو
بعض ذكره النحاة في بابي الاستثناء ؛ وما التي تعمل عمل ليس ، ومن
ذلك يتضح في جلاء أن الأعراب ؛ أو الضوابط النحوية وضعية ، وأنها
لم تكن على أساس منطقي واحد بين جميع القبائل العربية .

خامساً :- إن النحو بمعناه الفنى ، أى طرق الأداء فى اللغات المهدبة الراقية ،
يوجد مبكراً فى اللغة قبل أن يوجد النحو العلمى ، وأن تطوره ونضوجه يلازم تطور
اللغة ونضوجها ، إذ أنه يعتبر جزءاً منها ملازماً لها ؛ ولن يقف نموه إلا إذا وقف

^(١) الاثنان هما : ابن كثير وأبو عمرو (انظر الالتحاف ١ : ٢٥٩ ،
ابراز المعاني ٣٥١ ، البحر المحيط ٥ : ٢٤٩ - القراءات واللهجات لعبد الوهاب
حمودة ص ٧٩ ، ص ١٢٢

^(٢) المجادلة : ٢

نمو اللغة نفسها ، فهو يكاد يكون خاضعاً لطبيعة اللغة لا لأسباب خارجة عنها
أو مؤثرة فيها . وذلك عكس ما نلاحظه في النحو العلى الذى يبدأ حيث
ينتهى النحو الفنى ؛ ويأخذ طريقه نحو النضوج والكمال تبعاً لظروف اجتماعية
طارئة على اللغة ، وتحت مؤثرات عقلية أو علمية قد لا يكون للغة عهد بها
من قبل .

وبعد ، فنحن إذ نصدر هذا الحكم لا يغيب عنا ما قد يحصل فى بعض
الاحيان من أثر فعال يصدر عن النحاة فى تكوين اللغة وتنميتها وتهذيبها
بوضع أسسها وضبط قواعدها ؛ وحذف ما لا ينطبق على القواعد العامة فيها
وذلك كما حدث فى خلال القرن الثانى قبل الميلاد بالنسبة للغة اللاتينية ،
حيث نهض بعض الشعراء والكتاب من اللاتينيين انفسهم لخدمة اللغة ،
والعمل على ضبطها بتسجيل بعض القواعد النحوية ، وتوحيد طريقة النطق
والأداء بها ، واستبعاد ما يمكن أن يكون محل شبهة . من هؤلاء الشعراء
إينىوس *Ennius* ، وأكسيوس *Aecius* ومن الكتاب *Varron* ، وقصر
Céasar . ولكن مع هذا ينبغى أن نلاحظ أن اللغة العربية التى
نحن بصدد الكلام عنها وعن نحوها لم يتوفر لها ذلك ، أو على الأقل لم
يعرف من تاريخها تلك المرحلة التى يمكن أن يكون بعض أصحابها المتمكنين
منها قد قاموا بهذا الدور ، وأدوا لها هذه المهمة فى عصورها القديمة فى
الجاهلية . إذ أننا حتى الآن نكاد نجعل تماماً ما كان يعمل فى العصور الجاهلية

من ضبط اللغة العربية ، وطرق التحرى والاختيار بالنسبة للتعبير والاداء
إذ أن كل ما وصل إلينا علمه خاصاً بحياة اللغة العربية في العصور الجاهلية
الاولى لا يعدو أن يكون مبادئ عامة ، ونظريات مجملة كالسكلام عن اللهجات
المختلفة في القبائل العربية ، والسكلام على نهضة قريش وتغلّبها على سائر اللهجات
بسبب ما توفر لها من أسباب اجتماعية عديدة . أما حقيقة كل لهجة ، ومعرفة
عوامل التطور الداخلى فيها وإدراك الشكل العام لأساليبها وضوابطها ، فكل
ذلك يكاد يكون خافياً علينا وليس لدينا منه إلا بعض أمثلة مبعثرة في ثنايا الآثار
القديمة ، قد جمعت لأغراض أخرى لا نستطيع أن نكون منها وحده ولا أن نبني
عليها أساساً علمية مؤكدة . ولهذا فإننا في محاولتنا هذه نعتمد كثيراً على
الافتراض مستعينين بدراستنا لتاريخ بعض اللغات القديمة . هذا هو شأن اللغة
العربية ، وشأن رجال النحو فيها ، أما هؤلاء الذين قاموا بهذا المجهود في
اللغة اللاتينية فهم أصحابها المتمكنون منها والقادرون على تصريفها .

ومن هنا يتضح جلياً الفرق بين النحو الفنى والنحو العلمى من ناحية ،
وبين اللغة العربية واللاتينية من ناحية أخرى . ويتضح كذلك السبب الأساسى
الذى من أجله وقع نحاة اللغة العربية في هذه الخلافات التى لا حصر لها ؛
وفى تلك الاشكالات التى أخرجتهم فى بعض الأحيان عن طبيعته أبحاثهم ،
وجعلتهم يحملون اللغة أكثر مما تحتمل .

فبينما نجد جمهرة النحاة فى اللغات الأخرى ، من أصحاب هذه اللغات

المتمكنين فيها ؛ القادرين على تصريفها ، الذين لا يجدون حرجاً في أن يخطئوا
في بعض الاحيان بعض الناطقين بهذه اللغات ؛ إذ بنا نجد العكس في اللغة
العربية ، فجمهرة أساتذة النحو فيها دخلاء عليها ، فمنهم اليهود مثل هارون
بن الحائل^(١) ، ومنهم الفرس كسيبويه ، والكسائي ، والاختفش ؛ والسيرافي
والفراء وقبلنا نجد العربي الخالص ، بل أننا رأينا الروح عند العرب تستكشف
دراسة النحو ، ثم يضاف إلى هذا أنهم افترضوا صحة كل ما ثبت أنه جاء
على لسان العرب الخالص ، ولم يحاولوا مواجهة الفكرة في أن هذه الضوابط
المتبعة في الأداء قد سلكت طريقاً طبيعياً في التكوين ؛ كما تسلك اللغة نفسها
هذا الطريق . فكانت في أول الأمر بسيطة غير مطردة ؛ ولكنها مع
الزمن قد نمت ، وعمت ، والتزمت .

وإذا كنا لا نستطيع الوقوف على طبيعة تطور هذه الضوابط في اللغة
العربية ؛ ولا على طريقة ذلك التطور ؛ لجهلنا بتاريخ اللغة نفسها ؛ ولقلة ما
اكتشف حتى الآن من آثار قديمة تقدم لنا صورة عن حالة اللغة يوم أن
كانت مضطربة في الفاظها ، وفي معانيها وفي أساليبها ، وفي ضوابطها ، نقول :
إذا كنا نجعل كل ذلك ، وإذا لم يكن لدينا من الأدلة المادية ما يساعدنا على
معرفته فإننا نلجأ مرة أخرى إلى اللغة اللاتينية لنرى فيها بعض مظاهر ذلك
التطور ، لنذكر بعض الشيء مما يمكن أن تكون اللغة العربية قد مرت به

(١) - الفهرست لابن النديم ص ١١١ - ١١٢

أو ما يمكن أن يكون على الأقل صورة لطبيعة هذا التطور في ضوابط اللغة ومناهج الأداء فيها .

والأمر في ذلك ميسر بالنسبة للغة اللاتينية . فهي لغة معروفة التاريخ لم يطل بها العهد في أدوار حياتها الأولى حتى يتسرب إلى أوضاعها وأنظمتها النسيان . ولم يمر طور من أطوار حياتها دون أن يترك فيه أثر كتابي يلقي ضوءاً على حالتها العامة وعلى ما تتميز به أساليبها وطرق الأداء فيها من خواص . ومن حسن الحظ لهذه اللغة ، ولمن تصدى للبحث فيها أن اكتشف كثير من هذه الآثار ، ما بين قبور وجدر وصحائف وألواح وأدوات ؛ وعليها من النقوش الكتابية الواضحة ما مهد السبيل للعلماء ، وقدم لهم مادة غزيرة للبحث والتحليل .

وسنحاول أن نعرض في عجالة بسيطة أطوار هذه اللغة ذاكرين بعض الأمثلة في عصورها المختلفة لكي يتبين لنا كيف تخضع حركات الإعراب لنظام النشوء والارتقاء وكيف تتغير من عصر إلى عصر حتى تكم وتكمل ثم تثبت على حال واحدة .

في الفترة السابقة للقرن الثالث قبل الميلاد لم تكن اللغة اللاتينية سوى لهجة بسيطة يتخاطب بها فريق محدود من سكان إيطاليا وكان هذا الفريق ممثلاً في الأسر والعشائر اللاتينية التي تقيم في المنطقة المعروفة قديماً باسم « لاتيوم *Latium* » في وسط إيطاليا تقريباً ، والممتدة حول مصب نهر

التبر شمالاً وجنوباً ، وحتى في هذه المنطقة المحدودة لم تكن اللغة اللاتينية موحدة في اللهجة التي قدر لها أن تصبح فيما بعد لغة العلم والفن والقانون والأدب ، ولكن كان هناك عدد من اللهجات يصارع بعضها البعض الآخر في مدن تلك المنطقة ، وأهم تلك اللهجات هي لهجة مدينة رومه *Rome* ؛ ولهجة مدينة برينيسست *Préneste* ثم لهجة مدينة توسكولوم *Tusculum* ^(١)

أخذت لهجة مدينة رومه تنمو وتنتشر على حساب اللهجات الأخرى . وقد توفر لسكان مدينة رومه من الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ما جعلهم يتزعمون سكان المدن الأخرى من تلك المنطقة ، وسادت - تبعاً لهم - لهجتهم على سائر اللهجات اللاتينية الأخرى ، ويكاد هذا يشبه تماماً ما حدث في شبه الجزيرة العربية من صراع لغوي بين لهجة قبيلة قريش التي كانت تقطن حول مكة ولهجات القبائل الأخرى التي كانت تضرب في نواحي شبه الجزيرة .

إن أهم أثر يوضح لنا حالة اللغة اللاتينية في الفترة السابقة على القرن الثالث قبل الميلاد هو مشبك من ذهب ؛ وجد في مدينة برينيسست يرجع تاريخ صنعه إلى القرن السادس قبل الميلاد وقد كتبت عليه هذه العبارة *Manios med fhefhaked Numasioi* وهذه العبارة لو كتبت بالطريقة التي استقر عليها نظام اللغة اللاتينية

Histoire illustrée de la littérature latine par J. Humbert

p. 1-6 -1-

أخيراً لأصبحت *Manius me fecit Numerio* ومعنى هذه العبارة هو :
قد صنعني مانيوس من أجل نوميديوس .

والذى يعيننا أن نلاحظه في هذه العبارة هو التغير الذى طرأ عليها
بالنسبة لعلامات الإعراب ، فالعلامة « *os* » فى الاسم « *Manios* » كانت
علامة للرفع قديماً لبعض الأسماء فى حالة الإفراد ، وقد أصبحت فى اللاتينية
أخيراً علامة للنصب لطائفة من الأسماء فى حالة الجمع ، أما علامة الرفع
لهذه الطائفة من الأسماء فى حالة الإفراد فقد أصبحت « *us* » .

وكذلك ضمير المتكلم المفرد فى حالة النصب كان قديماً « *med* » ولكنه
صار أخيراً « *me* » . وعلامة الفعل الماضى فى حالة الإفراد للشخص الغائب
التي كانت قديماً « *ed* » قد أصبحت « *it* » وأخيراً فإن علامة الإعراب
فى الاسم من نفس الطائفة من الأسماء التي أشرنا إليها آنفاً ؛ فى حالة المفعول
غير المباشر كانت قديماً « *oi* » ولكنها أصبحت كما نراها « *o* » .

ومن هذا يتضح مبلغ التطور الذى تعرضت له اللغة اللاتينية بالنسبة
لعلامات الإعراب .

وفى خلال القرن الثالث قبل الميلاد يدخل الصراع بين لهجة روما
وغيرها من لهجات المدن الأخرى فى دور حاسم ؛ ولا يأتى آخر هذا القرن
حتى يكتب للهجة رومه التغلب التام ، ولا تقف سيادتها على منطقة
« *Latium* » فقط وإنما تنسرب إلى الجهات الأخرى ، وتأخذ

في صراع أوسع مع ما كان في شبه الجزيرة الإيطالية من لغات كاللغة الإيتروسكية *Li'etrusque* ، التي كان يتخاطب بها في البلاد الواقعة شمال رومه والمحصورة بين نهر التيبر شرقاً وسواحل إيطاليا غرباً ، وكاللغة الأومبرية *Li'ombrien* ، التي كانت لغة التخاطب في البلاد الواقعة شرق نهر التيبر والممتدة حتى سواحل بحر الأدرياتيك ، وكاللغة الأوسكية *Li'osque* التي كانت لغة البلاد الواقعة في الجنوب وفي الشرق من منطقة لاتيوم .

ومع أن هذا الصراع اللغوي قد استمر أثناء القرن الثالث والثاني وفترة طويلة من القرن الأول قبل الميلاد فإن اللغة اللاتينية نفسها لم تكن قد فرغت نهائياً من تنظيم أساليبها والتزام حالات الإعراب في تراكيها ، فقد بقيت في خلال هذه الفترة الطويلة في شبه اضطراب من هذه الناحية حيث لم تطرد فيها قواعد الإعراب بعد ، ولم توحيد فيها أشكال الصيغ ، ولذا فإننا نستطيع أن نسمى هذه الفترة من حياة اللغة اللاتينية بالمرحلة الثانية . ومن أمثلة هذا الاضطراب في الصيغ وفي حالات الإعراب ما يأتي :

المصدر من « قال » في اللاتينية هو « *dicere* » ، وإذا جرى بصيغة المبني للمجهول من هذا المصدر يقال « *dici* » وهذه هي الصيغة التي بقيت في اللغة بعد أن استقر نظامها واطردت قواعدها ، ولكننا نجد بجانب هذه الصيغة صيغة أخرى كانت تستعمل في أثناء فترة الاضطراب التي نحن بصدد الكلام عنها هي « *dicier* » .

مثال آخر : كلمة « Dominus » بمعنى السيد ، قد بقيت بهذه الصيغة في حالة الرفع ، ولكنها في نفس الحالة من الإعراب كانت تكتب قديماً « Dominos » .

مثال ثالث : يتجلى فيه بوضوح مظهر الاضطراب كلمة « facies » ومعناها « الوجه » هي إحدى الكلمات التي تخضع لنظام التصريف الخامس من الاسماء ؛ ومن خواص هذا التصريف أن تكون نهاية هذه الاسماء في حالة المفعول لاجله أو المفعول غير المباشر هي « ei » . ولكن هذه الكلمة في نفس الحالة من الإعراب كانت تكتب وتنطق بهذه الصيغة : faciei, facii, faciei, facio .

هذا جانب من مظاهر الاضطراب في تكوين قواعد النحو ، وخضوع اللغة لقوانين عامة وثابتة أثناء هذه الفترات التي سميناهما فيما مضى بالمرحلة الثانية من تطور اللغة اللاتينية . وقد بقي هذا الاضطراب ماثلاً حتى القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنه كان آخذاً في النقص ، وذلك بفضل الجهود العظيم الذي كان يبذله رجال النحو والأدب في تصفية اللغة من الغريب ، وتثبيت قواعدها ، وطرق الأداء فيها .

أما المرحلة الثالثة فتبدأ من حوالى منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، حيث وصلت اللغة إلى القمة من ناحية النقاء والاستقرار ؛ وكان ذلك في عصر شيشرون وقيصر . ولكنها مع ذلك قد احتفظت بكثير من الآثار

القديمة التي تبدو مخالفة لما استقر نهائياً من قواعد الإعراب ، ولم يستطع
أدباء اللاتينية ولا نحاتها أن يتخلصوا من تلك الآثار ؛ فبقيت ماثلة حتى
انقراض اللغة اللاتينية ، وإن كان بعضها قد توارى وهجره الاستعمال .

وهذه الرواسب القديمة التي بقيت في تراكيب اللغة وأساليبها ، واعترف
بها النحاة ، ولجأ إليها الشعراء والكتاب في بعض الأحيان ، هي التي تعيننا
بالذات ، إذ أنها توضح إلى حد ما ، ما نجده في اللغة العربية
وفي شواهد الأدبية من خروج على القواعد العامة التي وضعها النحاة ،
وذهبوا في تطبيقها كل مذهب .

ولقد حاول نحاة العرب جهدهم أن يخضعوا هذه الشواهد لقواعدهم ،
ولما استعصى عليهم الأمر حكموا عليها بالشذوذ مرة ؛ أو خرجوها تخريجاً
نابياً أفسد على اللغة طبيعتها مرة أخرى . وقد رأينا صورة من
تخرجاتهم منذ قليل .

لم يفكر واحد منهم أن هذه الشواهد يمكن أن تكون رواسب قديمة ،
وتراثاً للغة العرب يوم أن كانت مضطربة وفي شبه فوضى ، لم توحد
لهجاتها ولم تستقر وتطرّد ضوابطها . ولكنهم فهموا أو اعتبروا على الأقل
أن اللغة العربية وجدت كاملة ناضجة ، وأن العربي معصوم لا يخطئ .

وها نحن أولاء نذكر بعض الأمثلة من اللغة اللاتينية لتلك الرواسب
التي بقيت فيها بعد أن توحدت وكملت :

لقد عرفنا بما درسناه أن علامة الإعراب في صيغة الفعل الماضي التام
إذا أسند لضمير الغائبين هي « Crunt » ولكننا نجد عوضاً عنها هذه
العلامة « ère »

فيقال مثلاً : « amavère » بدل « amaverunt » بمعنى أحبوا ،
« laudavère » بدل « laudaverunt » بمعنى مدحوا أو تغنوا ،
وكذلك نجد في دائرة الأفعال أيضاً هذه الصيغ :

« amasti » بدل « amavisti » بمعنى أحبيتم .
« audieram » بدل « audiveram » بمعنى كنت سمعت .

ولو تركنا دائرة الأفعال وانتقلنا إلى ميدان الأسماء لوجدنا فيها ما يأتي :
معروف أن علامة النصب في حالة الجمع للتصريف الثالث من الأسماء
هي « es » ولكننا نجدها في بعض الأحيان « is » وعلى هذا فبدل أن يقال :
« cives amo » أحب المدنيين ، يمكن أن يقال « cives amo » .

وكذلك في صيغة المضاف إليه في حالة الجمع للتصريف الثاني من الأسماء
نجد علامة الإعراب « orum » ولكنها قد تستبدل أحياناً بالصيغة القديمة
لهذه الطائفة من الأسماء وهي « ùm » فيقال مثلاً : *terra a déum est*

بدل *terra » deorum est* = إن الأرض من صنع الآلهة .

بل إن بعض الصيغ القديمة قد احتفظت بكيانها في بعض الأسماء ، ولم
تستبدل بالصيغة العامة الجديدة . ومن هذه الأسماء « Parentes » ومعناها

الأقرباء ، « senes » ومعناها الكهول . هذان الاسمان يتبعان طائفة
من الأسماء علامة إعرابها في حالة المضاف اليه الجمع هي « ium » ولكنها
احتفظا بصيغة أخرى هي « um » فيقال مثلا :

filios parentum tuorum amas

بدل

filios parentium tuorum amas

أى (تحب أبناء أقبائك)

وكذلك يقال :

Consilia senum saepe est bona

ولا يقال :

Consilia senium saepe est bona

أى (إن نصيحة الشيوخ غالباً ما تكون طيبة)

كلمة « manus » ومعناها « اليد » تعتبر من الأسماء التى تخضع لقاعدة
التصريف الرابع ؛ وعلامة الإعراب لهذه الأسماء فى حالة الإفراد وفى حالة
المفعول غير المباشر هي « ui » فيقال مثلا :

rosam manui portabat

ومعناها (كان يحمل الورد على يده)

ولكننا قد نجد هذه الكلمة فى مثل هذا التركيب بحركة أخرى

للإعراب هي « u » فقط ، فيقال *Rosam manu portabat*

ومعناها (كان يحمل الورد على يده)

وكذلك كلمة « Rosa » = « وردة » تعتبر من الطائفة التي تخضع لقاعدة التصريف الأول . وعلامة الإعراب لهذه الأسماء في حالة الإفراد من المضاف إليه هي « ae » فيقال مثلاً :

Color rosae bonus est

أى « لون الوردة جميل »

وقد تكتب في مثل هذا التركيب بصيغة إعرابها القديم : وهى « ai » فيقال

Color rosai bonus est

وأوضح من هذا كله كلمة « deus » = « الله »

وكلمة « Domus » = « البيت » :

أما اللفظ الأول فهو من الأسماء التي تخضع لقاعدة التصريف الثانى ، أى أنه في حالة الرفع بصيغة الجمع يصبح « dei » ولكننا بجانب هذه الصيغة نجد مكتوباً بصيغتين أخريين هما « dii » أو « di » فيقال مثلاً :

dei iusti sunt = الآلهة عادلون

ويمكن أن يقال كذلك :

dii iusti sunt

أو *di iusti sunt*

وكذلك في حالة المفعول غير المباشر ، أو المجرور بحرف الجر في صيغة الجمع ، نجد « dis » بجانب « deis » فيقال مثلاً :

Rosae factae a dis sunt = الورد مخلوقة بواسطة الآلهة

ويمكن أن يقال أيضاً :

وأما اللفظ الثانى وهو « *domus* » فهو من الأسماء الخاضعة للتصريف
الرابع . وها هى ذى حركات الإعراب فى الأحوال المختلفة بالنسبة لما هو
من قبيل « *domus* » فى الأسماء .

ولنأخذ لذلك كلمة « *manus* » = « يد » التى تقدمت منذ قليل :

فى حالة الإسناد أو الرفع وكذلك فى حالة النداء يقال : *manūs*

وفى حالة النصب يقال : *manus*

وفى حالة المضاف إليه يقال : *manūs*

وفى حالة المفعول غير المباشر أو لأجله يقال : *manui*

وفى حالة الجر بحرف الجر يقال : *manu*

كل ذلك فى الأفراد . وفى الجمع على حسب ترتيب الحالات السابقة يقال :

فى الرفع والنداء والنصب *manūs*

وفى المضاف إليه *manuum*

وفى حالة المفعول غير المباشر أو لأجله وفى حالة المجرور بحرف

الجر *manibus* .

ولو كانت كلمة « *domus* » خاضعة للقاعدة العامة التى اطردت فى هذه

الطائفة من الأسماء لتصرفت بالضبط كما تتصرف كلمة « *manus* » ولكنها

قد احتفظت بشىء من التراث القديم بالنسبة لحركات الإعراب ، فأصبحنا

نراها فى حالة المجرور بحرف الجر مفردة « *domo* » بدل « *domu* » ،

وفي حالة النصب جمعاً « domos » بجانب الصيغة العامة « domus »

وفي حالة المضاف إليه جمعاً « domorum » بجانب الصيغة العامة « domuum »

ونستطيع أن نمضي إلى أبعد من هذا في ذكر أمثلة من هذه الألفاظ وتلك التراكيب ، التي استمرت محافظة على بعض التراث القديم وشاهدت تطور اللغة اللاتينية من ناحية الضوابط وحركات الإعراب ؛ ولكن يكفيننا هذا القدر ، إذ العبرة في ذلك بالكيف لا بالكم . ومع أن هذه الرواسب قد بقيت في اللاتينية بعد استقرارها ، ومع أن الأدباء والشعراء قد استخدموها في أساليبهم وفي إنتاجهم الأدبي لأغراض بلاغية كما سبقت الإشارة إلى ذلك ؛ فإنه لما يعيننا جداً ملاحظته هو أن هذه الأشياء لم تكن عقبة أمام النحاة حينما بدأوا يضعون قواعد اللغة ، فإنهم ساروا في طريقهم متبعين الظواهر العامة والضوابط الغالبة ؛ ضاربين صفحاً عن هذه البقايا دون أن يدخلوها حساباً في قواعدهم .

من هذه المقارنة نستطيع أن نسجل هذه الملاحظات كنتيجة لها :

١ - معرفته بعض الحقائق التي نشأت ونمت وكملت تحت تأثير عوامل اجتماعية وربما كان يظن في بعض الأحيان أن وجودها لم يكن إلا عن طريق المصادفات ، أو أن هناك أسراراً خفية تعاونت على خلقها ؛ وكانت تفسر هذه الأسرار تارة بالوحي والتوقيف ، وتارة أخرى بالمعجزات .

٢ - ملاحظة وجه الشبه البعيد المدى بين ما حدث في اللغة اللاتينية في رومه ، واللغة العربية في بيئة الحجاز من ناحية الصراع بين اللهجات المختلفة ، وتوفر الأسباب السياسية والاقتصادية والدينية لتغلب واحدة منها على اللهجات الأخرى . ولو أن الفرصه أتيحت وامتد بنا ميدان المقارنه باللغة اليونانية لوجدنا نفس الظروف ونفس النتائج بالنسبه للهجات اللغة اليونانية أيضاً ؛ وما كان للدور الذي لعبته أثينا في ذلك الصراع اللغوي من أثر ملحوظ .

٣ - إننا نلن في وضوح مبلغ المجهود العنيف الذي بذله علماء النحو العربي في تدوين قواعدهم ، ووضع مقاييسهم وتطبيقها . فقد عرف لهم الشرق هذا المجهود في تلك المؤلفات العديدة الضخمة التي أنتجوها في النحو وعلى رأس هذه المؤلفات جميعاً كتاب سيمويه ، الذي كان يقول عنه المبرد . حينما يجد إنساناً يريد أن يقرأه معه ركبت البحر ^(١) تعظيماً له واستعظاماً لما فيه . ولقد اعترف العرب بهذا المجهود أيضاً لنحاة الشرق ، بل أن علماءه قد استكثروه عليهم فأخذوا يتلمسون الأسباب لعمق أبحاثه ، وشمولها ، ولسرعه نضوجه . غير أننا نظن أن هذا المجهود إنما كان في كثير من الأحيان على غير أساس صحيح . ومصدر ذلك أنهم افترضوا أن كل ما سمعوه عن العرب الخلف إنما يمثل مرحلة النضوج والكمال

(١) انظر الفهرست ص ٧٧

في اللغة العربية ، وفاتهم أن اللغة لا بد أن تكون قد مرت بمراحل أخرى من الاضطراب وعدم الاستقرار . وفاتهم كذلك أن بجانب لهجة قريش التي تتبعوها ، ووضعوا قواعدهم على أساسها ؛ وآثروها بالفضل في كل موقف تتعارض فيه مع لهجة عرييه أخرى ، نقول : إنه فاتهم كذلك أنه بجانب لهجة قريش كانت هناك لهجات عرييه أخرى لها من القوة والذووع ما يجعلها جديرة بالنظر ، وذلك مثل لهجة تميم . وكل من درس النحو العربي قد أحس من غير شك بقوة هذه اللهجة أو بمبلغ ما بينها وبين لهجة قريش من خلاف ، ثم بالدرجة التي كان يذهب إليها النحاة في تفضيل لهجة قريش على غيرها من اللهجات ^(١) .

ونحن لا نلوم النحاة لتفضيلهم لهجة على لهجة أخرى ؛ ولكن الذي يؤخذ عليهم هو إشارتهم لهجة واحدة لوضع قواعدهم النحوية ، في حين أنهم أهملوا ، سواء أكان هذا الإهمال عن قصد أم عن غير قصد ، سائر اللهجات الأخرى ، ولهذا فإنهم عند ما يصح في نظرهم نص أدبي أو بيت من الشعر العربي القديم دون أن يوافق قواعدهم المؤسسه على لهجة قريش نراهم يتعسفون في فهمه ، وفي تأويله ؛ وفي تخريجه . ومن العجيب أن صدق لهجات العرب الأخرى نجده ممثلا في القرآن ؛ وفي الحديث ؛ وفي كلام

(١) انظر على الخصوص بابي الاستثناء ، والحروف التي تعمل عمل ليس .

الصحابه من القرشيين بالنسبه للفظ والاسلوب^(١)

وعلى هذا الاساس فقد نمادى النحاة كثيراً في صحه كل ما ورد
عن العرب من ناحيه ، وفى وجوب تطبيق مقاييسهم من ناحيه أخرى .
ونتيجه وجهه النظر الأولى أنهم وقعوا فى كثير من الخلافات
والمناقشات فى سبيل تصحيح كل ما ثبتت عربيته من شواهدهم .

أما نتيجه وجهه النظر الثانيه فإنهم تجرءوا على تخطئه بعض القراء
الذين يخالفون قواعدهم ، وهؤلاء القراء — كما نعتقد — أولى بالصحه
منهم . إذ أنهم يعتمدون فى قراءاتهم على السماع ، وهم فيه ثقة ، ويسايرون
فيها المعنى أكثر من مسايرتهم للضوابط اللفظيه كما كان النحاة .

ولو أنهم افترضوا مراحل اللغه الأولى ، ثم وجود رواسب من هذه
المراحل فيما يروى عن العرب فى عصر الجاهليه أو عصر الاسلام لأراحوا
أنفسهم ، وأراحوا النحو نفسه ، وأراحونا معهم من كل هذا الغناء ، وتلك
الخلافات . بل ولما فتحوا أمام بعض المستشرقين هذه الثغرة الخطيرة التى

^(١) تقدم الكلام على ذلك فى شيء من التفصيل ص ٩٧ ، ٩٨ ونذكر منها الآن
قوله تعالى — وأسروا النجوى ، إن هذان لساحران ؛ وقول الرسول صلى
الله عليه وسلم — يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار — أو قول
عمر رضى الله عنه — يارسول الله أنى يسمعوا وكيف يجيبوا — وقول
عمرو بن العاص — مكره أخاك لا بطل .

نفذوا منها ووجدوا مجالا لمناقشة النصوص القرآنية مناقشة قاسية تخرجها عن دائرة التنزيل وتصورها بصورة كلام البشر الذي صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن استقى أخباره عن أساطير الأولين ؛ أو عن الكتب السماوية الأخرى .

ولقد كان هذا فيما نعتقد ، الحافز الأول الذي جعل الأستاذ عبد الوهاب حموده يكرس جزءا من جهده فيما كتبه عن اللهجات والقراءات في القرآن إذ أنه جمع ما أمكنه جمعه من آراء المستشرقين وحججهم ، ثم عارض النحاة في كثير من مواقفهم وأيد القراء إلى حد بعيد .^(١)

أما نحاة العرب فلم يكن لهم مثل هذا الموقف ولو أنهم صنعوا مثل ما صنع نحاة اللغة اللاتينية لأراحوا أنفسهم من ذلك الجهد الفكري العظيم الذي بذلوه في خلافاتهم وفي تخريجاتهم ؛ ولأراحوا النحو كذلك من هذا الاضطراب ، ومن ذلك التشكيك . ولعل من الانصاف أن نلتمس لنحاة العرب بعض العذر ، فإن مكانتهم من اللغة ومقدرتهم على فهمها وتصريف أساليبها ليست كمكانة النحاة اللاتينيين ، فهم في أغلب الأحيان دخلاء عليها وكانوا يتصيدون بعض شواهدهم من أفواه الأعراب ، وما وجدوه مروياً من الآثار الأدبية قديمها وحديثها ، بل إن العرب أنفسهم كانوا

(١) انظر كتاب - القراءات واللهجات - للأستاذ عبد الوهاب حموده

يستصغرون شأن هذه الأبحاث النحوية ، ولا يعيرونها شيئاً من اهتمامهم ،
ويقررون أنها من شأن الموالي ومن عملهم . وقد أشار إلى ذلك المبرد في
كتابه الكامل ، وروى الأستاذ مصطفي صادق الرافعي في كتابه هذا الخبر^(٢)
دون أن يسنده وهو أن الشعبي سمير الخليفة عبد الملك بن مروان ، مر بقوم
من الموالي يتذاكرون النحو فيما بينهم ، فقال :

« لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده »

ويضاف إلى ذلك جهلهم بتاريخ اللغة ومراحل تطورها ، ولم تكن
لديهم آثار كتابية يستطيعون بواسطتها التمييز بين حالة اللغة في عصر
دون غيره ، ثم يربطون هذه العصور بعضها ببعض ليدركوا منها مظاهر
التطور في الضوابط الإعرابية ، كما كان ذلك ممهداً سهلاً للنحاة اللاتينيين .

ولقد سار النحو العربي في نفس الطريق الذي رسمه له أوائل النحاة من
اعتبار كل ما أثر عن العرب صحيحاً ، وبالتالي فكل ما صحح لديهم
من كلام العرب ينبغي أن يكون مطابقاً لهذه القواعد العامة التي
لم تكن في الواقع سوى ظواهر وضوابط لهجة قبيلة عربية واحدة ، هي
لهجة قريش بعد أن توفر لها من عوامل الرقي ما يجعلها تتغلب وتسود
لهجات القبائل الأخرى .

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٤٥

ولم يتنبه هؤلاء النحاة إلى ما يمكن أن يكون هناك من أثر اللهجات الأخرى ، ولا إلى ما يمكن كذلك أن يكون هناك من أثر بالنسبة لتطور تلك اللهجات ، ومنها لهجة قريش نفسها ، حتى استقرارها على طريقة واحدة في النطق والأداء .. بل ذهبوا في اعتبارهم لهذه اللغة إلى درجة أنهم منحوها صفة القداسة وأعطوها معنى إلهيا لمنزلة القرآن منها . ولم نجد من بين أولئك النحاة ، بالرغم من هذه العصور الطويلة التي مرت بها دراسة النحو ، من حاول أن يضع نصب عينيه هذه الاعتبارات . فيفهم اللغة على حقيقتها ، ويخلصها من ذلك الجمود الذي منيت به ، ومن تلك الشبه التي علقت بها .

ولعل أول من تنبه لذلك قديماً هو ابن النديم صاحب الفهرست ^(١) حينما تحدث عن اللغة العربية ونشأتها ولكن حديثه عن ذلك لم يكن واضحاً ولا مستوفياً . وحديثاً ، هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، إذ أدرك بحسه أن اللغة العربية كسائر اللغات الأخرى من حيث التطور من حالة البساطة إلى حالات الرقي والكمال . يقول الأستاذ ما نصه : (وعلى ذلك يتعين أن تكون لغتهم أيضاً « يتعمد العرب » قد ملكت التاريخ ولم يملكها ؛ وهي لا بد أن تكون قد تقلبت معهم على وجوه من

(١) الفهرست ص ٧

الإصلاح ، وجرت على مناح من التهذيب (١)

ولكن يعارض تصريحه هذا ما نجده له من مواقف أخرى في نفس الكتاب يرقى باللغة العربية فيها إلى درجة من التقدير تجعلها سيدة اللغات على الإطلاق ، وتكسبها من صفات القداسة ما يوحى إلى القارىء بأنها توقيفية إلى حد ما . (٢)

ومع ذلك فإننا نلخص هنا ما ذكره بالنسبة لحياة اللغة العربية وما طرأ عليها من تطور أثناء عمرها الطويل . ونحن وإن كنا لا نجد من الآثار المادية ما نعتمد عليه في إثبات ذلك ، إلا أننا نطمئن إلى هذا الافتراض ونرى فيه موافقة لما تستلزمه طبيعة اللغة أيا كان الشعب الذى ينطق بها . وعلى هذا الافتراض فإن اللغة العربية قد مرت بأطوار ثلاثة . (٣)

الطور الأول : هو ما كانت عليه هذه اللغة أيام اسماعيل ، الذى يعتبره العلماء أصل العربية المصرية ، من البساطة ؛ ثم أخذت فيه من توسع بواسطة ما كانت تستمد من لغة جرهم من مفردات وتعبيرات . وكان ذلك فى أرض الحجاز فقط ، حينما كان الأصل العربى محصوراً فى اسماعيل وفى أولاده ، على حسب ما يصوره العلماء والمؤرخون . وذلك حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٧٩

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٨٣ ، ٩١ ، ١٧٨ ، ٢٢٣

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٩٧ إلى ٩٠

الطور الثاني : يبدأ عندما يزداد عدد العرب ، وتضيق بهم بيئة الحجاز فيتركونها ليستقروا في جهات مختلفة من الجزيرة العربية . وهناك تتكون القبائل ، وتأخذ كل قبيلة في إصلاح لهجتها حسبما تؤهلها ظروفها الطبيعية والاجتماعية .

الطور الثالث : وهو طور السكال ، فهو عبارة عن الدور العظيم الذي قامت به قريش من الإصلاح ، حيث كانت تنفع بلغات الأمم الأخرى ، التي تتصل بها عن طريق التجارة ، وتأخذ عن لهجات القبائل العربية ما تستحسنه ويزيد في ثروة لهجتها الخاصة .

والذي يدهشنا أكثر هو أن الأستاذ الرافعي يرى ويعتقد أن اللغة العربية تحتوي على بقايا أثرية من المفردات قد هجرها الاستعمال ، لأنها كانت تلائم بيئات خاصة ، وأزمانا خاصة ، وعقليات خاصة . ولكن بعد أن تغير كل ذلك أصبح هذا مهجوراً . كما حدث في اللغة اللاتينية . بالنسبة للغات الأوروبية الحديثة التي تاجاً أحيانا إلى اشتقاق جديد من تلك الكلمات القديمة . يوضح الرافعي ذلك توضيحاً كافياً ، ويعقد المقارنة في هذا بين العربية واللاتينية . وهذا صحيح . ولكن الغريب إنه لم يتنبه ولم يشير مطلقاً إلى جواز حدوث مثل هذا أيضاً في علامات الإعراب وأثر الزمن والتطور فيها . بل إنه سار في بحثه كله على افتراض أن علامات الإعراب كما هي بالوضع الحالي قديمة في اللغة ، وإن العرب كانوا ينطقون بها كما نراها .

وهو حين يتناول مراحل الإصلاح في اللغة يتكلم عن الإصلاح الذي يشمل اللفظ والمعنى والأسلوب ، ولا يشير إلى علامات الإعراب . وكذلك حين يتكلم عن البقايا الاثرية في اللغة يتناول المفردات المهجورة بواسطة الاستعمال ، ولا يشير إلى بقايا علامات الإعراب قديما . وبالرغم من موقفه هذا فإن بحثه في كلتا الناحيتين يقدم لنا دليلا آخر على أن علامات الإعراب بدورها لا بد وأن تكون عرضة للإصلاح كالألفاظ والتراكيب سواء بسواء واعترافه كذلك بوجود بقايا أثرية في اللغة مهجورة الاستعمال يشير من ناحية أخرى إلى ضرورة وجود بقايا أثرية في علامات الإعراب سواء بسواء ^(١)

ولعل المثال الذي ذكره الرافعي في آخر هذا البحث من تاريخ استعمال هذا الاصطلاح . « نحن فعلنا » يشير من بعد إلى التطور في الاستعمال . وهذا في الواقع بحث طويل يستحق منا عناية خاصة ، ويستلزم احصاء شاملا لتاريخ الاستعمالات العربية ، لقد كان هذا النوع من الدراسة هو موضوع بحث الأستاذ المستشرق يوهان فوك *Yohann Fück* في كتابه - العربية ، ومع اعترافنا بقيمة بحث هذا الأستاذ ومبلغ ما بذله من جهد في الاستقصاء والتحقيق ؛ فإننا نقرر أنه في حاجة إلى أن يمتد حتى يصل إلى استقصاء الكثير من الجمل والتراكيب ثم يلاحظ تطور الاستعمال فيها على اختلاف

(١) - أنظر البقايا الاثرية في اللغة ج ١ ص ٦٢ - ٦٤ .

العصور كما كان ذلك صنيعه بالنسبة لبعض الألفاظ . ولا نشك في أن بحثاً من هذا النوع سيكون أجدى على اللغة وعلى النحو من تلك الأبحاث التقليدية المملة التي تسير على نفس المنهج الذي رسمه القدماء لدراسة اللغة والنحو ؛ وهو فوق ذلك يلقي ضوءاً على تاريخ اللغة والنحو فنفهم ما فيها من حيوية واستعداد لمسيرة الزمان والمكان . ومن هذا تتضح قيمة ذلك البحث الذي أشرنا إليه ، ويتبين مبلغ المجهود الذي ينبغي أن يوجه من أجله . وإذا كان هذا النوع من الدرس من شأنه أن يبعدنا إلى حد ما عن بحثنا في اللغة والنحو ، إلا أننا لا نود أن نتجاوزه ونكتفي بمجرد الإشارة إليه دون أن نذكر بعض الأمثلة باختصار لنرى نوع الاستقصاء في الأساليب ، ومبلغ ما يطرأ عليها من تغيير في العصور ثم نترك للقارئ بعد ذلك تقدير القيمة العلمية والعملية من وراء ذلك :

المثال الأول : يفهم من كلام سيبويه أن خبر - كاد - ، والغالب فيه أن يكون فعلاً مضارعاً ، يطرده اقترانه بأن ، وإن كان بعض النحاة قد فسر هذا الاطراد بأنه لا يعنى الذرة ولا الشذوذ^(١) .
وليس من شك في أن سيبويه قد بنى حكمه على الاستعمال العربي القديم ،

(١) - أنظر شرح الأشموني مع حاشية الصبان على الفية بن مالك - ج ١ . ص ٢٠٩ ؛
والدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

إذ أن موقفه من المحدثين ومن النصوص الدينية معروف^(١) وما يدل على وجهة نظر سيبويه أنه حينما أورد في أمثله على - كاد - بيتاً من الشعر والخبر فيه عبارة عن فعل مضارع بدون - أن - تأوله بتقدير أن؛ وهو : فلم أر مثلاً خباسة واحد * فنهت نفسي بعد ما كدت أفعله

وإذا استعرضنا أساليب القرآن فيما يختص بكاد نجدها تستعمل الفعل المضارع خبراً بدون - أن - مثال ذلك : وإن كنت لتردين ، ... فذبجوها

(١) - كان سيبويه يعتمد اعتماداً أولياً على الشعر العربي القديم فله من هذا الشعر في كتابه نحو من ألف وخمسين بيتاً (١٠٥٠) ثم يأتي بعد الشعر العربي القديم الآيات القرآنية حيث يورد منها نحواً من ثلاثمائة آية (٣٠٠) ، وهو لا يستشهد من الأحاديث النبوية إلا بحديث واحد . أما الشعر الإسلامي فقد ضرب عنه صفحاً وبالرغم مما نجده عند بعض الرواة من أن سيبويه قد خطأ بشاراً في جمعه نون على نينان وأن بشار بن برد قد هجا سيبويه بسبب ذلك فقال :

سيبويه يا ابن الفارسية ما الذي * تحدثت من شتى وما كنت تفيد

أظلت تغنى سادراً في مساءتي * وأملك بالمصرين تعطى وتأخذ

وأن سيبويه قد أخذ بعد ذلك يستشهد بشعر بشار مخافة هجائه ، نقول بالرغم من ذلك فإننا لا نجد أثراً لشعر بشار في كتابه ، وقد حقق هذه المسألة بعد مناقشتها المستشرق يوهان فوك في كتابه - العربية - ص ٥٢

وما كادوا يفعلون ، وأن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ^(١) .

(١) - وما هي ذى احصائية بالآيات القرآنية التي استعملت فيها كاد ، ومنها يتبين اطراد الاسلوب القرآني في هذا الاستعمال دون أن يشذ في آية واحدة من هذه الآيات البالغة أربعة وعشرين آية :

من بعد ما كاد يزيغ قلوب فويق منهم	سورة التوبة	آية	١١٧
إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها	سورة الفرقان	»	٤٢
إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها	سورة القصص	»	١٠
قالوا الآن جئت بالحق فذبوها وما كادوا يفعلون	سورة البقرة	»	٧١
قال ابن أم أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني	سورة الاعراف	«	١٥٠
وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك	سورة الاسراء	«	٧٣
وإن كادوا ليستفزونك عن الارض ليجرجوك منها	«	«	٧٦
وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا	سورة الجن	«	١٩
ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً	سورة الاسراء	«	٧٤
قال تالله إن كدت لتردين	سورة الصافات	«	٥٦
إن الساعة آية أكاأ أخفيها	سورة طه	«	١٥
تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض	سورة مريم	«	٩٠
تكاد السموات يتفطرن من فوقهم	سورة الشورى	«	٥
تكاد تميز من الغيظ	سورة الملك	«	٨
يكاد البرق يخطف أبصارهم	سورة البقرة	«	٢٠
يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان	سورة ابراهيم	«	١٧

ولقد صارت الأساليب العربية في العصور الإسلامية على أساس الاستعمال القرآني ، وأغلب ما اطلعنا عليه من الشعر العربي والنصوص الأدبية يويد هذا الاستعمال ، وحين يوجد الاستعمال الآخر فإنما يوجد قليلاً نادراً .

وإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث واستعرضنا أساليب اللغة فيه وجدنا البيئات العربية تختلف في استعمال - كاد - ، ففي العراق مثلاً يحرص الكتاب على أن يقرن الفعل المضارع بأن حين يقع خبراً لكاد .^(١) أما في مصر

- | | | | |
|----|---|-------------|---|
| ٣٥ | « | سورة النور | يكاد زيتها ينضى ولو لم تمسه نار |
| ٤٣ | « | سورة النور | يكاد سنا برقة يذهب بالابصار |
| ٥٢ | « | سورة الزخرف | أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين |
| ٥١ | « | سورة القلم | وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر - سورة القلم |
| ٧٨ | « | سورة النساء | فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً |
| ٩٣ | « | سورة الكهف | وجد من دونها قوم لا يكادون يفقهون قولاً |
| ٧٢ | » | سورة الحج | يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا |
| ٤٠ | » | سورة النور | ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها |

(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي .)

^(١) - اقرأ مثلاً ترجمة الأستاذ أحمد عبد الباقي لكتاب - وادي الراقين - مهدي الحضارة . دراسة اجتماعية لسكان العراق في فجر التاريخ تأليف الأستاذ ليونارد وولي ، فإنك تجد في هذه الترجمة مبلغ حرص المترجم على أن يقرن خبر - كاد - وهو الفعل المضارع ، بأن المصدرية .

فكثيراً ما يستعمل الأدباء والكتاب هذا الفعل بدون - أن .

المثال الثاني :- ولعله أوضح من الأول في بيان ما أشرنا إليه هو ما نجده من تطور في استعمال هذه التراكيب : أنا الذى أفعل أو فعلت ، ونحن الذين نفعل أو فعلنا ، وأنت الذى تفعل أو فعلت ، وأنتم الذين تفعلون أو فعلتم ، وكذلك فى أنتم ، وفى أنت ، وفى أنتم ، نجد فى هذه التراكيب بعد اسم الموصول تارة يسند إلى الضمير السابق على اسم الموصول كما تقدم فى هذه الأمثلة ، وتارة أخرى يسند إلى اسم الموصول نفسه بدون نظر إلى الضمير السابق كأن يقال مثلاً فى التراكيب المتقدمة : أنا الذى يفعل أو فعل ، ونحن الذين يفعلون أو فعلوا وأنت الذى يفعل أو فعل ، وأنتم الذين يفعلون أو فعلوا ... الخ .

* وهنا نجد النحاة يذهبون مذاهب عدة فى فهم هذه التراكيب ويتأولونها تأويلات مختلفة كدأبهم فيما يدرسون ، وكل منهم يحاول أن يثبت وجهة نظره بأى وسيلة كانت ، ومن يطلع على اختلافاتهم وآرائهم ، وتأويلاتهم فى هذه الاستعمالات لا يستطيع أن يخرج من ذلك برأى ناضج ولا بفكرة واضحة ولهذا فإننا نترك آراءهم جانباً ، ولا نتعرض لاختلافاتهم فإنها تفسد علينا الفكرة التى نهذف إليها ، وهى بيان تطور الأساليب بتطور الزمن . وها نحن أولاء نحتكم إلى الاستعمال العربى نفسه لهذه التراكيب لنرى كيف كانت طريقة العرب فى العصور المختلفة فى التعبير عن هذه المعانى ، ومع ذلك فإننا نحيل من يريد من القراء أن يطلع على آراء النحاة وعلى اختلافاتهم

ليأخذ صورة من مناقشاتهم وتأويلاتهم ، نقول إننا نحيل هذا الفريق من
القراء إلى ما كتبه الاستاذ الشنقيطي عن هذه التراكيب بالذات ^(١) . كان
الاستعمال الغالب عند الجاهليين في هذا التركيب هو أن يعود الضمير في
الفعل التالي للاسم الموصول على اسم الموصول نفسه لا على الضمير السابق
وشاهد ذلك قول امرئ القيس :-

أنا الذي عرفت فضله * ونشدت عن حجر بن أم قطام

وكذلك يقول طرفه بن العبد في معلقته :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه * خشاشا كرأس الحية المتوقد

وكذلك يقول أبو حرب الأعلم وهو جاهلي من بني عقيل :

نحن اللذون صبحوا الصباحا * يوم النخيل غارة ملحاحا

وإذا ما جئنا إلى صدر الاسلام فإننا نجد تطوراً في هذا الاستعمال
فمرة يحافظون على الاستعمال القديم ، ومرة يأخذون في استعمال جديد ،
ذلك بأن يعيدوا الضمير في الفعل على الضمير السابق للاسم الموصول مثال
ذلك ما نجده في هذا البيت ، وهو لا أحد الا نصار ، كما يفهم من المعنى ،
ولم يعرف قائله بالضبط ^(٢) .

نحن الذين بابعوا محمدا * على الجهاد ما بقينا أبدا

^(١) الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

^(٢) الشنقيطي الدرر اللوامع ج ١ ص ٦٣

وهنا نلاحظ الاستعمالين في نفس البيت ، فالفعل - بايعوا - أسند إلى اسم الموصول ، والفعل - بقينا - أسند إلى الضمير السابق على اسم الموصول وهو - نحن - .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في رجز لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاله في مبارزته لمرحب اليهودي يوم خيبر^(١) :

أنا الذي سمتني أمي حيدر * ضرغام آجام وليث قسورة

وفي هذا البيت نجد الفعل مسنداً إلى الضمير السابق على اسم الموصول ومن هذا الاستعمال أيضاً ما يروى لكثير عزه :

وأنت التي حببت كل قصيرة * إلى ولم تعلم بذاك القصائر

وهناك بيت آخر من الشعر يذكر الشنقيطي أنه لم يعثر على قائله^(٢) ،

وهو :

وأنت الذي آثاره في عدوه * من البؤس والنعمى لهن ندوب

ولكننا حين نستخدم هذا المنهج الذي سلكناه في تطور الاستعمال لهذا التركيب نرجح أن هذا البيت جاهلي حيث اشتمل الفعل المتأخر على ضمير الموصول ، ولم يسند إلى الضمير المتقدم على الاسم الموصول .

أما القرآن فإننا لم نهتد فيه إلى استعمال لهذا التركيب بالرغم من قراءتنا

(١) الشنقيطي الدرر اللوامع ج ١ ص ٦٢

(٢) الشنقيطي الدرر اللوامع ج ١ ص ٦٣

المتواصلة لنصوصه ، ومن اطلعنا الكثير على فهارس الفاظه .

وفي العصر الحديث نجد أن الاستعمال الغالب لدى الكتاب والأدباء إنما هو استعمال صدر الاسلام ، أى اسناد الفعل التالى لاسم الموصول الى الضمير السابق كان يقال : هل أنت الذى فعلت هذا ؟ وهل أنتم الذين فعلتم ذلك ؟ ... الخ

وكنا نستطيع أن نمضى فى ذكر أمثلة مختلفة للأساليب المختلفة فى اللغة العربية ولكننا نكتفى بهذين المثالين فقط ، ونظرة فاحصة فى هذين المثالين وما تعرض فيها الاسلوب لتغيير واضح تهدينا إلى أن تغيير هذا الاسلوب فى التعبير يدل على ما كانت تخضع له اللغة العربية من تغير فى دائرة أوسع ويشبه هذا ما حدث فى اللغة الفرنسية بالنسبة لهذا التعبير نفسه . فلقد كانت هذه اللغة قديماً تستعمل :

أنا الذى فعل : *C' est moi qui a fait*

نحن الذين فعلوا : *C' est nous qui avaient fait*

أنتم الذين فعلوا : *C' est vous qui avaient fait*

ملاحظين فى كل ذلك أن الفاعل للفعل الأخير هو اسم الموصول بصرف النظر عما يشير اليه من الضمائر السابقة . ولكن هذه اللغة قد خطت فى هذا الاستعمال خطوة أخرى فجعلت الفعل الثانى خاضعاً للضمير السابق على اسم الموصول ، واستقرت على هذا الاستعمال حتى الآن ، وقد هجر الاستعمال

الأول هجراً تاماً ، فأصبحوا يقولون :

أنا الذى فعلت : *C' est moi qui ai fait*

نحن الذين فعلنا : *C' est nous qui avons fait*

أنتم الذين فعلتم : *C' est vous qui avez fait*

ومن المقارنة البسيطة بين هذين الأسلوبين فى العربية والفرنسية نجد أن مظهر التطور واحد فيها ، فبعد أن كان الفعل يسند أولاً إلى اسم الموصول أصبح فى كليهما يسند إلى الضمير السابق ، وليس من شك فى أن أثر عمل العقل واضح فى هذه الخطوة من انتقال الأسلوب إلى مرحلة جديدة ، إذ أن هذا التركيب فى حالته الأولى كان بسيطاً وربما أمكن أن نسميه ساذجاً لا تفكير فيه ، فليس أسهل من أن يسند الفعل إلى أقرب مذكور . أما فى حالته الثانية فإننا نحس بأن المعنى قد بدأ يتحكم فى اللفظ ، وأن العقل قد بدأ تبعاً لذلك يساير المعنى ولا يتأثر بظاهر التركيب وقد يبدو أن هذه التطورات وما شابهها قد تمت فى اللغة دون أن نحس بأثر لعمل العقل فيها وهذا صحيح لو قصدنا من ذلك عمل العقل الفردى ؛ ولكننا نريد عمل العقل الجماعى ، فإن لكل مجتمع عقله ومنطقه ، وميدان عمله إنما هو المظهر العام لحياة ذلك المجتمع بما فى ذلك اللغة ، والعلم ، والأدب ، والفن ، ولهذا فإن أكبر الشعراء وأعظم الكتّاب ، وأرقى الفنانين إنما هم فى الحقيقة مدينون إلى حد ما بالنسبة لبيئاتهم ومجتمعاتهم .

والآن بعد هذا الاستطراد الذى جرنّا اليه ما لاحظته الأستاذ مصطفى صادق الرافعى من تطور بعض أساليب العربية نعود اليه لنناقشه فى وجهة نظره من ناحية تهذيب اللغة ، ولكن قبل أن نبدى فى ذلك رأينا نحب أن نضيف اليه أن لفظ قريش ، الذى نسبت اليه القبيلة العربية فى بلاد الحجاز والذى نسبت اليه لهجتها كذلك ، لم يكن اسماً لشخص معين وإنما هو لقب أعطى للنضر بن كنانة ، الجسد الثانى عشر للرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يذهب إلى ذلك جمهور العلماء ، ويرى فريق آخر أن هذا اللقب أعطى لفهر بن مالك ، حفيد المتقدم . وسواء لدينا أكان هذا اللقب قد أعطى للنضر أم لفهر فإننا لا نظن أن اللهجة القرشية أخذت فى وسائل التهذيب والاصلاح منذ ذلك العهد وإنما بقيت شأن غيرها من اللهجات الأخرى حتى أيام قصى إذ أن القرشيين كانوا فى ذلك العهد محتلطين بجرهم وخزاعه الذين كانت فى يدهم ولاية البيت والسيادة على مكة ، ولكن قصياً هذا هو الذى جمع أشتات قريش وحارب هاتين القبيلتين . واستخلص منها أمر مكة وولاية البيت ، ومن هذا التاريخ تستقر قريش وتسود مكة وتبدأ فى تزعم القبائل العربية الأخرى وتبعاً لهذا الاستقرار وتلك الزعامة تأخذ اللهجة القرشية فى سبيل التهذيب والاصلاح ^(١) .

والذى نراه بالنسبة لما لاحظته الأستاذ مصطفى صادق الرافعى هو أنه

(١) انظر سيرة ابن هشام ج: ١ ص: ١١٢ ؛ واسواق العرب للأفغانى ص ٧٥ - ٩٤

قصد من التهذيب والاصلاح تهذيب اللغة نفسها من حيث اللفظ والمعنى
والأسلوب أما من الجهة النحوية أى ضوابط التراكيب وحالات الإعراب
فلم يلتفت إليها ولم يدخل لها فى مراحل التهذيب حساباً ؛ ومعنى هذا أن
ضوابط النطق ثابتة منذ القدم ، إلى أن الفاعل منذ الطور الأول من اطوار
نمو اللغة مرفوع ؛ والمفعول منصوب ؛ والاسماء الخمسة مرفوعة بالواو
ومنصوبة بالالف ومجرورة بالياء ؛ وكذلك الشأن بالنسبة للمثنى ؛ وجمع
المذكر السالم ؛ وما لا ينصرف ، وجمع المؤنث السالم ... و... و... إلى
آخر ما نجده فى أقسام الكلام من خضوع لقواعد الإعراب ؛ وهذا ما لا
يمكن أن نسلم به ، إذ أنه يقربنا من الاعتقاد بأن اللغة توقيفية
وكذلك النحو . وقد ظهر لنا مادياً وعقلياً فساد هذا الرأى .

نتيجة البحث فى النحو بمعناه الفنى

والآن بعد فراغنا من البحث فى النحو بمعناه الفنى ، وبعد الذى
أبديناه من ملاحظات عامة على نشأته ، وتطوره ، وبعد الذى سجلناه
من نتائج جزئية فى ثنايا هذا البحث ، نريد أن نصل بالقارئ إلى الهدف
البعيد الذى قصدنا إليه ؛ ذلك هو تخليص العقل من تلك الأفكار القديمة
التي كانت تنظر إلى تراثنا العلمى نظرة إجلال وتقديس فتطوف حوله
درساً وفهماً ، ولكنها لا تجرؤ على نقده ولا على إظهار ما فيه من

أخطاء . ولعل هذا كان أثراً من آثار النزعة الدينية والسلطان الروحي
الذي أشرنا إليه وعللناه فيما مضى .

لقد رأينا أن اللغة ظاهرة اجتماعية تنمى مع المجتمع وتتطور بتطوره
ورأينا كذلك أن النحو بمعناه الفنى جزء من ماهية تلك اللغة ؛ وإذن
فلا بد وأن يكون كل منها قد مر بحالات متعددة مختلفة فمن السذاجة ،
والبساطة إلى النمو والنضوج . وإذا كان من المسلم به أن اللغة العربية قد
وصلت إلى درجة الكمال أيام نزول القرآن الكريم ، وإذا كان من
المسلم به أيضاً أن النحاة ، بصرف النظر عما وقعوا فيه من اضطراب نتيجة
أبحاثهم المحدودة ، وتفكيرهم الضيق ، قد وضعوا قواعدهم بناء على
ما وقفوا عليه من النصوص اللغوية ، وما عرفوه من أساليبها ، فإنه ينبغي
أن يكون من المسلم به أيضاً أن تستمر اللغة متأثرة بحالة المجتمع الذى
تعيش فيه ، ولا تستقر على الحالة التى كانت عليها أيام نزول القرآن الكريم
وهذا ما يهدى إليه العقل ويؤيده الواقع ؛ فإن مئات الألفاظ الجديدة قد
دخلت فى اللغة العربية ، وكذلك مئات الأسماء الأعجمية التى لم يكن للعرب
عهد بها من قبل ، ومئات التراكيب المتغيرة التى لم تعرف فى تراكيب
العربية ولا فى أساليبها ؛ بل إن الأمر فى هذا الجديد ، وفى تلك الإضافات
لم يقف عند بيئة عربية واحدة ، وإنما تعدى ذلك إلى كل البيئات الإسلامية
التي اتخذت اللسان العربى أداة للتفاهم بين أفرادها ؛ فعربية الحجاز الآن
غير عربية العراق ، وعربية العراق غير عربية سوريا ، وعربية هذه الأقطار

الثلاثة غير عربية مصر ، وعربية مصر غير عربية بلاد شمال أفريقيا ؛ وما جد في كل قطر من هذه الأقطار يخالف ، الى حد ما ، ما جد في غيره من الأقطار الأخرى . وليس في ذلك شيء من الغرابة ؛ إذ أن اللغة مرآة البيئه ، وسجل المجتمع ، وترجمان فلسفته في الحياة ، ودرجته من العلم ، والفن ، والأدب . وما دامت الأقطار الناطقة باللغة العربية مختلفة في بيئاتها ، متفاوتة الدرجة فيما ذكرناه من مظاهر الرقي العقلي والاجتماعي ، فإن اللغة لا بد وأن تختلف ، وتتفاوت أيضاً تبعاً لذلك . وهذا هو ذا الأستاذ يوهان فوك — *Yohann Fück* يقدم الدليل على ذلك فيما ذكره في كتابه — العربية — ؛ فإنه قد تناول الجديد في اللغة العربية عصر الإسلام ، فعصر الأمويين ، ثم عصر العباسيين ؛ وهذا الجديد يشتمل على ما استحدث من ألفاظ ، ومن عبارات ، وحتى من أخطاء .

واذن فليس صحيحاً ما ذهب اليه القدماء أمثال ابن النديم ^(١) ؛ من أن اللغة العربية قد ثبتت بنزول القرآن الكريم ، وجمدت من بعده ؛ بل أن صنيع القرآن نفسه يعتبر مرحلة من مراحل تطور اللغة العربية في ألفاظها وفي تراكيبها ؛ فقد رأينا مثلاً أسلوب القرآن وطريقته في استعمال - كاد - ^(٢) ؛ إذ أنه قد ضرب صفحاً عن استعمال العرب قديماً لهذا الفعل

(١) انظر ما تقدم من كلام ابن النديم في كتابنا هذا « اللغة والنحو » ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) انظر الإحصائية التي جمعناها في كتابنا هذا « اللغة والنحو » لاستعمال القرآن بالنسبة للفعل - كاد - وما تفرع منه ص ١٣١ ، ١٣٢ .

وتخير له أسلوباً لم يشذ عنه في آية واحدة من آياته ؛ ذلك أنه استعمل الفعل المضارع
خبراً لكاد دون أن يكون مقترناً بأن المصدرية .

وها هو ذا مثال آخر نضيفه هنا الى هذا المثال لنرى الى أى حد كان
القرآن في بعض الأحيان يلتزم أسلوباً واحداً لا يحد عنه في استعمال فعل
من الأفعال ، او تركيب من التراكيب بالرغم من استعمال بعض العرب
لهذا التركيب او لذلك الفعل استعمالاً آخر ؛ ذلك المثال هو عسى وطريقة
استعماله . فالحاجة يقررون انه يغلب استعمال - عسى - في تركيب يكون
الخبر بدون ان ، ويستشهدون على هذا بأمثلة منها هذا البيت :

عسى الكرب الذى امسيت فيه : — يكون وراءه فرج قريب .^(١)

وكذلك بيت الفرزدق حين توعده الحجاج الثقفي :

وماذا عسى الحجاج يبلغ جهده * إذا نحن جاوزنا حفير زياد

اما القرآن فقد استعمل - عسى - في ثلاثين موضعاً ليس فيها مثال

^(١) هذا البيت لشاعر من غنوه كان يعيش في صدر الإسلام أيام

معاوية ، واسمه هذبه بن خشرم بن كرز ؛ وهذا البيت ضمن ابيات قالها
في الحبس . (انظر اخباره في الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق وشرح احمد
محمد شاكر - طبع القاهرة سنة ١٣٦٤ . ج ٢ ص ٦٧١ - ٦٧٦)

واحد يكون الخبر فيه مجرداً من — ان — . (١)

(١) وها هي ذه احصائية باستعمال القرآن للفعل عسى :

٢١٦	البقرة	عسى ان تسكرهوا شيئاً وهو خير لكم
٢١٦	د	وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم
١٩	النساء	فعسى ان تسكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً
٨٤	د	عسى الله ان يكف يأس الذين كفروا
٩٩	د	فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم
٥٢	المائدة	فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده
١٢٩	الاعراف	قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض
١٨٥	د	وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم
١٨	التوبة	فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين
١٠٢	د	خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم
٢١	يوسف	اكرمى مشواه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولداً
٨٣	د	فصير جميل عسى الله ان يأتيني بهم جميعاً
٨	الاسراء	عسى ربكم ان يرحمكم وإن عدتم عدنا
٥١	د	ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريباً
٧٩	د	عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً
٢٤	الكهف	وقل عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً
٤٠	الكهف	فعسى ربي ان يؤتين خيراً من جنتك
٤٨	مريم	وادعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً

ولم يقف امر استعمال القرآن عند هذا الحد ، بل هناك ما هو أقوى في
الحجة وأوضح في الدلالة من هذا : ذلك أنه أثر عن العرب ثلاثة طرق
في استعمال عسى ، الأول ، هو أن تلتزم - عسى - حالة الافراد والتذكير
سواء أسندت إلى مؤنث أم مذكر ؛ وسواء أكان ذلك الاسم المتقدم عليها
مفرداً أم مثنى أم جمماً ، فيقال مثلاً : زيد عسى أن يتم - ، والزيدان
عسى أن يقوما ، والزيدون عسى أن يقوموا ، وهند عسى أن تقوم
والهندان عسى أن يقوما ، والهندات عسى أن يقمن ، وهذه هي لغة أهل
الحجاز .

-
- == قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون النمل ٧٢
- لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً القصص ٩
- ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ٢٢
- فاما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفّلحين ٦٧
- يا أيها الذين آمنوا لا يستخرقوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم الحجرات ١١
- ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ١١
- عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة الممتحنة ٧
- عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكّن التجرّيم ٥
- عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنّات القلم ٨
- عسى ربنا ان يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ٣٢
- قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا البقرة ٢٤٦
- فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض محمد ٢٢

الثاني ، هو أن تتغير عسى بتغير الاسم الواقع قبلها ، فتؤنث إن كان مؤنثاً ، وتثنى إن كان مثنى ، وتجمع إن كان جمعاً ، وتفرد إن كان مفرداً فيقال مثلاً : زيد عسى أن يقوم ، والزيدان عسيا أن يقوما ، والزيدون عسوا أن يقوموا ، وهند عست أن تقوم ، والهندان عستا أن تقوموا ، والهندات عسين أن يقمن ، وهذه هي لغة بني تميم .

الثالث ، هو أن تسند - عسى - إلى ضمير من جنس ضمير الفعل ، الواقع خبراً لها ؛ فيقال مثلاً : عساني أن أقوم ، وعسانا أن نقوم ، وعساك أن تقوم ، وعساكم أن تقوموا ، وعساهم أن يقوموا ؛ وعساه أن يقوم ... إلخ .

وقد اشار الزمخشري في كتابه - المفصل - ^(١) إلى هذه الطرق الثلاثة وذكرها باختصار دون أن يعين اصحاب كل طريق ، إذ يقول : « فصل ، وللعرب في عسى ثلاثة مذاهب احدها ان يقولوا عسيت ان تفعل كذا ؛ وعسيتما إلى عسيتين وعسى زيد ان يفعل كذا وعسيا إلى عسين وعسيت وعسينا - والثاني الا يتجاوزوا عسى ان يفعل وعسى ان يفعلوا وعسى ان يفعلوا والثالث ان يقولوا عساك ان تفعل كذا الى عساكن وعساه ان يفعل

(١) - المفصل للزمخشري - ومعه كتاب الفيصل بشرح المفصل للأستاذ محمد

محي الدين عبد الحميد . ج ٢ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

الى عساهن وعسائى ان افعل وعسانا ان نفعل .

وأمام هذا نجد أن القرآن قد التزم في تعبيره أسلوب الحجازيين على طول الطريق لم يشذ عنه حتى في الآيات التي يسبق الجمع فيها - عسى - وذلك في ثلاثة مواضع : الأولى آية ٩٩ في سورة النساء ، والثاني ، آية ١١ في سورة الحجرات ، والثالث ، نفس الآية أيضاً من سورة الحجرات ، ثم أن القرآن ، مع التزامه لأفراد - عسى - ، لم يلجأ إلى الاستعمال الثالث ، وهو اسنادها إلى ضمير الفعل الواقع بعدها ، إلا في آيتين اثنتين وهما آية البقرة ٢٤٦ ، وآية - محمد - ٢٢ ، وذلك بسبب لفظي واضح ، وهو أن - عسى - قد فصل بينها وبين خبرها بجملة طويلة فأسندت - عسى - إلى الضمير حتى لا يؤثر هذا الفصل في السماع ، وكثيراً ما يلاحظ القرآن في تعبيراته الناحية اللفظية ، وموسيقى الآيات . وقد لاحظ القراء هذه المسألة في كتابه - معاني القرآن - الذي لا يزال مخطوطاً ، وشرحها شرحاً بيناً ، وذكر لها عشرات الأمثلة في القرآن من ذلك قوله تعالى « والليل إذا يسر » بدل يسرى ، وقوله والذي خلقني فهو يهدين ، والذي يطعمني ويسقيني وإذا مرضت فهو يشفين .

ولعل هذا يدعونا إلى التفكير* ملياً فيما ذكره النحاة وقررناه سابقاً من أن للعرب مذاهب ثلاثة في استعمال - عسى - إذ أننا لم نجد فيما اطلعنا عليه من كتب النحو ، والأدب والتاريخ ، والقراءات ، ما يشير إلى أن هذا

الاستعمال الثالث كان خاصاً بقوم بعينهم من العرب ، ونحن لا نستطيع أن نتصور ذلك لهجة من لهجات العرب ، أو لغة من لغات إحدى القبائل العربية ، وهذا في نظرنا لا يعدو أن يكون وليداً لظروف الكلام ، والمتكلم ومراعاة لحالة السامع أيضاً ، وليس فيه شيء من طبيعة لغة خاصة ، أو قبيلة بعينها ، كما نلاحظ ذلك في لغة الحجازيين ؛ أو في لغة التميميين ؛ حيث تنهض كل لغة على فروق جوهرية . وإذن فليس هناك سوى لغتين .

لغة الأفراد في عسى ، ولغة المطابقة ، وقد التزم القرآن الأولى منها . وما ذكرناه حتى الآن يدل في وضوح على مدى اختلاف الأساليب في اللغة العربية ، وعلى مبلغ الجهد الذي ينبغي أن نوجهه لدراستها ، ثم على مقدار ما يمكن أن نجنّبه من وراء تلك الدراسة ، وذلك ، دون ريب ، على ضوء ما قدمناه من تمهيد ، ودرس ، وما ذكرناه من ملاحظات ؛ وسجلناه من نتائج أثناء بحثنا في النحو بمعناه الفني .

علينا إذن أن نجرد أنفسنا من تلك الأفكار القديمة وأن ننظر إلى اللغة العربية ونحوها نظرة جديدة أساسها الإحساس الفطري ، والواقع الملموس . وعلينا إذن أن ندرس اللغة والنحو دراسة واقعية فلا نحاول أن نرجع بها إلى العصور الجاهلية الأولى كما يصنع بعض اللغويين الآن ، فإن هذه اللغة نفسها قد استطاعت أن تسير الحياة ، وما جد فيها من تقدم في كل نواحي المعرفة الإنسانية ، فيما يقرب من أربعة عشر قرناً من الزمان ، ولسنا نشك في أن كل عصر من

هذه العصور قد طبع اللغة بطابع جديد ، وترك فيها آثاراً عديدة . وقبل
 أن نختم كلمتنا هذه عن نتيجة بحثنا المتقدم نحب أن نذكر القارئ بأن كل ما
 ذكرناه خاصاً بالنحو إنما نقصد منه النحو بمعناه الفني ؛ أى طرق الأداء
 والتعبير نفسها ، وأما النحو بمعناه العلوي فسيكون لنا منه موقف آخر إن
 شاء الله .

والله اعلم .



والله اعلم .

النحو بمعناه العلمى (١)

النوع الثانى من النحو ، وهو النحو بمعناه العلمى ، يقصد منه استنباط قواعد النطق الصحيح بناء على دراسة اللغة وفهم أساليبها وإدراك أسرار طرق الأداء فيها ، ثم تسجيل هذه القواعد لدراستها . ونشأة هذا العلم بالنسبة للغات العديدة ، مختلفة من حيث الظروف التى وجد فيها ومن حيث طبيعة العلم نفسه ومادته .

والأسباب التى دعت إلى نشأة النحو عند الشرقيين عامة تكاد تكون واحدة ، ولكنها فى نفس الوقت تخالف الأسباب التى دعت إلى نشأة النحو عند الغربيين . فبينما نجد الشرق يحدوه فى وضع هذا العلم عامل روحى دينى ، إذا بنا نجد الغرب يحدوه فى ذلك عامل لغوى بلاغى اجتماعى : فالهنود حينما بدأوا يضعون نحوهم ويفكرون فى مسائله كان هدفهم من ذلك المحافظة على لغة كتابهم المقدس - Vedas - وشرح أساليبه .

وكذلك الأمر بالنسبة للنحو السريانى ؛ فعند ما وجد السريان ، سواء منهم النسطوريون أم اليعقوبيون ، أن الفتح العربى قد امتد إلى

(١) انظر ص ٧٨ وما بعدها من هذا الكتاب

بيئاتهم وإن اللغة العربية بدأت تنافس لغتهم ، فزعوا من ذلك وخافوا على
كتابهم المقدس - الانجيل - من أن تمتد إليه يد التحريف فأخذوا في وضع
قواعد لضبط اللغة كي تحدد الطريقة التي تقرأ بها نصوص الانجيل .

11
وكان الخوف على نصوص القرآن أولاً هو الذي دفع العرب إلى التفكير
في وضع النحو وقواعده ، ونحن نورد هذا الرأي معتمدين في ذلك على
الاتجاه العام عند الشرقيين في وضع أسس هذا العلم ، ومستندين إلى الروايات
العديدة التي تؤيد هذا بالرغم من الروايات الأخرى التي تتلبس لوضع
النحو العربي أسباباً غير تلك الأسباب ، لا نجد محلاً لذكرها الآن ،
وسنعرض لها بالتفصيل بعد قليل .

أما اليونانيون فلم يكن الحافز لهم على وضع هذا العلم خوفهم من
أن يتسرب اللحن إلى لغتهم ، ولا حرصهم على نصوص مقدسة لديهم ؛ فقد
كانت اللغة اليونانية يوم فكروا في وضع هذا العلم - القرن الخامس قبل
الميلاد - في منتهى القوة والكمال وإن لم يكن لها ما ينافسها من اللغات
الأخرى ، ولكنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك أولاً بسبب رغبتهم في شرح
شعر هوميروس وتفهم أساليبه ، وثانياً لتفشئة جيل يوناني قادر على تصريف
أوجه الكلام وإقناع الجماهير في خطبهم السياسية والقضائية .

ولأسباب تسكاد تكون مشابهة لذلك نشأ النحو اللاتيني ، فالروم ،
فوق رغبتهم في تقليد اليونانيين بالنسبة لهذا العلم ، أرادوا تثبيت لغتهم

وشرح أساليبها وأوجه الجمال فيها . وأول محاولة لهم في ذلك كانت في القرن الثاني قبل الميلاد .

وهذه الظاهرة الخاصة بنشأة علم النحو ليست في الواقع سوى جزئية من ظاهرة عامة تسود الشرق بجملمته ، وظاهرة عامة أخرى تسود الغرب بجملمته ، فنذ القدم والشرق يحدوه في تفكيره وفي أنظمته الاجتماعية وفي فلسفته وفي علومه معنى روجى يتطلع دائماً إلى السماء ، إلى الله ، إلى حياة أخرى لا خطر للمادية فيها ، وكل ما شاهدناه من آثار لحضارات الشرق ومن إنتاج عقلى عند الشرقيين إنما هو ناتج عن هذا المعنى الروجى ، سواء أكان ذلك عن طريق مباشر أم عن طريق غير مباشر . فكان الملوك عندهم يمثلون الآلهة على الأرض وأنظمة الدول وقوانين المجتمع مستمدة من الآلهة أو من ممثليهم . وهكذا في سائر النواحي مما يدل على تغلغل هذا المعنى في البيئات الشرقية وتمسكه في نفوس الشرقيين ، حتى لقد أصبح في كثير من الأحيان مظهر التقدم في الشرق والطابع الغالب في الثقافات الشرقية ، ولهذا فليس عن طريق الصدفة أن كان الشرق مهد الأديان (سواء في ذلك الأديان الوثنية أم الأديان السماوية) . والمجال هنا واسع لدرس هذه النظرية وتحليلها ثم إثباتها مسابقة للعصور التاريخية مدعمة بالأدلة ، ولكن ليس هنا مكان ذلك الفصل الكبير والبحث التحليلى العميق ، غير أننا نكتفى بالإشارة فقط إلى أن الشرق بوجه عام قد مر بمرحلتين واضحتين وهو في كليهما كان متأثراً

إلى حد بعيد بذلك المعنى الروحي ولا نكاد نحس بأثر السلطان المادي في
هاتين المرحلتين الطويلتين :

المرحلة الأولى

هي مرحلة الديانات الوثنية على اختلافها من عبادة الكواكب ،
والنار ، والملوك ، والحيوانات ، والنباتات وغير ذلك من القوى الطبيعية
مثلة في أوثان . وكانت الزعامة لهذه الديانات تكاد تكون محصورة في
بئتين اثنتين ، أحدهما وادي النيل ، والثانية وادي دجلة والفرات .
وحضارات هاتين البئتين قديما تفيض بذلك المعنى الروحي الذي أشرنا إليه
ولا تترك مجالاً للشك في تغليب السلطان الروحي ، وفي استلزام الروح لوضع
أنظمة المجتمع .

المرحلة الثانية

هي مرحلة الأديان السماوية على اختلافها أيضاً من يهودية ومسيحية
وإسلامية . وكانت الزعامة لهذه الأديان محصورة بدورها أيضاً في بئتين
اثنتين ، إحداهما بيئة الشام ، والثانية أرض الحجاز في شبه الجزيرة
العربية ، والطابع الغالب في هذه الأديان أيضاً هو طابع روحي ، إذ أنها
تتجه بنظر الإنسان وتفكيره أولاً إلى القوة الخالقة والمهيمنة على هذا
الكون ، ثم أنها تهدف أول ما تهدف إلى إصلاح الروح عند الإنسان ،

مقتنعة بأن إصلاح المجتمع لا يمكن أن يتحقق الا على أساس الإصلاح
الروحي . وعلى العكس من ذلك كله نجد المعنى المادى الواقعى سائداً عند
الغريين وأساساً لحضاراتهم ولإنتاجهم العقلى حتى فيما من شأنه أن يكون
خاصاً بالمعنى الروحي كالاديان ، فإنهم صوروها فى كثير من الاحيان
تصويراً مادياً وجعلوا منها أداة لرقى المجتمع المادى قبل أن تكون
أداة للإصلاح الروحي .

* * * * *

نعود الآن الى موضوعنا الاصلى وهو نشأة النحو العربى ، ومن هذا
العرض الذى بسطناه آنفاً عن الظاهرة الروحية العامة عند الشرقيين
يتضح لنا أن الحافز الاول الذى دفع العرب الى التفكير فى وضع علم
النحو هو الخوف على نصوص القرآن من أن تمتد اليها يد التحريف .
وهذا هو رأى الذى نظمنا اليه وتأييده الوقائع ، وسنحاول اثباته بما
توفر لنا من اطلاع وبما استطعنا أن نهتدى اليه من استنتاج ، وفى توضيح
هذه المسألة والاهتمام الى رأى فيها توضيح لمسألة أخرى شائكة ، قد كثر
فيها الكلام ، وطال الجدل ، ولم يفته العلماء فيها إلى رأى قاطع . تلك هى
مسألة تاريخ نشأة النحو العربى .

وهنا قبل أن نبدأ الكلام على سبب نشأة النحو العربى ، وتاريخ تلك
النشأة نحب أن نقضى على روح التشاؤم التى تسيطر على أفكار بعض

العلماء المحدثين . تلك الروح التي لا يقرها العلم في مختلف صورته ، ولا تعترف بها مناهج البحث الحديث ؛ وأن نبعد من حسابنا تلك الفكرة القائلة باستحالة الاهتداء إلى تاريخ وضع النحو العربي ، وتعذر معرفة واضعه . فما هو ذا الاستاذ مصطفى صادق الرافعي يذكر في جرأة وصراحة هذا النص : « أما تاريخ وضع النحو فلا سبيل إلى تحقيقه ألبتة ^(١) »

ثم يذكر الاستاذ ابراهيم مصطفى نصاً آخر في هذا المعنى مستنداً فيه على نفس المؤلف المتقدم « إن معرفة واضع النحو في العربية يكاد يكون معضلة ^(٢) »

هذه الأفكار وأمثالها ، عندنا معشر الشرقيين ، مشبطة للهمم مدعاة إلى التواكل والاستسلام . وليس أخطر على الشرق من أن تنتشر فيه هذه الروح ، وأن تعرف عنه تلك العقيدة ، لأنها تجعل الشرقيين يفقدون الثقة في أنفسهم ، وحينئذ لا مناص لهم من الاعتماد على الغير يأخذ بيدهم ، ويمدهم بأبحاثه ، ثم لا يكون لهم من الجرأة الفكرية ما يستطيعون

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ آداب العرب ص ٢٦٦

(٢) انظر بحث الاستاذ ابراهيم مصطفى عن - أول من وضع النحو - في مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد في المجلد العاشر ، الجزء الثاني ديسمبر سنة ١٩٤٨

بواسطة تحليل هذه الأبحاث ولا نقدها كما صنع ، ويصنع الغرب حتى الآن ؛ وليس أدل على ذلك من تلهف الشرقيين على أبحاث المستشرقين وعلى آرائهم يأخذونها في كثير من الأحيان حجة مسلّمة دون مناقشة ؛ بل ربما تمدحوا بذكرها والاطلاع عليها .

بعد هذه الملاحظة الخاصة بالروح العامة عند الشرقيين ، وبعد الدراسات الطويلة لتاريخ العلوم عند العرب ، وإدراكنا مبلغ حرصهم على الآثار الدينية ، نستطيع أن نؤكد بأن السبب المباشر في وضع النحو هو فزع العرب وخوفهم من أن يتسرب الخطأ واللحن إلى نصوص القرآن . وإذا كان هناك ما يفهم منه حرصهم على اللغة نفسها ، فليس ذلك إلا لأن اللغة أداة لقراءة النصوص القرآنية

ولو نظرنا نظرة إجمالية إلى العلوم العربية في العصور الإسلامية الأولى ، لوجدنا أنها نشأت لخدمة القرآن أو تفرعت عن نصوصه ، إذ أن القرآن كان بمثابة المركز الرئيسي : كل المعارف العربية مجندة له ، وكل العلوم العربية الخالصة محيطة به . ولم يكن النحو في الواقع سوى حلقة هامة من سلسلة تلك العلوم التي تخدم القرآن ، وتحافظ على نصوصه .

والذين يقولون غير ذلك تعوزهم الفكرة العامة ؛ والنظرة الشاملة بالنسبة للعلوم الإسلامية كلها . ثم إنهم -- في اعتقادنا -- لا يستندون فيما يقولون على رأى ناضج ، ولا على منطق سليم . ولعل أهم وأكثر

الاططاء التي تقع فيها إنما مصدره النظرة الجزئية التي تنصب على ناحية خاصة دون اعتبار للكليات .

ولو كان مجرد اللحن في اللغة مدعاة لوضع النحو لوجدنا على الأقل محاولات فيه أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أو أيام الخلفاء الراشدين من بعده ؛ إذ أن اللحن موجود في البيئة العربية منذ ذلك التاريخ بل نعتقد أنه أقدم من ذلك عهداً ، فالبيئة العربية منذ مئات السنين قبل الإسلام كانت تعتبر مأوى للمهاجرين وطلاب الكسب من الأمم الأخرى مثل اليهود والفرس والحباش والروم .

ولانريد أن نذهب بعيداً فنذكر هجرة الآشوريين والبابليين منذ ألفي سنة تقريباً قبل ميلاد المسيح . ولم يكن هؤلاء ولا أولئك يتكلمون العربية حتى يتنزه لسانهم عن اللمكنة الأجنبية ويسلم منطقهم من اللحن والاططاء . ومن يدرس الحالة الاجتماعية للقبائل العربية قبل الإسلام ، ويبحث على الخصوص في الحالة التجارية التي تسيطر على كل نشاط آخر في شبه الجزيرة العربية ، أو يلاحظ حركة الأسواق السنوية ^(١) التي تقام

^(١) اختلف العلماء في عدد أسواق العرب ، فيعدها القلقشندي في صبح الأعشى ٨ ، ويعدها اليعقوبي في تاريخه والبغدادى في خزانته ١٠ ، ويعدها المرزوقي في الأزمنة والامكنة ١٧ ، ويعدها الألوسي في بلوغ الأرب ١٤ ، =

في أكثر من عشرين مدينة تحيط بشبه الجزيرة من كل نواحيها — من شواطئ البحر الأحمر الى شواطئ المحيط الهندي ، الى شواطئ الخليج الفارسي الى البادية الشمالية الواسعة الممتدة من ريف العراق الى بلاد الشام — ويعرف مبلغ ما كان يحدث في هذه الأسواق من اختلاط العرب بغيرهم من اليهود والفرس والروم ، وما يتبع ذلك من استيطان بعض هؤلاء

== ويعدها الهمداني في صفة جزيرة العرب ٥٠ ، ويعدها الاستاذ الافغانى في أسواق العرب ٢٠ .
وسنذكر بعضاً من هذه الأسواق تاركين الخلافات الكثيرة بين المؤلفين القدماء :

١ دومة الجندل : وهي في منتصف الطريق بين البصرة والعقبة ، وكانت تقام في أول ربيع الأول حتى منتصفه وأحياناً حتى آخره .

٢ المشقر : بالبحرين قريباً من هجر على شواطئ الخليج الفارسي ، وتبدأ السوق من أول جمادى الآخرة وتستمر حتى نهايته .

٣ هجر : وهي بالبحرين أيضاً على شاطئ الخليج الفارسي ، وتبدأ حيث تنتهي سوق دومة الجندل ، فكانوا ينتقلون اليها مباشرة في أول ربيع الثاني

٤ عمان : في جنوب الخليج الفارسي وتمتد على ساحل بحر اليمن ، وتبدأ حيث تنتهي سوق هجر ، وتستمر حتى آخر جمادى الأولى وروادها فرس وهنود وأحباش ويمنيون وحجازيون وشآميون .

الأجانب في المدن التي تقام فيها الاسواق قياماً بالتجارة أو طلباً للكسب عن
أى طريق آخر ، نقول أن من يدرس هذه الحياة الاجتماعية ويلاحظ ما
كان فيها من ذلك لا يخامرهُ أدنى شك في أن المجتمع العربي القديم كان
يجرى فيه اللحن على السنة هؤلاء الأجانب ، وربما على السنة بعض العرب
أنفسهم الذين يكثرون من مخالطة هؤلاء الأجانب ، والذين لم يكونوا من
السادة ، ولا من المتطرفين في المحافظة على اللسان العربي ، وفي استقامة

٥ حباشه : في تهامة فيما بين الحجاز واليمن وكانت تقام في رجب
٦ صحار : في أرض عمان وهي واقعة على شاطئ خليج عمان ، وتقوم
السوق من ١٠ رجب الى ١٥ منه أى بعد انقضاء سوق حباشه .
٧ دبا أودبي : في أرض عمان أيضاً وتقوم سوقها بعد انقضاء سوق
صحار وتستمر حتى منتصف شعبان ، وهي تقع أيضاً على الساحل شمال
صحار .

٨ الشحر : على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية بين عدن وعمان
وتقوم سوقها في منتصف شعبان .
٩ عدن أبين : تقع على بحر الهند جنوبى مضيق باب المندب نحو الشرق
وتقوم سوقها بعد الشحر في مدة العشر الاول من رمضان .
١٠ صنعاء : في بلاد اليمن ، وهي العاصمة وسوقها تقام من رمضان
حتى آخره .

التركيب الصحيح . وينبغي أن نطمئن تماماً إلى أن ما وصل إلينا من النصوص الأدبية القديمة لا يمثل اللغة العربية تمثيلاً صحيحاً كاملاً ، فإن لغة الشعر غير لغة الخطاب ، والعبارات التي تروى وتؤثر غير العبارات التي يتم بها التفاهم وأحاديث السادة غير أحاديث السوق ، وينبغي أن نطمئن أيضاً إلى أن بعض العرب كان يستنكف وجود اللحن في اللغة ويتبرم من سماعه ، فلم تكن غير الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين من بعده على سلامة النطق وليدة أيامهم

١١ حضر موت : وهي منطقة واسعة في جنوب شبه الجزيرة بين عدن وعمان ، وسوقها تقام على رابية بها ، فتعرف أيضاً بسوق الرابية من ١٥ ذى القعدة حتى آخره . ورمالها الواسعة تعرف بالاحتفاف .

١٢ عكاظ : بين مكة والطائف وهي السوق العامة للعرب في الجاهلية وهي تقوم في ذى القعدة ، ويرى أكثر الرواة أنها تبدأ أول القعدة إلى ٢٠ منه

١٣ مجنة : شمال عكاظ قرب مكة وتقوم السوق في العشر الأخير من ذى القعدة بعد انتهاء سوق عكاظ .

١٤ ذى المجاز : شمال غرب مجنة وتقوم سوقها في أول ذى الحجة بعد انتهاء سوق مجنة مباشرة .

١٥ نطاة خيبر : وخیبر قرية شمال المدينة ؛ بينها وبين تبوك . ونطاة اسم حصن بها ، واسم عين أيضاً . وفي القرية حصون كثيرة لليهود ، وأهلها يهود جاءوا إلى الحجاز قديماً واشتغلوا بالزراعة والتجارة .

كما لم يكن التحريف في عهدهم بادرة جديدة لم يسبق لها مثيل ، وينبغي أيضاً
ألا نساير القائلين بعصمة العربي من اللحن ؛ وبعيد اللغة في العصر الجاهلي عن
أى تحريف ، فهناك من أسرار اللغة ودقائق التعبير ما لا يمكن أن يدرك
بتأمل ، وعناية ، ومران . وأمامنا من ذلك صور حية في اللغات الحديثة
التي يعرف أهلها بلا استثناء القراءة والكتابة ومع ذلك لا يسلم لسانهم من
الخطأ ، ولا يتفقون جميعاً على النطق الصحيح ، فما بال العرب إذن وهم قوم
أغلبهم أميون ؛ وكانوا يعيشون فبائل متفرقة ؟

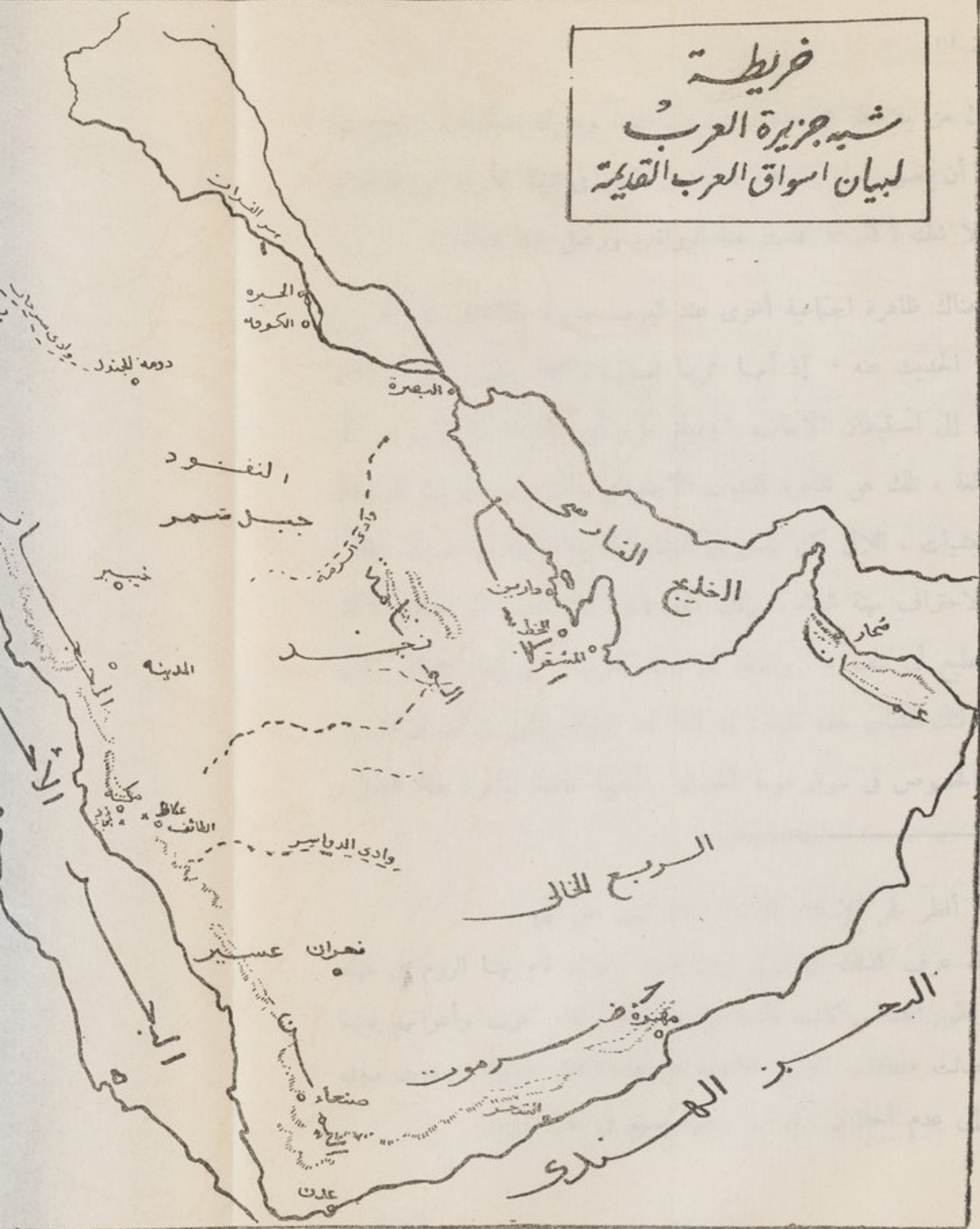
ولكى نرى إلى أى حد كانت بلاد العرب معرضة لمجيء الأجانب يكفى
أن نعرف ما كان يوجد في مكة نفسها من بيوت تجارية للروم الذين كانوا
يستخدمونها في أغراض أخرى كالنجس على العرب ، وكذلك ما كان فيها
من أحباش أيضاً يقومون مقام السفراء في الشؤون التجارية بين العرب وأهل

وكانت من أغنى بلاد العرب ، بل هي مصرف الجزيرة المالي . وسوقها
تقام بعد ذى الحجاز أى بعد أشهر الحج .

١٦ حجر : في بلاد اليمامة وهي غربي البحرين وجنوب العراق ،
وكانت تقوم بين عاشوراء وآخر المحرم ،

١٧ بصرى : في مشارف الشام ، وهي عاصمة صوران .

خريطة
شبه جزيرة العرب
لبیان اسواق العرب القديمة



إن من يلاحظ كل هذه الاعتبارات ، ويدرك مداها ، يستطيع في سهولة أن يتصور مبلغ ما كان فاشياً من اللحن في البيئة العربية قبل الإسلام . فهو بلا شك أكثر مما تحدث عنه الرواة ، ووصل إلينا صداه .

وهناك ظاهرة اجتماعية أخرى عند العرب جديرة بالاعتبار فيما نحن بصدد الحديث عنه ، إذ أنها ترينا بصورة واضحة مقدار تعرض المدن العربية إلى استيطان الأجانب ، ومبلغ ما يكون لهؤلاء الأجانب من أثر على اللغة ، تلك هي ظاهرة الفتيات الأجنبية ، من روميات إلى فارسيات إلى حبشيات ، اللاتي كن يقمن في البيئات العربية ، إما في صورة إماء ، وإما لاحتراف مهنة البغاء . وكان ذلك فاشياً عند العرب في الجاهلية أكثر مما نستطيع أن نتصوره . ونعتقد أن سادة العرب ، ورؤساء القبائل كانت تقر لأولئك الفتيات هذه المهنة ، إذ أننا نجد البغيات يقمن في أسواق العرب ، وعلى الخصوص في سوق دومة الجندل ، أخبية خاصة لمباشرة هذا العمل .

(١) أنظر فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ١٥

وقد عرف كذلك أن أول غزوة لبلاد العرب قام بها الروم في عهد الامبراطور أغسطس كانت قائمة على صلاتهم ببلاد العرب وأعوانهم فيها وقد تحدث كتب التاريخ اللاتينية عن هذه الحملة الحربية ، وعزت سبب فشلها إلى عدم إخلاص أعوانهم وجواسيسهم في بلاد العرب .

ونعرف أن بعض العرب كان يتخذ من هذه الأماء مورداً للكسب ، ولم يكن ذلك قليلاً أو نادراً ، بدليل اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المسألة ونهى القرآن عنها « ولا تسكروها فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ؛ ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ^(١) »

وحسبنا في هذا أن نعلم أن أم عنبرة بن شداد كانت حبشية اسمها زبيبة ، وأن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن ظهرت مواهبه في ميدان الرجولة ؛ وفي ميدان الأدب ، وقد توفي عنبرة هذا في سنة ٦١٥ م . ثم في أيام ظهور الاسلام نجد صهييا الرومي ، وبلالا الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وغير هؤلاء وأولئك كثير ممن أبلوا في المحنة الإسلامية الأولى بلاء حسناً ، وكان السادة من قريش يسمونهم أراذل الناس . وينبغي ألا يغيب عنا كذلك ما كان في شمال بلاد الحجاز من جالية يهودية كبيرة ، وما كان لها من صلات تجارية وثقافية متبادلة مع من جاورها من العرب .

لكل هذه الاعتبارات لا نستطيع أن نفق وجود اللحن في البيئات العربية قبل الإسلام ، ولا في عهد الرسول ؛ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده . ولا نستطيع كذلك أن نقلل من كمية ما كان موجوداً في تلك العهود من لحن في اللغة العربية . وإذا كان الرواة قد حدثونا عن حوادث فردية وقع

^(١) أنظر أسواق العرب للأفغاني ص ٤٥ : ص ١٩٩ - ٢٠٠

فيما لحن أمام الرسول وأمام الخلفاء الراشدين من بعده ؛ فثاروا له ونهبوا
إلى إصلاحه فلنشق بأن أمثال هذا اللحن كان كثيراً . غير أن هذا اللحن
مع كثرته لم يكن ذا خطر ، ولم يكن هناك ما يخشى عليه من هذا اللحن .
فالقرآن كان محفوظاً في ذاكرة الصحابة من العرب الخالص . ولم ينتشر
حفظه بين الكثير من الطبقات إلا بعد أن اتسعت الفتوح الإسلامية ،
وامتد نفوذ الإسلام . وحينئذ يأتي دور اللحن الخطير ، ويخشى منه على
النصوص القرآنية فيفزع العرب كما فزع الهنود والسراني من قبلهم ؛ ويهبطون
يلتمسون الوسائل لوضع ضوابط تحفظ القرآن من هذه الأخطار .

والنتيجة التي نريد أن ننتهي إليها من وراء هذا العرض هو أن السبب
المباشر في وضع النحو العربي ليس اللحن نفسه ، وإنما هو الخوف على
الآيات القرآنية من أن تمتد إليها يد التحريف ، أن ذلك لم يكن بطبيعة الحال
يوم كان العرب مستقرين في بيئاتهم الأولى ، ودولتهم تكاد تكون محصورة
في بيئة الحجاز ؛ بل كان ذلك حينما انتقل سلطان الدولة الإسلامية إلى
بيئات غير عربية ، وخضع لهذه الدولة أفواج عديدة من الأجانب
من فرس ، وشراني ، وعبرانيين .

تأريخ اللحن في العربية :

ليس من السهل أن نؤرخ لظاهرة اللحن متى وجدت ، كما أنه ليس من
السهل أن نؤرخ لأفراده ، أي ، أية لحنه وجدت أولاً ، ولكن من اليسير

أن تؤرخ لأنواعه ، بمعنى أى نوع من أنواع اللحن يمكن أن يكون قد وجد أولاً - وقبل أن نعرف اللحن ونؤرخ لمعرفة ما به نحب أن نمهد لذلك بالكلام عن أنواع اللحن ، وهذه الأنواع يمكن أن توضع في أربع طوائف : الطائفة الأولى : لحن يخص علامات الإعراب مثل : متعلين ^(١) ،

ومنتنين ^(٢)

الطائفة الثانية : لحن يخص طريقة النطق كأن ينطق بالحاء هاء ، أو بالقاف كافاً كنطق صهيب وبلال .

الطائفة الثالثة : لحن يخص بنية الكلمة مثل توضيت بدل توضأت ^(٣) ومعايش بدل معائش .

^(١) إشارة إلى ما روى من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بقوم يرمون ، فاستقبح رميهم ، فقال : ما أسوأ رميكم !! فقالوا : نحن قوم متعلمين (بدل متعلمون) فقال عمر : لحنكم أشد على من فساد رميكم .

^(٢) أشاره إلى لحن وقع من أبي حنيفة في هذه الكلمة ، حيث يذكر أبو هلال العسكري في كتابه - المعجم في بقية الأشياء - ص ٢٨ ، ٢٩ ، خبراً مسنداً ينتهي فيه السند إلى أبي عثمان المازني وسنعرض لهذا الخبر بالتفصيل بعد قليل .

^(٣) هذه الحنة منسوبة إلى الحسن البصري ؛ وسيأتى الكلام عليها بعد قليل .

الطائفة الرابعة : لحن يخص وزن الكلمة مثل : رعد وبرق بدل أرعد وأبرق . . وما شاكل ذلك .

وسيتبين لنا بعد قليل أن هذه الأنواع الأربعة من اللحن يمكن أن تؤول إلى نوعين اثنين ؛ إذ أن نوع اللحن الخاص بنطق الأجانب ، والذي هو وليد التكوين الطبيعي للقنوت الصوتية ولتخرج الحروف فيها يمكن أن يصرف عنه النظر ، ولا يعد لحناً مستقلاً بذاته ، ولهذا فقد أهمله رجال اللغة ، ولم يلقوا إليه بالاً ؛ وكذلك لم يكن له من الحظر على اللغة ما يخشى منه ، فلم يقابل من العرب الخالص قبل الإسلام وبعده بمثل ما كان يقابل به أى نوع آخر من أنواع اللحن .

وأما الطائفة الثالثة والرابعة فيمكن اعتبارهما نوعاً واحداً من اللحن إذ أن اللحن في بنية الكلمة لا يكاد يفرق عن اللحن في وزنها ، وسيظهر بعد قليل أن خطرهما واحد ، وأنه في درجة أقل من اللحن في الأعراب . وإذن فنحن أمام نوعين من اللحن هما : اللحن في علامات الإعراب ، واللحن في بنية الكلمة أو في صياغتها ؛ ومع ذلك فأنا نستطيع أن نقول ، على ضوء ما تقدم ، إن لكنة النطق هي التي يمكن أن تكون قد سبقت كل الأنواع الأخرى ، ولم تكن فيما نظن عظمة الخطر ، بل كان لا بد للعرب الخالص أن يتجاوزوا عن سماعها ما داموا قد أجازوا الأجانب أن يقيموا فيما بينهم .

ثم يأتي اللحن في علامات الإعراب بنوعها : حروف وحركات وكان هذا النوع أشد الأنواع على إذن العربي الخالص وأخطرها على اللغة الفصحى . وأخيراً يجيء النوعان الآخران ، ويعتبر خطرهما في المرتبة الثانية .

والذي أفزع العرب وجعلهم يفكرون في وضع ضوابط هو النوع الثاني من الأنواع الأربعة . وذلك لأن نصوص القرآن كانت مدونة ، ولا سبيل للخوف عليها من ناحية بنية الكلمات . وإنما الخوف كان من ناحية الشكل الذي لم يكن قد ثبت بعد . وبعد ضوابط الشكل فكروا في ضوابط البنية . وليس من شك في أن طبيعة صنيع العرب في الضبط تدل على أخطر الأنواع ، فالاهتمام الأول كان منصّباً على الشكل أى على علامات الإعراب . ثم يجيء الاهتمام ببنية الكلمة فيوضع نقط الإعجام . وليس من شك كذلك في أن الخلط في علامات الإعراب أسرع على اللسان . وأسهل في الارتكاب من الخلط في بنية الكلمة . فليس من السهل على العربي المقلد أن يخلط بين ما أحسن وما أحسب مثلاً ؛ ولكن من السهل عليه أن يخلط بين ما أحسن بفتح النون وما أحسن بضمها ١٢٠

ويدخل تحت النوع الرابع من صور اللحن ما تستعمل فيه الكلمة أو التركيب في غير ما وضع له . مثال ذلك استعمال كلمة (محبطة) التي معناها المنتفخ البطن ، في معنى من تورمت أنفه غضباً . والذي ارتكب

هذا اللحن وعيب عليه هو شبيب بن شبة المتوفى سنة ١٦٤ هـ ^(١)

وقد نسب اليه اللحن أيضاً حينما استعمل هذا التركيب (ما بين لابتيا)
مريداً بذلك البصرة . بينما هذا التركيب كان يستعمل خاصة في المدينة ^(٢)
ولعل هذه الصورة وأمثالها أبسط أنواع اللحن ، ويمكن أن يلتمس
لصحتها سبيل التجوز ، ولا ضير في هذا ، ولكن ذلك لم يمنع نسبة اللحن
إلى قائلها ، مما يدل على مبلغ تشدد القدماء في الاستعمال المأثور ، وهو
يشبه ما يسمى عند الفرنسيين بالمعنى الخاطيء . *fanse sens*

والآن بعد الكلام عن أنواع اللحن ، وذكر بعض الأمثلة لكل نوع
نتناول ببحثنا موضوع اللحن نفسه : ما هو ؟ ما مظاهره ؟ ما تاريخ
وجوده في اللغة العربية ؟ وأخيراً ما هو خطره ؟

يعرف اللغويون اللحن بجملة معان ويذهبون في فهمه إلى مذاهب شتى
فيذكرون من معانيه التجويد في القول والغناء فيه كما يذكرون أيضاً بأن
معناه الخطأ في القراءة ، ثم ينتقلون إلى واد آخر فيقولون إن معناه اللغة
نفسها ، كما يقولون كذلك إن معناه الفطنة والفهم ، وحول هذه المعاني
تدور أكثر آراء اللغويين في القاموس ولسان العرب عند شرح هذه المادة .

(١) أنظر ياقوت : ارشاد > ٢ ص ٣٧٢ ، ومعجم البلدان له

أيضاً > ٤ : ٣٣٥

(٢) أنظر البخاري : فضائل المدينة ، وانظر كنز العمال > ٧ ص ١٥٣

ويظهر أن الأصل فيها هو الميل بمعناه العام وعن هذا الأصل تفرعت
المعاني الأخرى فحين يلحن المغنى يكون قد مال عن الطريقة المتبعة في الكلام
إلى طريقة أخرى يطرب بها السامعين ، وحين يخطئ المتحدث في حديثه
يكون قد مال عن طريق الصواب في قوله ، وحين يتحدث المرء بلغة
قوم آخرين أو بلهجة قبيلة أخرى يكون قد مال عن لغته هو إلى لغة هؤلاء
أو أولئك ليشرح بها أفكاره ومعانيه ، وحين يحاول المتكلم أن يشرح
معنى عنده ويفهمه الآخرين يكون قد مال إلى هذا النحو من القول ،
وكذلك حين يريد أن يعرض بمعنى في نفسه بحيث لا يفهمه كل السامعين
ولما يدركه بعضهم فقط يكون كذلك قد مال عن طريقة القول الواضح
للجميع إلى طريقة أخرى فيها تعمية وغموض مقصودان .

وينقل صاحب اللسان عن ابن برى كما ينقل عن غيره أن اللحن يشتمل
على المعاني الستة الآتية وهي : أولاً - الخطأ في الإعراب ، ثانياً : اللغة ،
ثالثاً : الغناء ، رابعاً : الفطنة ، خامساً : التعريض ، سادساً : المعنى .
ثم يذكر لكل واحد من هذه المعاني مثالا أو أكثر كشاهد على
ما يقول . فمن المعنى الأول وهو الخطأ في الإعراب قول مالك بن أسماء
بن خارجة الفزاري :

منطق صائب وتلحن أحيا * نا وخير الحديث ما كان لحنا
ومن المعنى الثاني ، وهو اللغة ، قول عمر : (تعلوها الفرائض والسنة
واللحن .) بالتحريك أى اللغة .

ومن المعنى الثالث ، وهو الغناء والتجويد وترجيع الصوت ، قول يزيد
ابن النعمان :

لقد تركت فؤادك مستجنا * مطوقة على فنين تغنى
يميل بها وتركبه بلحن * إذا ما عن المحزون أنا
فلا يحزنك أيام تولى * تذكرها ولا طير أرنا
ومن المعنى الرابع وهو اللحن بمعنى الفطنة قول الرسول صلى الله عليه
وسلم « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض -
أى أفطن لها وأجدل - فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فإنما أقطع له
قطعة من النار . »

ومن المعنى الخامس وهو اللحن بمعنى التعريض والایماء ، قول القتال
الكلابى :

ولقد لُحنتُ لکم لکما تفهموا * وَوَحِيتُ وَحياً ليس بالمرتاب
ومن المعنى السادس وهو المعنى ، قوله تعالى « ولتعرفنهم فى لحن
القول . » أى فخواه ومعناه .

والذى يهمنا من كل هذه التفاصيل هو اللحن بمعنى الخطأ ؛ واللغويون
بالرغم من هذا البيان وذلك الشرح لا يقدمون لنا مثالا نستطيع أن نفهم
منه معنى الخطأ المقصود ؛ وكل ما نعثر عليه من توضيح فى هذا عندهم هو
قولهم « الخطأ فى الإعراب » غير أن ذلك أيضاً لا يزال فى شىء من

الغموض ، وفي حاجة إلى البيان ، لأننا سنرى بعد قليل أن الرواة في الأدب
ورجال النحو كانوا يعممون معنى اللحن فلا يخصونه فقط بلحن الإعراب .

وما هي ذى أمثلة من رواياتهم توضح لنا وجهة نظرهم ومبلغ فهمهم
لمعنى اللحن : يروى ابن الأنباري في كتابه « الأضداد » : أن عمر ابن
الخطاب رضى الله عنه مر بقوم يمارسون الرماية فساء منهم سوء رميهم
فقال : ما أسوأ رميكم . فقالوا : نحن قوم متعلمين . فقال عمر : لحنكم
أشد عليّ من فساد رميكم .

وروى أيضاً أن كاتباً لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب
عن لسان أبي موسى يقول : « من أبو موسى » وحينما وقف عمر
على هذا الخطاب ساءه ما رآه فيه من لحن ، فكتب إلى أبي موسى يطلب
منه أن يضرب كاتبه سوطاً على هذا اللحن .

ويروى لنا أبو هلال العسكري في مقدمة كتابه « المعجم في بقية الأشياء »^(١)
ما يأتي : سمعت سعيد بن أوُس يقول : لقيت أبا حنيفة خذني بحديث
فيه : « يدخل الجنة قوم حفاة عراة منتنين قد محشتهم النار » فقلت له :
قوم منتنون قد محشتهم النار ؛ فقال لي : ممن أنت ؟ قلت : من أهل
البصرة ؛ قال : كل أصحابك مثلك ؟ قلت : فإني من أدونهم ؛ فقال :

(١) أنظر ص ٢٩

طوبى لقوم أنت أدونهم ! ^(١)

ويروى أيضاً أن أبا عمرو بن العلاء المقرئ النحوى كان يتتبع الحسن
أبى حنيفة ، صاحب المذهب الفقهى المشهور ، ويستقبحه ثم لا يتخرج من
إبداء نصحه إلى هذا الإمام بأن يتعلم العربية ويحيد النحو ^(٢)

من ذلك ما يروى أنه سأل أبا حنيفة مرة عن القتل بالمثل وهو القتل
بغير آلة حادة - هل يوجب القود لم لا ؟ فقال ابو حنيفة : لا ؛ فقال
له ابو عمرو : ولو قتله بحجر المنجنيق ؟ فقال : ولو قتله بأبا قبيس -
اى الجبل المطل على مكة .

ويروى ابو هلال العسكري ايضاً ^(٣) : وحدثنا عن الصولى عن ابى
حنيفة محمد بن الحباب قال : دخل ابو عمرو بن العلاء دار الزبير ، وهى
دار الدقيق بالبصرة ، فقرأ على اعدال الدقيق - اى غراراته : « كتابا

^(١) يلاحظ أن أبا هلال قد تحامل على أبى حنيفة بسبب ضعفه
فى العربية ، ولكن العجيب أنه نفسه فى نفس الكتاب يستشهد برأى
أبى حنيفة فى اللغة حيث يقول ص ٣٧ : « (الخصاصه) ما يبقى فى الكرم
بعد قطافه : العنقيد الصغير ها هنا وآخر ها هنا ، والجمع الخصاص بضم الخاء .
وقال أبو حنيفة : هى الخصاصه ، والجمع خصاص ، وكلاهما بالفتح ،

^(٢) أنظر : المعجم فى بقية الأشياء لأبى هلال العسكري ص ٣٩ - ٤٠
« البيان والتبيين للجاحظ - ٢ ص ٢ س ١٧

لا أبو فلان . ، فقال : العجب ، يلحنون فيربحون .
 وما نحن بسبيله ايضاً ما روى عن الوليد بن عبد الملك بن مروان ،
 وكان معروفاً بكثرة اللحن ، من انه خطب الناس في يوم عيد فقرأ في خطبته
 هذه الآية القرآنية « يا ليتها كانت القاضية » بضم التاء في ليتها بدل فتحها ؛
 وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً فقال : عليك واراخنا منك .^(٢)
 ويروى كذلك ان الفرزدق كان ينأى بلغته ويجانب طريقتها المعروف
 فيلحن ؛ وكان عبد الله بن يزيد الحضرمي البصري مهتماً باعتراضه ونسبته
 إلى اللحن ؛ ولما عرف ذلك الفرزدق عنه هجاه بهذا البيت :
 فلو كان عبد الله مولى هجوته * ولكن عبد الله مولى موالياً
 فقال له الحضرمي : لخت ... ينبغي ان تقول : مولى موال .
 وقد نسب ايضاً هذا البيت إلى الفرزدق :
 وعرض زمان يا ابن مروان لم يدع * من المال إلا مسحاً أو مجلف

الشاهد في رفع مجلف

وبهذه المناسبة يقول ابن قتيبة : وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة ،
 فقالوا وأكثروا ولم يأتوا بشيء يرتضى ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر
 أن كل ما أتوا به احتيال وتمويه ، وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه

^(٢) انظر : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٤٦ للأستاذ مصطفى

صادق الرافي .

هذا البيت فثتمه وقال : على أن أقول وعليكم أن تحتجوا...^(١)

وها هو ذا نص كتاب ينقله لنا ابن رشيق عن بعض كتاب القسيروان وقد بعث به إلى صاحبه . ومن هذا الكتاب يتبين لنا نوع اللحن ، وهو الذى يهمننا بصفة أساسيه فيه : « يا أخى ومن ذا عدمت فقدته ... أعلنى ابو سعيد كلاما انك كنت ذكرت انك تكون مع الذين تأتى ... وعاقنا اليوم فلم يتهياً لنا الخروج . وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحداً وكتابى إليك وانا مشتاق إليك إن شاء الله . »

ويعيننا ملاحظة الفعل « تأتى » بعد « الذين » ، « حرفا واحداً » بعد « ليس من هذا »^(٢)

^(١) إن هذه الصورة التى ينقلها إلينا ابن قتيبة عن موقف النحاة من بيت الفرزدق ومحاولتهم إيجاد علة لهذا الرفع فى كلمة « مجلف » والتماس حيلة لتسويته يذكرنا تماما بالصورة التى نأخذها عنهم حينما يجدون نصاً عربياً قديماً يخالف قواعدهم النحويه فيتأسرون له التعليل غير مقدرين أن يكون ذلك لحناً أو أنه من آثار اللغة قديماً أو متمشياً مع لهجة قبيلة من قبائل العرب التى لم تتفق مع قريش فى لهجتها . وقد رأينا موقف المبرد منهم فيما مضى ، ص ٩٠ من هذا الكتاب

^(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٢٧٠

ويذكر الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي في كتابه
« إنباه الرواة على أنباء النجاة » أمثلة عدة من اللحن نقبس هنا بعضها .

يقول القفطي ^(١) : ثم إن زياداً -- وكان والياً على العراق -- سمع
بشيء مما عند أبي الأسود -- يريد بذلك ما وضعه من النحو -- وراى
اللحن قد فشا ، فقال لأبي الأسود : اظهر ما عندك ليكون للناس إماماً .
فامتنع من ذلك ، وسأله الإغفاء ، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ :
« ان الله برىء من المشركين ورسوله . » بكسر اللام ، فقال :

ما ظننت امر الناس آل إلى هذا .

ثم يقول القفطي بعد ذلك ^(٢) : وقد قيل : « إن الذى رآه أبو الأسود
ونكره ، أنه مر به سعد - وكان رجلاً فارسياً من أهل نوبندجان -
كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فادعوا لقدامه بن مظعون أنهم أسلموا
على يديه ، فأمنهم بذلك من مواليه .

ولما مر سعد بأبي الأسود - وكان يقود فرساً له - قال له أبو الأسود :

مالك لا تركبه يا سعد ؟ قال : « إن فرسى ظالم ، وأراد أن

يقول « ظالع »

(١) إنباه الرواة على أنباء النجاة للقفطي ج ١ ص ٦

(٢) إنباه الرواة على أنباء النجاة للقفطي ج ١ ص ١٥

ويروى القفطى كذلك أن قوماً جاءوا إلى زياد ، فقالوا : أصلح الله الأمير ، توفي أبانا وترك بنون . فقال زياد : توفي أبانا وترك بنون ! ادع لي أبا الأسود . فقال : ضع للناس العربية .^(١) ونضيف إلى ما تقدم هذه الأمثلة الأخرى من اللحن ، وسيتبين لنا منها أنها من نوع آخر منه . من ذلك ما وجد في بعض رقاع مكتوبة قد وجدت في عدد من قرى مصر منها ما يرجع تاريخ كتابتها إلى سنة ١٢٧ هـ . ومنها ما يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٢ هـ ، سنة ٢٥٠ هـ ، سنة ٢٧٩ هـ ، سنة ٢٩٥ هـ وقد تكلم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى عن هذه الرسائل ، وحاول أن يبين ما تشتمل عليه من لحن ، ثم نقل نص رسالة منها .^(٢) ويعيننا من كل ما كتبه الأستاذ خاصاً بهذه الرقاع هو نوع اللحن الذى استخرجه من بعضها ، وأشار إليه ، وهو استعمال كلمة (دنير) بدل (دنانير) . ومن هذا النوع أيضاً ما ذكره الجاحظ من أن أول لحن سمع بالبادية هو « هذه عصاتي » بدل « هذه عصاى » .

ومن ذلك أيضاً ما يروى من أن الحسن البصرى قال لبعض جلسائه يوماً توضيت ، فقليل له أتلحن يا أبا سعيد فقال إنها لغة هذيل . ويراد من هذا أنه قال (توضيت) بدل (توضأت) . ويهمننا من ذلك اعتبارهم

(١) - أنباه الرواة على أنباه النحاه للقفطى ج ١ ص ١٥

(٢) - تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(توضيت) لحناً على فرض أن هذيل لا تنطق بها كذلك .

وربما يلاحظ القارئ أننا أطلنا في هذا الموضوع واستطردنا فيه ثم أكثرنا من ذكر الأمثلة ، والواقع أننا قصدنا إلى هذا الاستطراد قصداً وأردنا من الاكثار في هذه الأمثلة أن نقدم صورة واضحة عن اللحن في ازمنة مختلفة وعن وجهة نظر الرواة ورجال النحو بالنسبة لهذا اللحن وكيف كانوا يفهمونه في الكلام .

واستعراضنا لهذه الأمثلة يهديننا إلى ملاحظة نوعين مهمين من اللحن ^(١) النوع الأول : هو ما كان خاصاً بعلامات الاعراب ، وهو ما يشمل القسم الأكبر من هذه الأمثلة « كمتعلين » بدل « متعلون » « منتنين » بدل « منتنون » و « أبو موسى » بدل « أبي موسى » ... الخ .

النوع الثاني : هو ما كان خاصاً ببنية الكلمة ولا يمس علامة الاعراب في شيء : وهو القسم الأخير من هذه الأمثلة ، وذلك مثل « دننير » بدل « دنانير » و « توضيت » بدل « توضأت » و « عصاتي بدل « عصاي » . أما اللسنة الطبيعية في النطق فلا نرى وجهاً لاعتبارها لحناً يخشى منه على اللغة حتى تكون نتيجة التفكير في وضع ضوابط تحفظ اللغة ، وتقي الناطقين بها من الوقوع في أمثالها ؛ وأما اللحن الخاص ببنية الكلمة ،

(١) - انظر صفحة ١٦٥ من هذا الكتاب

وكذلك اللحن الخاص بوزنها فقد رأينا جميعها في نوع واحد ، وذلك من حيث الخطورة في كل منها .

أخطر أنواع اللحن :- إن في اطلاعنا على كتب الرواة المختلفة وفي بحثنا عن هذه الأمثلة لم نجد واحداً من أصحاب هذه الكتب ولا واحداً من أصحاب هذه الروايات قد حاول إن يتلبس فرقاً بين هذين النوعين من اللحن أو يبين خطورة أحدهما على الآخر ، وكأن اللحن كله في نظرهم جميعاً سواء .

فالمبرد حين يورد أمثلة من اللحن لا يحاول التفرقة فيما بينها سواء أكان اللحن خاصاً بعلامات الإعراب ، أم ببذية الكلمة وإنما يقتفي بتسمية الكل لحناً في اللغة ، وكذلك أبو هلال العسكري ، الذي ذكرنا له بعض الأمثلة من اللحن ، لا يفرق بين نوع ونوع آخر منه ، وليكننا حين ننتقل إلى ميدان آخر من ميادين العلماء ، ونعني به ميدان القراء الذين يحرصون على قراءة القرآن ووضع ضوابط لها ، ودراسة هذه القواعد ثم إلقاء القرآن للآخرين ، نقول إننا لو انتقلنا إلى ميدان هذه الطائفة من العلماء لوجدنا معنى اللحن يتضح قليلاً ؛ إذ أنه يتجه أولاً إلى التغيير الذي يصيب علامات الإعراب ، كما أن كلمة خطأ أو غلطة تأخذ لها وجهة أخرى فتطلق على تغيير كلمة بكلمة أخرى أو تقديم كلمة من الجملة كان محلها التأخير أو تأخير كلمة كان محلها التقديم ، فمثلاً لو قرئت الآية « إن الله يرى من

من المشركين ورسوله « بالجر في الرسول بدل الرفع ، لاعتبر ذلك لحناً ، وكذلك لو قرئ « أحب » في قوله تعالى « قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله . » بالرفع بدل النصب لكان ذلك لحناً . وكذلك لو قرئت الآية « إنما يخشى الله من عباده العلماء » برفع الله ونصب العلماء لكان ذلك لحناً عند من لا يجيز هذه القراءة ، وكذلك التغيير الذي يحدث في حركات الإعراب في قوله تعالى « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » .

أما الخطأ أو الغلط فهو ما يمكن أن نلاحظ إذا قرأ قارئ (يلبسون الباطل بالحق » بدل يلبسون الحق بالباطل » أو « فخر عليهم السقف من تحتهم » بدل « فخر عليهم السقف من فوقهم » ، وهكذا كل تغيير في الكلمة أو في الجملة لا يترتب عليه تغيير أو فساد في علامات الإعراب .

وقد ترتب على هذا الاختلاف في النوع عند هؤلاء العلماء اختلاف في تقدير المسؤولية فكان اللحن عندهم أشد من الغلط ، ولازلنا حتى اليوم نلمس هذا الفرق عند من يحفظون القرآن في « السكتاتيب » أو يشرفون على تجويده في المعاهد الدينية والمساجد ، ويبدو أن هذا النوع من الفهم ومن تقدير الخطورة في بعض اللحن دون بعضه الآخر هو ما يتمشى مع طبيعة اللغة العربية ويتفق وعقلية أصحاب هذه اللغة حينما يعسريها شيء من التحريف ،

فإن اللحن الذي فزع له عمر بن الخطاب واستشار منه كان لحناً في علامات الإعراب ، واللحن الذي لفت نظر الولاة من العرب والمشرفين على اللغة العربية وأيقظ أبا الأسود لكي يبدأ في وضع ضوابط تحفظ بها نصوص القرآن كانت كذلك لحناً في علامات الإعراب كما تجمع على ذلك غالبية الروايات . وبالرغم من أن الرواة لم يبينوا لنا نوع اللحن الذي حدث في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم فغضب له وأمر أصحابه بإرشاد صاحبه ، نقول بالرغم من أننا لم نقف على نوع هذا اللحن فإننا نظن بل نرجح أنه كان لحناً في علامات الإعراب لا في شيء آخر ١٢٠

ويشبه هذا تماماً ما لمسناه أثناء دراساتنا للغات القديمة المعربة من لانية ويونانية ، فالمشرفون على تدريس هاتين اللغتين قد فرقوا بين أنواع الأخطاء ووضعوا لكل نوع اصطلاحاً خاصاً وقدروا مكانته من الخطورة ، وأشد هذه الأنواع عندهم ما كان متناولاً لعلامات الإعراب ، ولذا فقد سموه *contre sens* ، ونستطيع أن نقابله في العربية بكلمة اللحن ، وفق ما بيناه منذ قليل ، ثم يأتي عندهم في الدرجة التالية من الخطر ما اصطاحوا على تسميته *faux sens* ومعناه المعنى الخاطئ ، ويشمل هذا النوع وضع كلمة مكان كلمة أخرى أو حذف حرف من بنية الكلمة أو زيادة حرف عليها أو ما شاكل ذلك ، مما لا يترتب عليه تغيير في علامات الإعراب . ولقد بالغ المشرفون على هاتين اللغتين فأدخلوا المسألة في تقديرات حسابية فقدروا اللحنة بثلاثة أخطاء . وما لمسناه في دراسة هاتين اللغتين من حيث الأخطاء وتقديرها أعاد إلى ذاكرتنا صورة ما رأيناه يوم كنا

نحفظ القرآن عند الفقيه أو العريف ، إذا كان يحاسبنا على الغلطة بعضى
وعلى اللحنة بثلاث .

بما تقدم يتضح أن الرواة وعلماء اللغة ورجال النحو لم يكونوا يفرقون
بين لفظ لحن ، وغلط ، وخطأ . وقد تبين لنا من استعمالهم ومن أمثلتهم
أنهم كانوا يستعملون الواحد من هذه الأسماء مكان الآخرين ، ولم تكن
لديهم الدقة التى لاحظناها عند القراء فى دائرتهم الضيقة ، وحتى النحاة حينما
كانوا يتحدثون القراء ويناقشونهم فى قراءاتهم وآرائهم كانوا يطلقون عليهم هذه
الألفاظ الثلاثة ، وكأنها مترادفة ، دون تمييز فى المعنى ، ولا ملاحظة فى
التفرقة بين أنواع الأخطاء .

وما علينا إلا أن نطلع على كتاب سيبويه أو على مخطوط القراء - معانى
القرآن - لئلا نرى تبرير ما ذهبنا إليه ، وفوق ذلك فقد جمع لنا الأستاذ
عبد الوهاب حموده فى كتابه - القراءات واللهجات - أمثلة عدة من هذه
الأخطاء التى نسبها النحاة إلى القراء ومع ذلك لم يتحرروا فيها الدقة من
ناحية التسمية أو التفرقة بين الخطأ والغلط واللحن . ومع ذلك فقد حاولنا
أثناء هذا العرض أن نفرق بين هذه الأنواع ، ونحدد على وجه التقريب
ميدان استعمال هذه الألفاظ ، ثم خلطورة بعضها على البعض الآخر ، معتمدين
فى ذلك أولاً على الاستقراء والفهم ، ثم على الاستنتاج .

ونعود بعد هذا إلى الكلام عن تاريخ اللحن ، وقد وضح فيه رأينا مما
ذكرناه قبلاً ، وهو أنه لا سبيل إلى تأريخ هذه الظاهرة فى اللغة تأريخاً
عليماً وإذن فليس من السهل أن نقبل ما قاله بعض القدماء فى هذا وتبعهم

فيه بعض المحدثين من أن أول لحن ظهر في البادية هو « عصاتي » بدل
« عصاي » ، وأول لحن سمع بالعراق هو « حي على الفلاح » بالكسر بدل « حي » ،
بالفتح .

إذ أن هذا الرأي يحمل فساداً في طياته ، ونظن أن أبسط العقول لا
يستطيع أن يتصور صحته .

وربما يلاحظ القارئ تناقضاً بين موقفنا هنا وموقفنا عند ما أشرنا إلى
نشأة النحو العربي في اللغة العربية ، والواقع أن الموقفين متغايران تماماً ،
فتأريخ النحو غير تأريخ اللحن ، إذ النحو ظاهرة اجتماعية لا تنشأ إلا إذا
توفرت لها أسباب وبذل في سبيلها مجهود كبير وتعاون عليها في أغلب
الاحيان عدد من المفكرين ، وهذا هو ما نلاحظه في نشأة العلوم أياً كان
نوعها وفي أي زمان أو مكان كان نشوؤها .

أما اللحن فهو ظاهرة فردية تحدث طوعاً دون يقظة من صاحبها ولا
رقابة من المجتمع ؛ وإذن فلا سبيل إلى تأريخ نشأتها ولا إلى معرفة أوليتها في
المجتمع بله عند الشخص نفسه . وهنا نوضح ما أشرنا إليه أكثر من مرة
فيما مضى وهو أنه في غير ما يمس عقائدنا ينبغي أن نتردد بعض الشيء في
هذه الآراء الحاسمة التي نطالعها في كتب القدماء ؛ كما ينبغي أن لانفسي أمامها
أنفسنا أو نهمل عقولنا ؛ فلم تكن العصمة من مستلزماتهم كما لم تكتب علينا
التبعية لهم دائماً في كل ما رأوه ، وإلا لما تقدمت الإنسانية ولا رقي العقل

اللحن كما ذكرنا ظاهرة فردية في نشأته غير أنه حين يتفشى نسبياً ويجرى على بعض الألسنة في الطبقة المثقفة من الأمة أو أمام هذه الطبقة يمكن أن يستلفت النظر ، وحينئذ يلاحظه المجتمع ويستطيع أن يصدى رأيه فيه ، وصدى ذلك في هذه المرحلة فقط هو الذى يمكن أن يصل إلى الأجيال اللاحقة عن طريق الكتابة أو عن طريق الرواية ، وعلى هذا الاعتبار يمكننا أن نتصور حالة اللحن في اللغة العربية وتاريخ معرفتنا به لا تاريخ نشأته في البيئة العربية . وإذن فستطيع أن نفترض ونحن مطمئنون إلى هذا الافتراض أن اللحن وجد في اللغة العربية قبل الاسلام ، ليس فقط في مدن الثغور أو في القبائل التى كانت تعيش في أطراف شبه الجزيرة وفي جوار الأخطاط من الأمم الأخرى ، ولكن في بيئة الحجاز أيضاً وهى أنقى البيئات وأصفها لغة وأسلوباً ، وهناك أسباب عدة تحملنا على صحة هذا الافتراض قد أشرنا إلى بعضها فيما مضى حينما كنا نتكلم على أثر التجارة المتبادلة بين الأجانب والعرب وما استلزمة ذلك من إقامة الأسواق لهذا التبادل ، ثم من بقاء بعض الأجانب في جوار العرب إما للكسب وإما لخدمة السادة من العرب الذين اشتروهم بالمال واتخذوهم عبيداً وإماء ، وفى الحق أن هؤلاء الأجانب من الفرس ومن الروم ومن الزنوج بوجه خاص ، كانوا يـكـونون ما يشبه الطبقة الدنيا في المجتمع العربى ، وهم وإن كانوا

من القلة بحيث لا يؤثرون في طابع اللغة بوجه عام إلا أننا لا نستطيع أن
نتصور وجودهم في هذه البيئة العربية دون أن يصدر عنهم لحن . وإذا
كنا فيما مضى قد ضربنا لذلك بعض الأمثلة كأم عنترة بن شداد ، وسليمان
الفارسي وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي فإن هؤلاء أمثالا ومثيلات ،
فصاحب النقائص ^(١) بين جرير والفرزدق يحدثنا عن أفراد في الجاهلية
آباؤهم من العرب وأمهاتهم من زنوج إفريقيه ويطلق عليهم أغربة العرب .

ومن تلك الأساليب أيضاً التي تقوى لدينا صحة هذا الافتراض ما نجده
لحسن الحظ من شواهد مبشرة هنا وهناك في كتب القدماء تصور لنا
طريقة النطق عند هؤلاء الأجانب الدخلاء على العرب .

من ذلك ما يرويه الجاحظ في البيان والتبيين ^(٢) من أن صهيياً الرومي
كان يستعمل لكنة واضحة في لسانه ، فكان يقول : « إنك لهائن »
وهو يريد « إنك لخائن » ، وهذا ما يلاحظ في النطق الرومي من تعذر
النطق بالخاء . ومن ذلك أيضاً ما يرويه الجاحظ عن شخصية أخرى عاصرت
الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونعني بتلك الشخصية سُحَيْمُ المعروف بعبد
بني الحسحاس ، يروي الجاحظ أن سحيماً هذا كان يقول : (سمعت)

(١) نقائص جرير والفرزدق ص ٣٧٢

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٢

بدلاً من (شعرت) ^(١)

ويروى صاحب الأغاني ^(٢) أنه كان يستبدل في نطقه الحاء بالهاء ، فيقول مثلاً : (أهسنت) بدل (أحسنت) . ويقول ابن قتيبة عن سحيم أيضاً أنه كان ينطق بالكاف بدل تاء المخاطب فيقول مثلاً : (أ حسنك) بدل (أحسنت) . وهذه هي طريقة النطق في اللغة الحبشية بالنسبة للضمير المتصل المفرد كما حققها الأستاذ د. يوهان فوك ^(٣)

وإذا كان هذا هو بعض ما عرف عن لكنة صهيب وسحيم وشهرتهما في المجتمع العربي أيام الإسلام الأولى لم تكن بسيطة ، فما بال أمثالها الذين عاشوا مغموطين لا يكاد يحس بهم ولا يعرف عنهم شيء ؟ إنه من العسير أن نتصور ، كما تصور بعض المؤلفين ، سلامة لسان هؤلاء الأجانب طول حياتهم في البيئات العربية ، وبالتالي أن نتصور خلو اللغة من اللحن قبل الإسلام .

ثم إن القرآن نفسه ينقل إلينا في أسلوبه البليغ صورة لما كان بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل مكة من جدل بشأن الرسالة والوحي ومن

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣٢

(٢) الأغاني ج ٢ ص ٢٠

(٣) العربية — دراسات في اللغة واللهجات والأساليب — ترجمة الدكتور

عبد الحلیم النجار ص ١٣

هذه الصورة يقين لنا ضمناً أن مكة كانت بها أعاجم لا يتكلمون العربية بإفصاح أو على الأقل كما يتكلم بها أهل مكة من العرب الخالص ، وأن هؤلاء الأعاجم المثقفين كانوا يتحدثون بها مع الرسول فكان أهل الشرك من المكيين يدعون أن الرسول يأخذ عنهم من الأخبار ما يأتيه به الوحي من عند الله ، من ذلك آية النحل ^(١) وقد نزلت في الطور المسكى الثالث «... لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين. ، ولكى تفهم هذه الآية حقيقة ، ويفهم منها الرد المفحم على هؤلاء المشركين ينبغى أن يقابل اللسان العربى المبين بالضرورة لساناً أعجمياً أو لساناً عربياً غير واضح وماذا بقى إذن بعد هذا لإثبات اللحن فى مكة قبل أن تستقر دعائم الإسلام؟ اللحن إذن وجد فى اللغة العربية قبل الإسلام وإن لم يكن من طبيعة العرب الخالص أن يرتكبه فإنه بقى محصوراً فيما بين هذه الطبقة الضعيفة من المجتمع ، ولكن حينما تأخذ الدعوة الإسلامية فى الامتداد ، ويصل صداها إلى غير العرب من الشعوب الأخرى فيدخل فى الأسرة العربية أفراد آخرون ويقبل على التحدث بالعربية أصحاب السنة أخرى يدخل اللحن فى مرحلة جديدة فيسمع فى مجالس الرسول ويقال أمام الخلفاء الراشدين من بعده ، ولكن يصاحبه فى هذه المرحلة اهتمام بالغ من الناحية الأخرى بشأن اللغة الفصحى والحرص على صفائها ونقاؤها . فنجد الرسول يغضب

(١) آية ١٠٣ سورة النحل

وعمر بن الخطاب يثور حينما يسمعان هذا اللحن ، غير أن هذا الغضب
وتلك الثورة لا يمنعان ظاهرة اللحن من الفشو والانتشار ، فتتسع رقعة
الدولة الإسلامية ويفتظم في سلك الجندية شباب القبائل العربية على اختلاف
لهجاتها وتنوع بيئاتها ، وتقام لهم المعسكرات في مواطن فارسية ورومية ،
ويتخذ هؤلاء وأولئك لأنفسهم عبيداً وإماء لا يحصى لهم عدد ولا يستقيم
لهم في العربية لسان . ولم يقف أمر اللحن على هؤلاء الأجانب الذين
اضطرتهم ظروف الحياة وضرورات الفتح أن يسدجوا في الدولة العربية ،
ولكنه تعداهم بحكم العدوى إلى العرب أنفسهم بل وإلى من ينبغى لهم أن
يشرفوا على أمر اللغة العربية ، فنجد عبيد الله بن زياد ابن أبيه الذي تولى
الأمور في العراق يعرف باللحن ويصل الخبر في ذلك إلى معاوية فيرسل إلى
إلى زياد يأمره بأن يصلح لسان ابنه ، ولحن عبيد الله ^(١) هذا وإن لم

^(١) يعزى لحن عبيد الله بن زياد إلى أنه نشأ في حجر أمه الفارسية
ولهذا فقد كان لحنه في العربية من جنس اللحن الذي عرف عن الأجانب
أمثال صهيب ، وبلال ؛ فكان ينطق بالهاء بدل الحاء وبالهمز بدل العين
كما يقرر ذلك الجاحظ في كتابه - البيان والتبيين ج ١ ص ٣٢ - ؛ ونجد
لديه أيضاً نوعاً من الاستعمال اللغوي لا يوجد إلا عند من يلم بلغة أجنبية
ومنشأ ذلك هو الترجمة لمعنى في نفس المتكلم لا تسعفه اللغة التي ينطق بها
على التعبير به ؛ وذلك مثل ما روى عنه أنه أمر الجنود في يوم من الأيام =

يكن عظيم الخطر إلا أنه يدلنا على مبلغ تسرب هذه الأخطاء اللغوية إلى
الأوساط العربية العليا .

ونجد الوليد بن عبد الملك ^(١) يرتكب من اللحن أنواعا عدة وتروى

== فقال لهم : (افتحوا سيوفكم) وهو يريد من ذلك قول العرب (سلوا
سيوفكم) وقد لمسنا هذه المسألة بأنفسنا حينما كنا مبتدئين في تعليم
اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية ، واللاتينية أيضاً ؛ فكثيراً ما كنا
ناجياً إلى ترجمة ما يدور في خواطرنا من المعاني بألفاظ أجنبية لا تستعمل
في ذلك المعنى وكثيراً ما كان هذا يشير الضحك ممن يسمعوننا . ولعل
هذا هو السبب الذي من أجله كان معاوية بن أبي سفيان يستظرف لحن
عبيد الله ويجد فيه تورية لطيفة كما يحدثنا بذلك القمالي في كتابه الأمالى
ج ١ ص ٥

^(١) ويعزى لحن الوليد بن عبد الملك إلى إهمال والده تربيته تربية
عربية ؛ فقد روى عن عبد الملك بن مروان أنه قال : « أضر بالوليد
حبنا له فلم نوجهه إلى البادية » ؛ وينقل لنا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
في كتابه - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٤٦ - أنه قيل للوليد يوماً :
« إن العرب لا تحب أن يتولى عليها إلا من يحسن كلامها ، فجمع أهل
النحو ودخل بيتاً ليتعلم فيه فأقام ستة أشهر ثم خرج أجهل من يوم دخل ،
وقد أكثر الرواة من ذكر أخطائه في العربية : من ذلك قدامه في كتابه
- نقد النثر ص ١٢٣ والمبرد في كتابه - الكامل ص ١٩٠ - .

عنه في ذلك الروايات، اللاذعة وحتى بعد توليه الخلافه يترك للسانه الحرية
فينزلق إلى الأخطاء في القرآن على مسمع من جمهور المسلمين .

ثم إذا انتقلنا إلى ميدان الطبقة المثقفة التي أخذت على نفسها التبحر في
الأبحاث العلمية والتدوين في النواحي الثقافية الإسلامية وجدنا نفس هذه
الأخطاء أو قريباً منها ، وقد رأينا صورة من ذلك عند أبي حنيفة ، ثم
هاهو ذا الفقيه العالم الإمام مالك بن أنس لا يتحرج من ارتكاب بعض
الأخطاء العربية حتى إن الأصمعي ليدعش من صدور هذه الأخطاء عنه
ومكانته في العلم لا تكاد تجارى ، فقد روى عنه أنه قال : « أى مطراً ،
بدل « أى مطر » ، وحينما عيب عليه ذلك أخذ يتلمس لنفسه الأعذار فطوراً
يهون من شأن اللحن مقتدياً في ذلك بأستاذه ربيعة بن عبد الرحمن ، فقيه
أهل المدينة ، المشهور بربيعة الرأي الذي كان يلحن في الإعراب أيضاً ،
إذ كان يقول : « بخيراً ، بدل « بخير » ، وطوراً يظهر بمظهر العالم الزاهد
الذي يرغب عن هذه العلوم الدنيوية ويولى وجهه شطر الحقيقة التي يبحث
عنها المتصوف .

* * * * *

وهناك ميدان على آخر هو أولى الميادين الثقافية بالمحافظة على الفصحى ،
ورعاية سلامة الإعراب ؛ ذلك هو ميدان القراءات . ومع هذا فلم يسلم أيضاً
هذا الميدان من اللحن .

وها نحن أولاء نورد بعض الأمثلة من لحن القراء جرياً على طريقةتنا
في هذا الموضوع دون مناقشة . إذ أن غرضنا في هذه النقطة فقط هو ترسم
اللحن في انتشاره وفي موضوعات البحث العلمية ، سواء أكان ذلك اللحن
معتبراً من الأخطاء اللغوية في نظر العلماء جميعاً ، أم هو خطأ في نظر
البعض دون البعض الآخر .

أما مناقشتنا لهذه الآراء وخصوصاً ما ادعاه النحاة من لحن القراء
فسيكون لها مكان آخر ، وذلك عندما نتكلم عن النحاة ومنهجهم في
البحث وموقفهم من القواعد النحوية التي وضعوها عن طريق القياس
أو الاستنباط . ومن لحن القراء في نظر النحاة ما صنعه حمزة في قراءته
للآية الأولى من سورة النساء ... واتقوا الله الذي تساءلون به
والأرحام ، إذ قرأ بجر الأرحام على أنه معطوف على الضمير المجرور
قبله ، لا بالنصب عطفاً على « الله » .

ولكم ما يذكره بهذه المناسبة أبو شامة في شرح الشاطبية ^(١) قرأ
حمزة « والأرحام » بالجر . قال الزجاج : القراءة الجيدة نصب « الأرحام »
فأما الخفض خطأ في العربية ؛ فإن إجماع النحويين أنه يقبح أن يعطف
باسم ظاهر على اسم مضمير في حال الخفض إلا بإظهار الخافض . وكذلك
نجد الزجاج في موقف آخر يتهم القراء باللحن في كتاب الله ، وذلك في الآية

(١) « إبراز المعاني ص ٢٨٣ (حموده ص ١٣٠) »

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك » (١) . //

وهنا نجد القراء قد اختلفوا في النطق بالهاء من قوله تعالى : « يؤده » فالجمهور يقرؤها بالكسر مع وصلها بياء ، وقالون يقرؤها باختلاس الحركة ، وأما أبو عمرو وأبو بكر وحزمه والأعشى فإنهم يسكنون الهاء . فيقول أبو اسحق الزجاج في هذا ما نصه (٢) « وهذا الاسكان الذي روى عن هؤلاء غلط ، لأن الهاء لا ينبغي أن تجزم ؛ وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تسكن في الوصل » . //

وكذلك نجد خلافا بين القراء في قراءة (معايش) في قوله تعالى (٣) « ولقد مكناكم في الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش . » فالجمهور يقرؤها (معايش) بالياء ؛ والأعرج ، وزيد بن علي ، والأعشى ، وخارجة عن نافع ، وابن عامر في رواية يقرءونها بالهمزة .

والنحاة وفق مقاييسهم النحوية يقررون أن القراءة بالياء قياسية ، وبالهمزة غير قياسية . ثم يقول الزجاج (٤) ما نصه : (جميع نحاة البصرة

(١) سورة آل عمران : ٧٥

(٢) البحر المحيط ج ٢ ص ٤٩٩

(٣) سورة الأنعام : ١٠

(٤) البحر المحيط ج ٤ ص ٢٧١

تزعم أن همزها خطأ ، ولا أعلم لها وجهاً إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ،
ولا ينبغي التعويل على هذه القراءة) . وصدى هذا النقاش في نفس الآية
يوجد في حاشية الشهاب على البيضاوى ، ولكن الذى يتولى مهمة تخطئة
القراء هو نحوى آخر ، أبو عثمان المازنى ، وإليكم ما يقوله الشهاب :

(وروى عن نافع « معائش » بالهمز ، فتعال النحويون : إنه غلط ، لأنه
لا يهمز عندهم بعد ألف الجمع إلا الياء الزائدة كصحيفة وصحائف ، وأما
معائش : فياؤه أصلية ، هي عين الكلمة ، لأنها من العيش ؛ حتى قال أبو
عثمان المازنى : إن نافعاً رحمه الله تعالى لم يكن يدرى العربية ^(١) .)
ويرى سيديويه أيضاً أن قراءة الهمزة في هذه الآية غلط . ^(٢)

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة لنثبت وجود اللحن في وسط القراء
سواء صحت دعوة النحاة في هذا أم ردت . |

بقى علينا أن ننظر في وسط الشعراء ورجال الأدب . وهؤلاء لم
يسلموا أيضاً من تعثر اللسان ، ومن تعرضهم للنقد اللاذع بسبب اللحن ،
سواء من كان منهم عربياً خالصاً ، أم من دخل في الأسرة العربية من
الاجانب وجارى أصحاب اللغة في الشعر والأدب .

(١) حاشية الشهاب على البيضاوى ج ٤ ص ١٥٢

(٢) القراءات واللهجات للاستاذ عبد الوهاب حموده ص ١٤٣

فمن الفريق الأول نجد الفرزدق يهجو عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ،
وهو من الموالى بهذا البيت :

فلو كان عبد الله مولى هجوته * ولكن عبد الله مولى مواليا
وكان هذا الهجاء بسبب تخلف ابن أبي اسحاق للفرزدق نفسه في بيت
آخر هو :

على عمائنا تلقى وأرحلنا * على زواحف تزجي مخها رير
حيث يزعم عبد الله أن الفرزدق هنا قد خلف قواعد العربية . ويهمننا
بيت الهجاء في ابن أبي اسحق إذ يقول الفرزدق (موالياً) وصواب اللغة
أن يقول (موال) ^(١)

ومن الفريق الثاني نجد زياد الأعجم المتوفى سنة ١٠٠ هـ ، وكان فارسى
الأصل ولكنه استطاع أن يفتق في اللغة العربية نبوغاً يجعله يجارى فيها
أهل البدو وشعراء العرب الخالص ، ولذا فقد اتخذ الملهب بن أبي صفرة
شاعراً في سده . وبالرغم من تمكن زياد في اللغة والشعر فقد روى له
هذا البيت ^(٢)

إذا قلت قد أقبلت أديرت * كمن ليس غاد ولا رانح ، وكان يجب أن
يقول : (كمن ليس غادياً ولا رانحاً)

(١) طبقات الشعر لابن سلام ص ٧ ، سيمويه ص ٢ ص ٢٥٩

(٢) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٥٩

لو استعرضنا ما ذكرناه بصدد الكلام عن اللحن ومبلغ انتشاره لرأينا أنه تسرب إلى أغلب الأوساط العربية . فقد لمسنا آثاره فيما بين الطبقة الحاكمة ، وضربنا لذلك مثلاً عبيد الله بن زياد ، والوليد بن عبد الملك وفيما بين طبقة الفقهاء وضربنا لذلك مثلاً أبا حنيفة ومالك وأستاذة ربيعة الرأي ، وفيما بين طبقة القراء وضربنا لذلك مثلاً حمزة ، وأبا عمر ، وأبا بكر والأعمش ، والأعرج ، وزيد بن علي ، ونافع ، وابن عامر ، ثم فيما بين طبقة الشعراء ، وضربنا لذلك مثلاً الفرزدق ، وزباد الأعجم . وكنا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك ، ولكننا حرصنا على أن نأخذ نموذجاً في أبسط صورة لهذا اللحن في مختلف البيئات العربية مع البعد عن الاستطراد . وقد تبين لنا أن ظاهرة اللحن خاضعة في انتشاره إلى عوامل اجتماعية أشرنا إليها فيما مضى مع شيء من التفصيل .

وعلى حسب هذه العوامل قد افترضنا وجود اللحن في زمن الجاهلية قبل الإسلام ، وإن لم نعثر على أدلة مادية تثبت وجوده في صوره المختلفة فيما عدا هذه اللكنة البسيطة التي أثرت عن صهيب وسحيم ، وهي ليست في الواقع سوى نتيجة لضعف طبيعي عند هذين الأجنبيين بالنسبة لخارج الحروف ، وعجزهما عن النطق العربي الصحيح .

ولذا ما جئنا إلى صدر الإسلام وجدنا آثاره المادية ولمسنا صوراً منه . ولكن كل الظروف تدل على أن هذا اللحن كان في دائرة محدودة ؛ ولم

يصل بعد إلى درجة يخشى منها على الآثار العربية . أما في عصر الدولة
الأموية فيدخل اللحن في مرحلة جديدة ؛ وتظهر آثاره في أهم الأوساط
بل ويتسرب كما رأينا إلى الطبقة العليا من العرب .

وليس من السهل أن نتبع اللحن في عصر الدولة العباسية ؛ فصوره
عديدة ؛ وأمثله لا تحصى . بل إن أمر اللحن في أيام هذه الدولة يطغى
مع مرور الزمن حتى يصل إلى تهديد العربية الفصحى ؛ ثم يتمكن في النهاية
من خلق اللغة الدارجة التي لا تهتم بقواعد النحو ولا تقيم لعلامات
الإعراب وزناً .

ومن هذا يتبين كيف نشأ اللحن في العربية ، وكيف تعددت صورته
والأسباب التي دعت إلى ذلك ؛ والمراحل التي مر بها ؛ والذي يهمنا
ملاحظته هو أن ظاهرة اللحن في العربية استتبعت ظاهرة أخرى يمكن أن
نعتبرها رد فعل للظاهرة الأولى ، ويمكن أن نسمى هذه الظاهرة بحركة
تنقية اللغة والمحافظة على سلامتها . وأصحاب هذه الظاهرة العكسية موجودون
كذلك منذ وجود اللحن ؛ إذ أن ذلك يكاد يكون طبيعياً عند أصحاب
كل لغة يعتبرونها ويحرصون على سلامتها ؛ غير أننا بالنسبة للعصر الجاهلي
نلجأ إلى طريق الافتراض الذي تؤيده ملاسبات كثيرة وأسباب عدة ،
وما ذلك إلا لأن الدليل المادي يعوزنا هنا أيضاً كما أعوزنا بالنسبة لإثبات
اللحن . ولكن إذا جئنا إلى صدر الإسلام رأينا الرسول صلى الله عليه

وسلم على رأس أصحاب هذه الحركة ، ثم يأتي من بعده عمر صاحب الذوق الرفيع والمملكة العظيمة في فهم اللغة وإدراك دقائقها وأسرارها البلاغية . وقد رأينا له في ذلك موقفين : موقفه مع كاتب أبي موسى الأشعري ، ثم موقفه مع أولئك الذين كانوا يتعلمون الرماية . ولقد ورث ابن عمر عن أبيه هذه النزعة فكان شديد الحرص على سلامة اللغة عند أبنائه وكان يأخذهم بالعنف والشدة حينما يبدو له خطأ منهم .

ثم إننا رأينا فيما بعد كيف كان حرص الخلفاء والولاة على أولادهم وكيف كان ذلك الحرص يدفعهم إلى إرسال أولادهم إلى البادية يعيشون مع العرب الخالص حتى تهت أشداقهم ، ويستقيم منطقهم فلا يرتكبوا ما يرتكبه سكان المدن من الأخطاء .

ولإذا ما وصلنا إلى عصر الدولة الأموية وجدنا حركة التنقية في اللغة تمتد بقدر امتداد أمر اللحن فيها ، ولم يكن ذلك سوى جزء من سياستها العامة التي نهجتها أيام حكمها ، وتتمثل هذه السياسة بوجه عام في التمسك بكل ما هو عربي والنفور من كل ما هو غريب عن العرب ، وكانت اللغة بطبيعة الحال أهم مظهر يتناوله ذلك الحرص ، ولهذا فإننا نرى أصحاب حركة التنقية في عدد غير يسير ، ويتناول هذا العدد بعض الخلفاء والولاة والعلماء ، فمن الخلفاء نجد عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، ومن الولاة نجد الحجاج بن يوسف ، وزيد بن أبيه ، ومن رجال العلم نجد أبا الأسود الدؤلي الذي خطا في النحو العربي أول خطوة عملية . وفي خلال هذا العصر أيضاً ينشأ جيل أغلبه من غير العرب فيأخذ

نفسه بدراسة اللغة العربية ، ثم يتحمل عبء حركة التنقية فيسير بها إلى غاية بعيدة ؛ وربما دفعه ذلك إلى ارتكاب الشطط من الأمر في بعض الأحيان ونعني بهذا الجيل رجال النحو الذين أسسوا هذا العلم ونهضوا به ، وكان لهم في العناية باللغة العربية والمحرص على سلامتها شأن كبير . (١)

وليس لنا أن نفيض الآن في مجهود هؤلاء النحاة ، ولا في مدى تمسكهم بقواعدهم النحوية ، فإننا سنفصل ذلك بعد قليل حينما نتكلم عن النحو بمعناه العلي . وحسبنا أن نعرف فقط أن هؤلاء النحاة قد بدأوا دورهم في حركة التنقية أيام الدولة الأموية . بجانب الخلفاء والولاة ، ثم استمروا كذلك حتى عهد الدولة العباسية حيث ألقى عليهم وحدثهم تقريباً عبء تلك الحركة فكانوا بمثابة الرقباء الحريصين عليها بالرغم مما كانوا يتسمون به من تزمت وتعسف .

ولقد كان اهتمام هؤلاء النحاة بتلك المهمة التي أخذوا أنفسهم بها يتسع بقدر اتساع دائرة اللحن وتفشييه في الأوساط الإدارية والثقافية ولكنه بالرغم من ذلك ظل سلبياً ، فلم يوقف اللحن عند حد ولم يمنع الفصحى من أن تتضاءل وتنطوى على نفسها في أوساط ضيقة وتترك بذلك الميدان للغة دارجة ؛ لا تحترم ضوابط النحو ولا تقسم لعلامات الاعراب وزناً ، بل تنشأ وتنمو على حسابها .

ويعد فيستطيع القارئ أن يلاحظ مما قدمناه من الكلام عن اللحن

ونشأته وخطره أن هذا الداء الذي أصاب اللغة العربية لم يكن خاصاً بها وإنما هو داء تتعرض له كل اللغات على الإطلاق وخصوصاً ما كان منها معرباً ، ويستطيع أن يلاحظ كذلك أن أصحاب هذه اللغات المعربة لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا الداء ، بل اتخذوا من العدة ما يكفل سلامة اللغة ويبعد عنها ذلك الخطر الذي يهددها ما بين حين وآخر . وإذن فلم تكن اللغة العربية من هذه الناحية أيضاً إلا خاضعة لنفس القوانين العامة التي تخضع لها كل اللغات المعربة .

وقد كان هذا البحث بمثابة تمهيد ضروري للكلام عن النحو العربي ونشأته ، وقد استلزم هذا منا أن نتعرض لكثير من مسائل اللحن ، وأن نلجأ إلى المقارنة بين الأخطاء اللغوية في العربية وفي غيرها من اللغات الأخرى ، وأن نحدد وجهة نظرنا بالضبط فيما يختص باللحن الخطير غير ملقين بالآراء القدماء وترددهم في مسميات هذه الأخطاء اللغوية المختلفة ، ونظن أننا قد استطعنا الوصول في كل ذلك إلى نتائج ملموسة ، سيتبين القارئ بعد قليل أثرها ومدادها .

نشأة النحو العربي

والأسباب التي دعت إليه

*

لا يزل الباحث في حيرة من أمر النحو العربي ، ومن الظرف التي لا بست نشأته ، فلا القدماء أmapوا اللثام بطريقة معقولة عن هذا الغموض الذي لا نزال نحس به ونتعثر في دياجيته ، ولا المحدثون استطاعوا أن يتناولوا هذه المسألة بطريقة جدية فيتعمقوا فيها بعد أن يمهّدوا لها بالدراسة الواسعة والتفكير الحر والمنطق السليم . وها نحن أولاء نقساءل لماذا لم يصاحب هذا الغموض غير النحو من سائر العلوم الإسلامية الأخرى كعلم القراءة والفقه والتفسير ؟

وربما أجيب عن هذا السؤال بأن هذه العلوم لا سبيل إلى تطرق الشك في أوليتها ونشأتها بعد الإسلام ، إذ أنها تستمد أسسها من القرآن والسنة ، وهما أهم أصليين من الأصول الإسلامية . أما النحو فصلته باللغة وثيقة ، فاللغة قد وجدت وكمّلت قبل أن يوجد الإسلام . ولكن ينبغي أن نضيف إلى هذا اعتباراً آخر ، ذلك أنه فيما يختص بالنحو قد تدخلت عوامل جديدة أهمها : صفة القداسة التي تمنح للغة العربية حرصاً من القدماء على الرفع من

شأنها ما دامت قد أصبحت لغة التنزيل والإسلام . هذه القساسة قد جعلتهم يفترضون أنها توقيفية ، وأنها أشرف اللغات على الإطلاق ؛ وأنها كانت صحيحة الإعراب لا يأتيها اللحن ولا الخطأ من بين يديها ولا خلفها بل إن هذه الرغبة نفسها قد دفعتهم إلى تقرير ما هو أشد من ذلك كله ، فقد قالوا إن اللغة العربية كانت لغة آدم عليه السلام في الجنة ، واستمر يتحدث بها ويتفاهم بواسطتها حتى كانت منه الخطيئة التي ارتكبها بعصيان أمر ربه وعلى أثر ذلك قد انتزعت منه اللغة العربية انتزاعاً ، وهكذا بين لحظة وأخرى نسي اللغة التي كان يعبر بها عن رغباته ويشرح بها ضرورياته ؛ وبقي كذلك حتى تاب إلى ربه وحينئذ عادت إليه اللغة العربية وتقمصته من جديد فأخذ يتحدث بها كأن لم يكن منه نسيان فيما مضى ، أمر عجب ، وتصوير أعجب !!! .

وعلى هذا فقد تسرب إلى بعض العلماء قديماً أن نحو هذه اللغة لا بد وأن يكون كذلك ^{توقيفياً} . فيزعم ابن فارس أن علم النحو في اللغة العربية قديم بقدمها ومنزل كتنزيلها ، وأنه كان معروفاً ومدروساً من أيام جرهم ، ثم تنوسيت قواعده مع استمرار العمل به حتى جاء أبو الأسود الدؤلي وشعر بالحاجة إليه فأحيا ما اندثر منه وعمل على تعليمه الناس من جديد ^(١) .

(١) - انظر تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٤١

وأظننا في غير حاجة إلى أن نقف أمام هذه الرواية وأمثالها لنقدتها ،
أو لتفنيدها ، وخصوصاً وأن بعض القدماء أنفسهم قد عز عليهم تصورهما ،
ورفضوا قبولها . وقد كان هذا الرفض في أغلب الأحيان سلبياً ، إذ
أنهم لم يرجعوا في أولية الوضع في النحو إلى ما قبل الإمام علي بن
أبي طالب .

ويضاف إلى هذا عامل آخر وهو إن كان يعتبر في الدرجة الثانية بالنسبة
لمعنى القداسة إلا أنه جدير بالملاحظة ، ذلك هو الرغبة البينة في إسناد هذا
العلم إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رأس الشيعة . ولا يبعد أن يكون
هذا نوعاً من الدعاية السياسية والدينية في وقت واحد .

هذه الأمور مجتمعة قد كست المسألة غموضاً ؛ وزادت الأمر اضطراباً
وجعلتنا نقف من نشأة النحو العربي موقف المتردد في قبول هذه الروايات
العديدة في نشأة النحو ، ومن أسس قواعده ، ورسم ضوابطه
الأولى ، بالرغم مما نلاحظه من شبه إجماع للرواة في إسناد هذا العلم إلى علي
ابن أبي طالب ، وعنه أخذه أبو الأسود الدؤلي . فإن الإجماع أو شبهه في
هذه المسألة ينبغي أن لا يكون له من الأهمية مثل الإجماع في بعض المسائل
الدينية ، إذ يجوز أن يكون مصدر هذا الإجماع رواية فردية ، ثم تناقلها
الخلف عن السلف حتى وصلت إلينا في شبه إجماع .

كل هذه الاعتبارات ينبغي أن تدخل في حسابنا ، وأن تكون موضع
ملاحظتنا حينما نبحث نشأة النحو العربي . وما دام رائدنا الأول في الدرس

هو العقل ، به تتفهم الروايات ، وبه نحكم عليها ولا ندعها تفرض نفسها علينا ، وعليه نعتد في التحليل والاستنتاج . نقول ما دام رائدنا الأول هو العقل فقد تكون رواية فردية في زاوية مهجورة من زوايا الكتب أولى بالعناية ؛ وأجدر بالاهتمام من شبه الإجماع الذي يطالعا في أغلب الكتب ، وفي المكان البارز منها .

إن الأسباب التي يمكن أن تكون قد دعت إلى وضع النحو العربي هي في جملتها نفس الأسباب التي دعت إلى نشأة العلوم الإسلامية الأخرى في عصر الدولة الأموية ؛ حافز ديني أولا ؛ ثم ظروف اجتماعية ثانياً ، وسنفصل الكلام عن هذين السببين بعد قليل .

وهكذا لو نظرنا في نشأة علم القراءات أو الفقه أو الرواية أو التفسير لما رأينا واحداً منها يخرج عن هذه الاعتبارات فليس معقولاً إذن أن يشذ وضع النحو اللهم إلا في جزئيات لا تتناول جوهر المسألة وإنما تمس العرض كالاستعانة في ذلك ببعض ما عرف عند الأجانب ، وكاتخاذ خطوة عملية فيها قبل أن يخطو العلماء المسلمون الآخرون في ميادين علمهم .

وقبل أن نأتى على ذلك بالتفصيل نحب أن نستعرض في صورة عاجلة نشأة العلوم الإسلامية الأولى ليكون ذلك بمثابة التمهيد لكلامنا عن النحو الذي لا ينبغي أن ينظر إليه كحلقة مفردة ، الشيء الذي يفسد علينا فهم كثير من مسائله ؛ نتيجة الألف الضيق الذي نحصر فيه أنفسنا ؛ ولا

نستطيع أن نخرج عنه إما جهلاً ؛ وللجهل عذره ، وإما تهيئاً ؛ وفي ذلك الخطر الكبير .

علم القراءات :

بعد أن جمع الخليفة عثمان أمر المسلمين على نص واحد من المصحف مدفوعاً في ذلك بما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءة القرآن نسخ منه أربع نسخ فبعث بواحدة إلى العراق وبأخرى إلى الشام وبثالثة إلى مصر وأبقى الرابعة في المدينة ، ولم يمض زمن طويل على هذا الصنيع حتى أصبح لأهل كل مصر من هذه الأمصار قراءة خاصة يتبعون فيها واحداً من القراء توفرت فيه الثقة ، وهكذا تعددت القراءات بتعدد القراء وأصبحت لكل قارئ طريقة في الأداء ، والمتواتر من هذه القراءات سبع ، تنسب إلى من اشتهر بروايتها^(١) والذي يهمنا من ذلك أن هذه القراءات تنقلت بالرواية

(١) - هذا هو الرأي المجمع عليه وقد يعدها بعضهم عشراً ، وهام القراء السبعة كما يعدم صاحب الفهرست ص ٤٢ طبعة مصطفى محمد .

والذي نستطيع الآن أن نلاحظه بوجه عام على هؤلاء القراء هو أن أغليتهم من الموالى الذين وضعوا أنفسهم وما يملكون من معارف ، وما يتصفون به من علم وذكاء في خدمة الدين الإسلامى فكان لهم من أجل ذلك أثر عظيم .

أولاً :- أبو عمرو بن العلاء وهو عربى من تميم وقد توفى بالكوفة

* ولم تأخذ شكلها العلمى المنظم إلا فى القرن الرابع الهجرى حيث نجد
أول كتاب دون فى هذا العلم ، وهو كتاب الإيضاح فى الوقف والابتداء
لمحمد بن قاسم الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، ومن هذا الكتاب توجد نسخة

سنة ١٥٥ هـ ، ولم تكن شهرته فى اللغة العربية بأقل من شهرته فى القراءة
للقرآن ، وقد أخذ عنه يونس بن حبيب كما أخذ عنه كثير من مشايخ البصريين
فى الطبقة الرابعة منهم .

ثانياً :- نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم المدنى المتوفى سنة ١٦٩ هـ
بالمدينة ، ويروى الأصمعى عن نافع هذا أنه قال : « أصلى من أصفهان ،
وكان مولى جعونة بن شعوب الشجعى ، وقد عرف عنه أنه كان شديد
السواد ، وأشهر من روى عن نافع محمد بن اسحق المسيبى .

ثالثاً :- عبد الله بن كثير ويكنى أبا سعيد ويقال أبا بكر ؛ وهو من
قراء مكة فى الطبقة الثانية ، وهو مولى عمرو بن علقمة الكنانى ، وكان من
أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى بالسفن إلى اليمن لطرد الأحباش منها .
وقد توفى عبد الله بن كثير سنة ١٢٠ هـ بمكة ودفن فيها بعد أن صارت له
شهرة عظيمة بأرض الحجاز . ويذكر بن خلكان ج ١ ص ٢٥٠ ، أن ابن كثير
كان أسمر اللون طويل القامة جسيماً أشهل العينين ، أبيض الرأس واللحية ،
وكان يغير شيبته بالحناء . وأشهر من روى عنه اسماعيل بن عبد الله ابن
قسطنطين مولى ميسرة مولى العاص بن هشام .

رابعاً :- عاصم بن بهدله ويكنى أبا بكر بن أبى النجود . توفى بالكوفة
سنة ١٢٨ هـ ، وهو مولى بنى جذيمة ، وقد أخذ القراءة عن أبى عبد الرحمن

خطية في دار الكتب المصرية وثانية في المتحف البريطاني وثالثة في مكتبة
كوبربيللي في الآستانة ، ومعنى هذا أن علم القراءة بدأ في خلافة عثمان
واستمر يمارس مشافهة دون تدوين حتى القرن الرابع الهجرى . ١١

السلمى : وزر بن حبيش . وقد روى عن عاصم بن بهدله أبو بكر بن عياش
مولى واصل بن حيان الأحدب .

خامساً : - عبد الله بن عامر اليحصبي وكنيته أبو عمران ؛ ويقال إنه
أخذ القرآن عن عثمان بن عفان وقرأ عليه ، ويعتبر في الدرجة الأولى من
التابعين ؛ وهو من أهل دمشق وقد توفى بها سنة ١١٨ هـ . وقد روى عن ابن
عامر كثير ، منهم يحيى بن الحارث الذماري ، واسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر
وسعيد بن عبد العزيز .

سادساً : - حمزة بن حبيب الزيات ، وهو مولى آل عكرمة بن ربيع
التيمنى ، وكان يشتغل بالتجارة ما بين الكوفة وحلوان العراق ، فكان يجلب
الزيت من الكوفة إلى حلوان ، ويحمل من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة
وهو في الطبقة الرابعة من الكوفيين . وتوفى بحلوان العراق سنة ١٥٦ .

سابعاً : - السكسائي النحوى ، على بن عبد الله بن بهمن بن فيروز وهو
من أصل أعجمى ، قد نشأ بالكوفة وكان كثير الانتقال في البلدان . قرأ
على عبد الرحمن بن أبي ليلى وحمزة بن حبيب . وكان يقرئ الناس أولاً
بقراءة حمزة ؛ وأخيراً في خلافة هارون الرشيد اختار لنفسه قراءة أقرأ بها
الناس وقد توفى بقرية من قرى الرى سنة ١٧٩ .

اما التفسير فقد نشأ كذلك بسيطاً يقتصر على بعض الآيات التي غمض معناها أو تحمل أوجهاً من التأويل ؛ وأول من تجمع الروايات على تفسيره القرآن هو ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ ؛ ولكن هذا العلم أيضاً قد استمر مشافهة حتى أواخر القرن الأول الهجري ؛ ولم يعرف كتاب دون في التفسير قبل الذي دونه مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ

وحتى ما دونه هذا العالم لم يوقف له على أثر حتى الآن ؛ ولكن يظن أن تدوينه في التفسير ليس إلا تفسير ابن عباس قد وصل إليه بطريق الرواية ، ويؤيد هذا ما وجد في دار الكتب المصرية من نسخ في التفسير منسوبة إلى ابن عباس بينما مقدمة هذه النسخ تشير إلى أن هذا التفسير لم يدون في أيام صاحبه وإنما نقل بالرواية ودون في عهد متأخر ، وقد اطلع على هذه النسخ وناقش هذه المسألة الأستاذ جورجى زيدان ^(١) وقد انتهى فيها إلى هذا الرأي الذى ذكرناه .

^(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٠٥ . ولمن يريد التوسع في هذه المسألة ، والتأكد منها يرجع كذلك إلى ما كتبه صاحب الفهرست ص ٥٠ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر ، تحت عنوان (تسمية الكتب المصنفة في تفسير القرآن) .

ولقد خطا مجهود العلماء في خدمة القرآن ودراساته خطوات واسعة ،
حتى أصبحنا في عصر ابن النديم نجد أن عدد الكتب التي ألقت في
تفسير القرآن فقط قد بلغت خمسة وأربعين كتاباً ؛ وهذا عدا ما ألف
في معاني القرآن ومؤلفه ومجازه ، ثم في غريبه ، وقراءاته ، ونقطه وشكله
ونزوله ، وناسخه ومنسوخه وأحكامه ، و تنزيله الخ ^(١)

علم الحديث :

وأما الحديث فكان أول أمره مقصوراً في روايته على الصحابة
الذين سمعوا نضه من الرسول ولم يكن هناك مجال لتحريفه أو للاضافة
إليه ، ولكن بعد الفتنة الكبرى التي أصابت المسلمين بمقتل عثمان نشط
الحديث نشاطاً غير معهود إذ استغلته أحزاب الأمة العربية لأغراض
سياسية ، فبدأ دعاة كل حزب يضعون من الأحاديث ما يبرر مذهبهم ،
وتكاثر ذلك مع الزمن حتى أصبح من غير التمييز الصحيح من الباطل
وهنا اضطر علماء الإسلام إلى التفكير الجدى في وضع أسس هذا العلم
وضوابط الرواية لكي يمكن التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة
والمختلفة ، ومع هذا فقد ظل هذا المجهود العلمى في هذا الميدان يتناقل
مشفاه طول عصر الدولة الأموية ، ولم يعرف من دون فيه قبل الإمام

^(١) الفهرست لابن النديم ص ٥٠ إلى ٥٨ ، حيث يوجد ثبت لكل

الكتب المؤلفة في هذه الموضوعات

مالك بن أنس التيمي القرشي المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وكتاب هذا المحدث
الفقيه هو الموطأ الذي جمعه ورتب أبوابه على حسب ترتيب أبواب الفقه ،
ويعتبر الموطأ الثمرة الأولى لجمع هذا العلم وتطبيق ضوابط الرواية ، ومن
بعده نضج هذا العلم نضوجاً سريعاً وجمعت فيه الكتب على أيدي الأئمة
من المحدثين .

علم الفقه :

وأما الفقه فكانت أول مسأله تدور حول تعرف بعض الأحكام الدينية
وتفهمها ، وكان الرسول بطبيعة مركزه أول من يستفتى في ذلك ،
وحينما انتقل إلى جوار ربه قام الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة بهذه
المهمة ، وتلك هي النواة الأولى للفقه في الإسلام ، غير أن طبيعة المجتمع
الإسلامي في أول الأمر لم تكن في حاجة كبيرة إلى غير ما تصرح به
نصوص الكتاب والسنة . ولكن حينما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية
وتشعبت أمور المجتمع وتعقدت المسائل الدينية اشتدت الحاجة إلى الفقه
والفقهاء ليرجع إليهم في شئون التولية ، والعزل ، والقتل ، والعفو ، وغير
ذلك مما يمس الدين ويهم المسلمين ؛ ومع هذا فقد استمر الفقه كغيره من
العلوم الإسلامية يدرس ويتفهم عن طريق المشافهة والرواية طول العصر
الأموي ؛ ولم يعرف فيه نظام التدوين والتأليف إلا بعد أن تخصص له
العلماء ونبغ فيه الأئمة الأربعة في عهد الخلفاء العباسيين : الإمام مالك
٩٥ - ١٧٩ هـ ، والإمام أبو حنيفة ٨٠ - ١٥٠ هـ ، والإمام الشافعي

١٥٠ - ٢٠٤ هـ ؛ والإمام أحمد بن حنبل ١٦٤ - ٢٤١ هـ .

ولم من يدرس مبادئ الفقه الإسلامى ، ويلاحظ ما طرأ عليه من تطور فى الأحكام بالنسبة لتطور الدولة والمجتمع لا يخامرهم شك فى أن مجهود الفقهاء فى الدولة الإسلامية لا يقل عن مجهود المشرعين ورجال القانون فى الدول الأخرى .

من هذا العرض السريع تبين لنا ظروف نشأة العلوم الإسلامية الأولى وطريقة نموها وتطورها ولم يكن الحافظ لتأسيسها وتدوينها رغبة مجردة للعلم من حيث هو ، وإنما هى ضرورة اجتماعية يحدوها حافز دينى . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نتصور علم النحو ، غير أنه من المرجح أن تكون الضرورة فى التفكير فى وضع أسسه كانت أشد إلحاحاً من الضرورة فى وضع العلوم الأخرى ، إذ أن موضوع هذه العلوم كان إما تفهم نصوص الدين على حقيقتها وإما استنباط أحكامه كى يتمشى مع اتساع الدولة وورق المجتمع ، ولم يكن هناك نوع من الفساد قد تسرب إلى طبيعة الإسلام وحالة المسلمين فى الزمن المبكر .

أما موضوع علم النحو فكان اللغة التى هى بمثابة الأداة للتعبير عن تلك الأحكام ، وقد رأينا كيف تعرضت هذه اللغة إلى الفساد منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولمذن يمكننا على ضوء ما تقدم من الكلام على اللحن ونشأته أن نقول

١١
إن السبب المباشر في وضع النحو هو تسرب الفساد إلى لسان العرب سواء
أكان ذلك على يد الأجانب الذين دخلوا في الإسلام أم على يد العرب
الذين امتزجوا بهؤلاء الأجانب وخالطوهم ثم سلكوا في الحياة الاجتماعية
سبيلاً لم يكن معهوداً لهم من قبل ، وهناك سبب آخر يمكن إضافته إلى
ذلك وهو الرغبة في تعليم اللغة العربية وتيسير طرق الأداء بها بعد تفهمها
وإدراك دقائقها وأسرارها بالنسبة للأجانب الذين انضوا تحت راية الدولة
الإسلامية وعقولهم ناضجة وثقافتهم واسعة وتفكيرهم منطقي سليم إلى حد
بعيد ، وما كان ينقص هؤلاء سوى الإجابة في أداة التعبير التي أصبحت
ضرورية في المجتمع الإسلامي بأسره لكي يستغلوا مواهبهم في تأسيس
الحضارة الإسلامية ؛ وينالوا حظهم من الحياة في ذلك المجتمع العربي الجديد .

ولهذه الحالة أمثالها عند اليونانيين حينما اتسعت رقعة الدولة وبدأت
لديهم الرغبة في تعليم الشعوب المفتوحة لغتهم وفنهم وأدبهم ؛ فقد رأينا
رجال السياسة فيهم يعتمدون إلى حد كبير على رجال اللغة اليونانية ؛
ورأينا هؤلاء اللغويين بدورهم ينهجون في النحو نهجاً جديداً لا يقوم فقط
على إدراك ما في اللغة اليونانية من أسرار بلاغية ودقائق فنية ،
ولكنهم يضعون بجانب هذا الضوابط والاسس التي تمهد السبيل لتعليم
اللغة اليونانية بالنسبة للأجانب الذين كانوا يجدون من الحوافز العديدة
ما يدفعهم إلى معرفة تلك اللغة .

وكذلك الشأن أيضاً عند الروم ؛ بل إننا لا نزال نجد نفس الطريقة
ونفس الهدف ملاحظين عند أصحاب اللغات الحديثة الذين يطمعون في
نشر ثقافتهم واعلاء شأن معارفهم ؛ وليس ذلك في الواقع سوى امتداد
للقديم .

هذان ، فيما نعتقد ، هما السببان الرئيسيان في نشأة النحو ، وإن كنا
نعترف بأن هناك أسباباً أخرى ثانوية قد نشطت هذا البحث وحفزت
المهتمين بشأنه إلى أن يخطوا فيه خطوات واسعة سريعة ، من ذلك ما كان
يوجد بين الدارسين للعربية من تنافس على تلك المسكانة الأدبية التي يتمتع
بها كل من يبرز في معرفته للعربية الصحيحة وخصوصاً في زمن كان المشرفون
فيه على أمور الدولة من أشد الناس حرصاً على اللغة السليمة وتمسكاً بكل
ما هو عربي ، ومن ذلك أيضاً ما كان من منافسة بين مدرستي البصرة
والكوفة على جمع اللغة والدراية بها ووضع الضوابط لتفهمها والإجادة
فيها ، ونحن نعرف مبلغ تشجيع الخلفاء الأمويين لهاتين المدينتين رغبة منهم
في أن يحل محل مكة والمدينة في بيثة الحجاز وما كان لذلك من أثر في
تخذ الهمم ، والنهوض بالعلم والبحث وخصوصاً ما تناول النحو . والذي
ينبغي أن نلاحظه هنا قبل أن ننتقل إلى الكلام عن نقطة أخرى هو أن
السببين الرئيسيين لنشأة النحو كانا يتمشيان ضرورة مع طبيعة تطور النحو
نفسه ، ومبلغ حاجة المجتمع إليه مثل ما حدث بالنسبة للعلوم الإسلامية

الأخرى التي تقدمت الإشارة إليها ، بمعنى أن الخطوة الأولى في وضع النحو ينبغي أن تكون بمثابة رد الفعل المباشر لتسرب اللحن إلى اللغة والقرآن على الخصوص ، فلا بد إذن أن يكون الغرض منها هو إبعاد هذا الخطر عن نصوص القرآن وهو جماع أمر الدين ، ولن يتأتى ذلك إلا بوضع ضوابط عملية تحفظ عليه نصوصه ، وتسهل على من لم يكن متمكناً من العربية قراءته . ثم تتعدد الأسباب الأخرى ويفتح أمام الباحثين ميدان جديد ، فيتوسعون في الدرس بقدر ما تسمح لهم ظروف البحث نفسه ، وأخيراً ينتهون إلى الفكرة المجردة عن العلم من حيث هو لا من حيث كونه مقيداً باعتبارات أخرى . ١١

وهنا نلص عنصرأً أجنبياً يدخل على العقلية العربية ، والتفكير عند علماء الإسلام ، فيكيف تلك العقلية تكييفاً جديداً وينظم هذا التفكير تنظيمًا يخضع لمبادئ علمية ، لم تكن معروفة عند المسلمين من قبل ؛ ونعني بذلك العنصر هو أثر الفلسفة اليونانية بصفة خاصة ؛ وليس لنا أن نفيض الآن في هذا الأثر ، وفيما كان من نتائجه المباشرة على التفكير والعلم ؛ إذ أننا سنتحدث عنه في شيء من التفصيل عندما نتعرض للكلام على الأثر الأجنبي في النحو العربي .

وبعد فإننا نظن أن لهذا التمهيد أثره فيما سنتحدث عنه بعد قليل بالنسبة إلى تأريخ وضع النحو وتبعية المراحل التي مر بها حتى أصبح مهيئاً لأن يكون علماً ناضجاً .

من هو الواضع الأول

للنحو العربي ؟

إن الكلام على الواضع الأول للنحو العربي يستلزم منا كلمة يسيرة عن لفظ « النحو » وكيف أطلق هذا اللفظ على مجموعة القواعد التي تضبط اللغة وتنظم النطق بها . وهذا بطبيعة الحال يحتاج منا بدوره أن نرجع بعقولنا إلى الماضي لنعيش بها فترة في حياة العرب بعد أن توطدت دعائم الإسلام وثبتت قواعده في البيئات المفتوحة ، ونعني بتلك الفترة المدة المحصورة بين سنة ٤٠ هـ وأواخر القرن الأول الهجري . في هذه الفترة نلاحظ اتجاهاً جديداً من جانب العرب في تنظيم دولتهم تنظيمياً داخلياً ، ولعل أهم مظهر لهذا الاتجاه هو العناية باللغة العربية ، وسواء أفهم ذلك عنهم تعصباً للغتهم أم لا ، فإن طبيعة موقفهم كمؤسسين لدولة إسلامية كانت تحتم عليهم ذلك الاتجاه وتلك العناية .

ولهذا يجب ألا نلجأ بالآلة إلى قول أولئك الذين ينسبون التعصب إلى العرب حينما أخذوا يفرضون لغتهم بطريقة غير مباشرة على الشعوب المفتوحة .
مقارنين صنيع العرب في هذا صنيعه الرومان حينما غزوا بلاد اليونان

والشعوب الخاضعة لهم دون أن يتعرضوا إلى لغة هذه الشعوب، بل تركوهم يمارسون التعليم ، ويديرون دفة الأمور الموكولة إليهم في الدولة بلغتهم هم لا باللغة اللاتينية ، نقول يجب ألا نلجأ إلا إلى رأى القائلين بهذا كما يجب أن نلاحظ الفارق البعيد بين الدولة الرومانية ، والدولة العربية ، فذلك لم تكن لها رسالة ديفية تريد أداؤها ، ولم يكن غرضها من الفتح سوى المطامع السياسية والاقتصادية بأوسع معانيها ، أما الدولة العربية فكان غرضها الأول هو نشر الدعوة الإسلامية وتنفيذ رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأهم أصل في الإسلام هو القرآن ؛ مصدر الأحكام والقوانين ، وهو باللغة العربية وإذن فلم يكن عجباً من العرب أن يوجهوا همهم إلى اللغة العربية يستعملونها في إداراتهم ، ويمهدون السبل لتعلمها ، ويشجعون على النبوغ فيها ، وأهم عمل لهم في هذا هو ترجمة الدواوين إلى اللغة العربية ، وكان ذلك أيام خلافة عبد الملك بن مروان ، وأول ديوان نقل إليها هو ديوان الشام بلغة الروم وكان ذلك في سنة ٨١ هـ ، ثم تلاه بعد ذلك ديوان أهل فارس بالفارسية وديوان أهل مصر بالقبطية .

في هذه الفترة التي تحدثنا عنها منذ قليل لم يكن العرب قد استقروا من الناحية الفكرية والعلمية كما استقروا من الناحية الإدارية والسياسية ، ولهذا فليس معقولا أن نتصور لدى العرب في خلال القرن الأول من الهجرة علماء منظمة ؛ لها قواعد ؛ ومناهجها ، ومصطلحاتها .

ولإذن فإنه لما ينبغي أن نلاحظه قبل كل شيء أن كلمة « النحو » التي
نستعملها هنا لا نريد منها النحو بمعناه العلى المتعارف ؛ فإن ذلك لم يكن إلا في
عصور متأخرة بعد أن سار هذا العلم خطوات في سبيل التكوين والنمو .
وأما في مرحلته الأولى ، أو في الفترة التي نتحدث عنه فيها ؛ أى في زمن
حياة على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وبعض من جاء بعدهما
فكان يطلق عليه (العربية) . ولكننا نستعمل كلمة (النحو) استعمالاً
بجازياً باعتبار ما يؤول إليه ، وذلك مثل صنيع سائر الرواة الذين
استعملوا هذا الاصطلاح على ما عرف من هذا العلم أيام على أو أيام
أبى الأسود الدؤلى . وسأتى بعد قليل فرصة نتحدث فيها عن أولئك الرواة
ونذكر نص عباراتهم التي استعملوها في نسبة هذا العلم إلى واضعيه .

وفي الحق أنه بعد أن هدانا البحث الطويل في كتب اللغة ، والأدب ،
والرواة ، والتاريخ إلى أن كلمة « نحو » لا يمكن أن يقصد منها في عهد الدولة
الأموية ؛ وصدر الدولة العباسية ذلك المعنى الاصطلاحى الذى نفهمه الآن ،
نقول إنه بعد أن هدانا البحث إلى ذلك واطمأنت إليه نفسنا ، وقر به
ضميرنا وجدنا في ثنايا اطلاعنا ما زعزع هذه الطمأنينة ، وأزعج ثقتنا فيما
وصلنا إليه من استنتاج ، ذلك أننا رأينا في ترجمة يوحنا الاسكندراني أنه
كان قد اهتم على تلقيبه بيجي النحوى ، وكان يوحنا هذا من النصارى
اليعقوبيين ، وكان يعيش أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أيام الخلفاء

الراشدين من بعده ، وقد أدرك فتح عمرو بن العاص لمصر وكانت له في البلاد المصرية شهرة كبيرة حتى أن عمراً ذهب إليه ولقيه فأكرمه واعترف بمكانته .^(١) وجود هذا الاصطلاح المبكر على تلك الشخصية النصرانية أيام أوائل رجال اللغة العربية أمثال أبي الأسود الدؤلي وعنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز وغيرهم جعلنا نتردد كثيراً فيما قررناه سابقاً بالرغم من أننا لم نعثر فيما اطلعنا عليه على مثل هذا الاصطلاح بالنسبة لهؤلاء العلماء اللغويين من العرب . وبينما نحن في هذه الحيرة من الامر ، وفي ذلك التردد المزعج إذ بنا نهتدى إلى تفسير لهذا الاصطلاح من قدامى رجال اللغة العربية أنفسهم يزيل عنا تلك الشبهة وينتشلنا من هذه الحيرة ، بل ويعيد إلى النفس حالة الطمأنينة الاولى ، ذلك أننا رأينا في لسان العرب تحت كلمة - نحأ - نصاً ينقله صاحب اللسان عن الأزهري وهذا النص يفيد أن إطلاق كلمة - نحوى - كان مساوياً بالضبط لكلمة - لغوى - ؛ وإذن فلم يكن المقصود بالنحوى حينئذ الرجل الذى يدرس النحو ويؤلف فيه بالمعنى الذى نفهمه الآن من كلمة النحو . وإليك نص عبارة الأزهري ، كما ينقلها صاحب اللسان :^(٢) (نحأ) الأزهري ثبت عن أهل يونان فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم منهم يسمون علم الألفاظ

(١) - الفهرست لابن النديم ص ٣٥٦ - ٣٥٧

(٢) - لسان العرب ج ٢٠ . ص ١٨١

والغناية بالبحث عنه نحواً ؛ ويقولون كان فلان من النحويين ولذلك سمي
يوحنا الاسكندراني يحيى النحوى الذى كان حصل له من المعرفة بلغة
اليونانيين ...)

وإذا وضع لنا الآن أن كلمة - نحو - بمعناها الاصطلاحي الذى نفهمه فى
هذا العصر لم يكن موجوداً فى أيام الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية
يدلنا على ذلك زيادة على ما تقدم أننا لا نجد كتاباً فى العربية حتى بعد
سيبويه يسمى صراحة كتاب النحو ، فالكتابان المنسوبان إلى عيسى بن عمر
البصرى المتوفى سنة ١٤٩هـ والذان لم يصلنا منها أى أثر كانا يسميان المكمل
والجامع^(١) وحتى ما ألفه سيبويه نفسه فى هذا الميدان لم يكن يسمى بغير
- الكتاب -

نقول إذا وضع لنا موقف لفظ - النحو - بمعناه الاصطلاحي فإنه لما يوضح
ما نحن فيه ويزيل جانباً من الغموض بالنسبة لنقطة حساسة ستحدث عنها فيما بعد
- الأثر الأجنبي فى النحو العربى - أن نذكر شيئاً عن معنى النحو فى اللغة
مبينين أصل الاستعمال اللغوى ومصدر الكلمة ومشقاتها .

(١) يذكر هذين الكتابين كثير من الرواة ، ومنهم ابن النديم ، وإليك
نصه فى ص ٦٣ من الفهرست : « أنشدنا القاضى أبو سعيد رحمه الله للخليل
يذكر عيسى بن عمر والكتابين :

بطل النحو جميعاً كله * غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك لإكمال وهذا جامع * فهما للناس شمس وقمر

وهنا نحن أولاء نلخص هنا ما ذكرته كتب المعاجم ورآه رجال
اللغة متابعين ، كدأبنا في دراسة فقه اللغة ، المنهج الذي وضعناه وأشرنا
إليه فيما مضى لمعرفة أصل الكلمة الحسى ثم تطور معناها . نرجح أن
الأصل في هذه المادة هو — الناحية — أى الجانب من الشيء ؛ ثم جاءت
المشتقات من هذا الأصل فورد المنحاة لمسيل الماء إذا كان ملتويًا كما يقول
ابن الأعرابي ويستشهد بهذا البيت :

وفي أيمنهم بيض رقاق * كباقى السيل أصبح فى المناهى ^(١)
وأطلقوا أيضاً على بطن من الأزد لفظ — بنو نحو — ولعل ذلك كان
منهم لانتحاء جانب خاص يقيمون فيه أو يلتزمون به ، ومن هذا الوادى
أيضاً ما نجده من إطلاق العرب لفظ — أهل الانحاء — على القوم البعداء
الذين لم يكونوا بأقارب . ومن مشتقات هذه المادة نحأ ينحو بمعنى اتجه يتجه
أو قصد يقصد ، والصلة واضحة بين الناحية ، وهذا الفعل ؛ وقالوا أيضاً
نحأ الشيء ينحأه ، وينحوه إذا حرفه ، ويقول ابن السكيت من هذا سمي
النحوى لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب وقالوا أيضاً نحوت الشيء
أنحوه بمعنى أمتسه ؛ ومن المشتقات أيضاً رجل ناح من قوم نحاة
بمعنى رجل نحوى من قوم نحويين ، والنسبة فى هذا كالنسبة فى لابن ،
وتامر ، ولسنا نريد أن نمضى فى ذكر جميع المشتقات من هذه المادة

(١) انظر مادة — نحأ — فى لسان العرب ج ٢٠ ص ١٨١ — ١٨٥

فكلها تدور حول هذا الأساس الذي رجحنا أصالته ، ولكن لا بد من بيان كيف انتقل هذا المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي ، ومن ذلك يظهر جلياً أن هذا الاصطلاح في إطلاق النحو على العلم المعروف والنحو على العالم بقواعد النحو وضوابطه ، نقول من ذلك يظهر جلياً أن هذا الاصطلاح عربي خالص وليس فيه أى أثر أجنبي ؛ ونكتفي في ذلك بعبارة صاحب اللسان فهي مختصرة واضحة ؛ بقول لسان العرب في نفس المادة التي نحن بصدد : « والنحو إعراب الكلام العربي والنحو التقصد والطريق يكون ظرفاً ويكون اسماً ، نحاه ينحوه ، وينحاه نحواً ، وانتحاه ، ونحو* العربية منه إنما هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقيق والتكبير والإضافة والنسب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم أو أن شذ بعضهم عنها رد به إليها وهو في الأصل مصدر شائع أى نحوّت نحواً كقولك قصدت قصداً ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم ، كما أن الفقه في الأصل مصدر فقهت الشيء أى عرفت ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحريم ، وكما أن بيت الله عز وجل خص به الكعبة وإن كانت البيوت كلها لله عز وجل ، قال ابن سيده وله نظائر في قصر ما كان شائعاً في جنسه على أحد أنواعه وقد استعملته العرب ظرفاً وأصله المصدر ،

ولنعد الآن إلى الكلام عن الواضع للنحو ، وفي سبيل معرفة الواضع

الأول لهذا العلم عند العرب تعترضنا آراء عدة فيها كثير من التضارب والاختلاف ، ولذا فقد كانت فيما مضى ولا تزال حتى الآن مصدر كثير من التردد والشك عند من يريد درس هذه المسألة وتحقيقها . وسنحاول أن نسلك في ذلك منهجاً أساسه تحكيم العقل ، والتحصيص العلمي ؛ ولهذا فإننا لن نرفض هذه الروايات المتضاربة التي تطالعنا في ثنايا كتب الأدب واللغة ، ولكننا سنتمد عليها إلى حد بعيد ، إذ أنها لا تزال المصدر الوحيد الذي نستطيع أن نعثر عليه حتى الآن غير أننا سندرسها ، ونفهمها ، ثم نحاول أن نقلها على المقاييس العقلية الناقدة رغبة في أن نصل إلى الحقيقة التي نلشدّها . هذا ومن يطلع على ما كتبه رجال الأدب واللغة ، وما ذكره أهل الرواية في هذا الصدد ينتهي إلى ما انتهينا إليه وهو أن من نسب إليهم وضع النحو العربي هم أربعة : علي بن أبي طالب ؛ أبو الأسود الدؤلي ، نصر بن عاصم ، عبد الرحمن بن هرمز .

والذي يهمنا أن نلاحظه هو أن هؤلاء الأربعة قد وجدوا على وجه التقريب في عصر واحد . فعلى قتل في سنة ٤٠ هـ ، وأبو الأسود الدؤلي توفي في سنة ٦٩ هـ ، ونصر بن عاصم توفي في سنة ٨٩ هـ ، وعبد الرحمن بن هرمز توفي في سنة ١١٧ هـ ، واذن فلو استطعنا أن نقول إن الرواة متفقون على أن اللبنة الأولى في تأسيس النحو العربي كانت في تلك الفترة المحصورة بين علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن هرمز ، وهي

فترة لا تكاد تتجاوز سبعين سنة . والخلاف إنما هو فيمن وضع هذا
اللبنة وقبل أن تناقش هذا الخلاف نحب أن نذكر أهم الرواة الذين أثر
عنهم القول في هذه المسألة :

نجد أولا محمد بن سلام الجمحي فقد توفي سنة ٢٣٢ هـ ، اذ يقول
ما نصه : (١)

« وكان أول من أسس العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع
قياسها — أبو الأسود الدؤلي — ، ثم قال « ووضع باب الفاعل
والمفعول والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب والجزم . . . » ثم قال
« ثم كان بعدهم عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، فكان أول من بعج
النحو ومد القياس والعلل »

ثم يأتي من بعد ابن سلام أبو محمد مسلم بن قتيبة (٢) وقد توفي سنة
٢٧٦ هـ . اذ يقول : « هو (أي أبو الأسود الدؤلي) يعد في الشعراء ،
والتابعين ، والمحدثين ، والنجلاء ، والمفاليج ، لأنه أول من عمل في النحو
كتابا . »

وبعد ابن قتيبة نجد المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ

(١) مقدمة كتابه طبقات الشعراء

(٢) الشعر والشعراء — ترجمة أبي الأسود ج ٢ ص ٧٠٧ (طبعة عيسى
البابن الحلبي بالقاهرة — تحقيق وشرح احمد محمد شاكر)

إذ يقول ^(١) : « أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود
وسئل عمن أرشده إلى الوضع في النحو فقال : تلقيته عن علي . »

وبعد أبي العباس المبرد نجد صاحب الفهرست ، محمد بن اسحق النديم
المتوفى نحو سنة ٣٨٥ هـ ، فيتوسع في الرواية وينقل عن آخرين إذ يقول : ^(٢)
(زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وأن أبا الأسود
أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . »

« وقال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم ^(٣) الدؤلي ويقال الليثي .
قرأت بخط أبي عبد الله بن مقلة عن ثعلب أنه قال : « روى ابن لهيعة عن أبي النضر
قال : كان — عبد الرحمن بن هرمز — أول من وضع العربية . »

^(١) ينقل هذه العبارة أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي المتوفى سنة
٣٥٠ هـ ، ويصدرها بقوله (روى الثعالبي عن الزجاج أن أبا العباس قال : ...)

^(٢) ابن النديم — الفهرست ص ٥٩
^(٣) يعرف نصر بن عاصم الليثي النحوي بأنه كان من أصحاب أبي
الأسود الدؤلي ، ويروي الاستاذ الرافعي (تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١
هامش) أن أول كتاب وضع في النحو على التحقيق هو كتاب نصر بن
عاصم (انظر ياقوت ترجمة بن عاصم) .

ثم ينقل لنا بعد هذا صاحب الفهرست كلاماً طويلاً عما رآه وشاهده بنفسه في هذا الموضوع ، ونحن نؤثر أن نرويه بنصه ؛ إذ أن ذلك يلقى بعض الضوء على ما نحن بصدده . إذ أنه يحدثنا عما رآه بنفسه ، وكل من قرأ الفهرست لابن النديم ، أو قرأ عنه ، يدرك في سهولة مكانته في دقة الرواية ، وحرصه على تحرى الحقيقة ، ونزوعه إلى المقاييس العقلية وتحكيمها في كل ما يقرأه أو يسمعه . هذه الحيلة من جانبه تستحق شيئاً من الثناء والاطمئنان من جانبنا بالنسبة لما يرويه . يقول ابن النديم^(١) « كان بمدينة الحديثه رجل يقال له محمد بن الحسين ، يعرف بابن أبي بعره ، جماعة للكتب ، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة تحتوى على قطعة من الكتب العربية في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة ، فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بي - وكان نفوراً ضئيلاً بما عنده ، خائفاً عليهما من بني حمدان - فأخرج لى قطراً كبيراً ، فيه نحو ثلاثمائة رطل ، جلود وصكاك وقرطاس مصرى ، وورق صيني ، وورق تهاى ، وجلود آدم وورق خراسانى ، فيها تملیقات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأنساب والامهات ، وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم .

وذكر أن رجلاً من أهل الكوفة - ذهب عنى اسمه - كان مستهتراً بجمع الخطوط القديمة ، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت

(١) الفهرست ص ٦٠

بينها ، وأفضال من محمد بن الحسين عليه السلام ، وبجانبه بالمذهب فإنه
كان شيعياً . فرأيتها وقلبها فرأيت عجباً ! إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل
فيها عملاً ، أدرسها وأحرفها . وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرجة
توقيع بخطوط العلماء ، واحداً بعد واحد ، يذكر فيه خط من هو ،
وتحت كل توقيع توقيع آخر ، خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط
بعض لبعض . ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج ، صاحب
على رضى الله عنه ، ثم وصل هذا المصحف إلى عبد الله بن حاتم رحمه
الله ، ورأيت فيها بخط الإمامين ، الحسن والحسين ، ورأيت عنده أمانات
وعهوداً بخط أمير المؤمنين على عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي
صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن
العلاء ، وأبي عمرو الشيباني ، والأصمعي ، وابن الأعرابي ، وسديويه ،
والفراء ، والكسائي ، ومن خطوط أصحاب مثل سفيان بن عيينه ، وسفيان
الثوري ، والاوزاعي ، وغيرهم ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي
الأسود ما هذه حكايته وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها
هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخط
يحيى بن يعمر .

وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي وتحت هذا خط
النضر بن شميل ثم لمات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا

له خبراً ولا رأيت منه غير المصحف هذا على كثرة بحثي عنه . . ،
ثم إننا نجد بعد ابن النديم أبا الطيب عبد الواحد بن علي المتوفى سنة
٣٥١ هـ . يقول في ذلك : « كان أول من رسم للناس النحو أبا الأسود .
أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان أعلم
الناس بكلام العرب . وأبو الأسود أول من نقط المصحف . واختلف
الناس إلى أبي الأسود يتعلمون العربية وفرع لهم ما كان أصله ،
ويعاصر أبا الطيب هذا امام لغوى آخر هو أبو سعيد السيرافي المتوفى
٣٦٨ هـ . ، فنجدته يروى في هذه المسألة أيضاً رأياً لا يخرج عن آراء
السابقين إذ يقول « أول من رسم النحو أبو الأسود الدؤلي ،
ويعاصر السيرافي عالم لغوى آخر ؛ هو أبو منصور محمد بن أحمد بن
الأزهر طلحة بن نوح بن ازهر الأزهرى الهروى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ . ؛
فيرى رأياً لا يخالف فيه معاصره ؛ إذ يقول : « وبلغنا أن أبا الأسود
الدؤلي وضع وجوه العربية وقال للناس انخوا نحوه فسمى نحواً . . » (١)
وأعجاب هذه الروايات المتقدمة قد عاشوا كما رأينا في القرن الثاني
والثالث والرابع الهجرى . وبعد هذا القرن نجد رواة آخرين يرددون
نفس الروايات المتقدمة دون أن تكون لهم أصالة أو رأى جديد . ولعل

(١) ينقل هذه العبارة عن التهذيب للأزهري صاحب لسان العرب في

أولاهم بالذكر الحافظ بن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، والسيوطى المتوفى

سنة ٩١١ هـ ، والقفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

أما الحافظ فإنه ينقل عبارة المبرد التى ذكرناها فيما مضى إذ يقول :

« أول من وضع العربية ، ونقط المصاحف أبو الأسود ، وسئل عن

نهج له الطريق فقال تلقينته عن علي ^(١) » .

وأما السيوطى فإنه يذكر أغلب هذه الآراء المتقدمة ، وهو كدأبه

لا يحاول تمحيصها ، ولا إبداء رأى فيها . ^(٢)

وأما القفطى فإنه يسلك مسلك السيوطى فى جمع الآراء والاكتفاء

بفسبها إلى أصحابها ^(٣) ولعل أهم شئ لديه هو ما ينقله عن وجهة نظر

المصريين فى زمنه بالنسبة لمن وضع النحو ، ويقول : « وأهل مصر قاطبة

يروون بعد النقل والتصحيح أن أول من وضع النحو على بن أبى طالب

كرم الله وجهه - وأخذ عنه أبو الأسود ، وأخذ عن أبى الأسود نصر

ابن عاصم البصرى » .

ثم يضى فى ذكر السلسلة التى ألفنا قراءتها عند غيره من الرواة

بالنسبة لطبقات النحاة .

(١) الإصابة - ترجمة أبى الأسود ج ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٢

(٢) السيوطى - السبب فى وضع العربية

(٣) القفطى - انباء الرواة ، الصفحات الأولى من الكتاب .

ونحن لو تجاوزنا عن الخلاف في التعبير بين هؤلاء الرواة الذي لا
يرتب عليه كبير خمار ، والذي مصدره في كثير من الأحيان التساهل
وعدم الدقة في اختيار الألفاظ الاصطلاحية في الفترات الأولى من تدوين
العلوم العربية ، حيث نجد ابن سلام يقول : « أسس العربية وفتح بابها ،
وابن قتيبة يقول : (وضع العربية) والمبرد يقول : (وضع العربية)
وأبو اليب السيرافي يقولان : (رسم النحو) .

نقول لو تجاوزنا عن هذا الخلاف بين لفظ رسم ووضع ، وأسس
المتقاربة المعنى فإننا نستطيع أن نخرج من أقوال هؤلاء الرواة بما يشبه
الإجماع على أن الواضع لتلك اللبنة الأولى في النحو إنما هو أبو الأسود
الدؤلي . وسنحاول الآن أن نتناول كل شخصية من هذه الشخصيات التي
نسبت إليها أولية الوضع في النحو العربي فنتفهمها ، ونلم بطروفيها ، ونحلل
الرواية التي تنسب أولية الوضع إليها ؛ وعلى ضوء ذلك تتكشف لنا
الحقيقة التي أجملناها ، ونستطيع أن نصدر عليها حكماً في شيء من الثقة
العلمية ، والطمأنينة النفسية .

أما فيما يختص بنسبة ذلك إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فظاهر
فيه فكرة التشيع ، ويدل على ذلك أن هذه النسبة لا توجد وتنتشر
إلا في البيئات الشيعية ، كما رأينا ذلك في مصر أيام القفطلي .

ولقد استطعنا أن نلص ذلك عند القدماء أنفسهم ، وأن نجد أثرها حتى

في بعض هذه الروايات التي نقلناها عن أصحابها .

ويضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن ابن سلام وهو أقدم من أثرت عنهم الرواية في هذا الموضوع ، لم يشير بذلك إلى مجهود علي في تأسيس النحو . وليس بمستبعد أن يكون أبو الأسود نفسه ، وهو من أشد التابعين لعلي ، ومن أخلص الناس إليه ، قد عزا شيئاً من مجهوده في النحو إلى أمير المؤمنين تواضعاً منه أو تبركاً به أو تفانياً في شخصيته أو رغبة في خدمة المذهب الشيعي واستثارة بكل فضل . وليس بمستبعد أيضاً أن يكون قد جرت مناقشات ومشاورات بين علي وأبي الأسود فيما كان أبو الأسود يمتزم القيام به من تأسيس النحو ووضعته . كل هذا جائز ، وليس ببعيد أن يحصل وخصوصاً في بيئة تتغلب فيها المعاني الروحية ، ولكن المستبعد هو أن يكون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد قام بمجهود عملي وساهم مساهمة فعلية في تلك اللبنة الأولى من علم النحو ، فإن ظروفه الخاصة ، ومشغوليّاته الدينية والسياسية ، واهتمامه بما هو أجل من ذلك وأخطر يجعلنا نطمئن إلى أن أبا الأسود هو الذي نهض بعبء تأسيس النحو ، وتزعم تلك الطائفة التي اتجهت إلى دراسة العربية والاهتمام بشأنها . وما يزيدنا اطمئناناً إلى هذا الرأي هو أننا لم نعثر فيما قرأناه من روايات أوفيا اطلعنا عليه من آثار أدبية وعلمية على أي أثر ينهض كدليل ملد على مشاركة علي في تأسيس النحو ، بل إن هناك من هذه الروايات ، التي

تنسب وضع النحو الى علي ، ما يؤكد نفي ذلك عنه ؛ من ذلك ما يرويه
القفيلي من أن ابا الأسود قد تلقى الأمر من علي بن ابي طالب بوضع
حروف النصب ؛ ولما رجع اليه بعد ايام قدم اليه صحيفة كتبت فيها
حروف النصب على هذا النحو ؛ « إن ، أن ، كأن ، ليت ، لعل ، وحينما
قرأها على سألته : وأين لكن ؟ فقال ابو الأسود ما كنت أدرى انها منها ؛
فقال له علي : اثبتها فانها منها !

ونظرة فاحصة في هذه الرواية وفي مدى ما تتحمله من معاني تجعلنا
نرفضها ، ونحن مطمئنون ؛ فهي لو صحت لأعطتنا صورة عن ان النحو
العربي قد نضج وكمل لا في نظرياته العامة فحسب ولا في رموس مسائله
فقط ، وانما في تفاصيله ودقائقه قبل سنة ٤٠ هـ ؛ ذلك الأمر الذي لا
يتلام مطلقاً مع نشأة علم من العلوم وعلى يد مؤسسه الأول ؛ ثم كيف
يعقل هذا وقد استمر النحو في نموه السريع حتى ايام سيبويه وهو لا يقدم
هذا التقسيم الواضح ولا التفصيل العقلي الدقيق لنفس هذا الباب من ابواب
النحو ؟

على اننا نجد ما يؤكد ذلك بالنسبة لابي الأسود ، وسنذكره بعد قليل
واذا كان من علي بن ابي طالب بعض الآراء في هذا فذلك لا يعدو
أو هو قريب الشبه بما عرف من ارشاد الرسول صلى الله عليه وسلم
لاصحابه بتصحيح خطأ من لحن أمامه . فقد روى أن الرسول سمع لحناً في

مجلسه فقال لمن كان معه من الصحابة : « أرشدوا أخاكم فقد ضل . » ، أو هو شبيه كذلك بما عرف عن عمر بن الخطاب من حرصه على العربية الصحيحة ، وكرهيته للحن ونفوره من سماعه ثم دعوته بطريق غير مباشر إلى تعلم العربية وتجذب الأخطاء فيها . وإذن فنستطيع أن نقول إن ما كان من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر الخلفاء الراشدين من بعده ومنهم علي بن أبي طالب بشأن اللغة وتصحيحها كان طبيعياً ، تستلزمه الظروف ، وتدعو إليه طبيعة الحرص على اللغة من أصحابها وخصوصاً بعد أن أصبحت لغة الدين الجديد وأداة معرفة أحكامه ، وكان هذا لا يزال بعيداً عن الذخيرة العلمية ووضع قواعده على أساس منظم .

وأما ما رواه ابن الزبير من أنه قرأ بخط أبي عبد الله بن مقلة عن ثعلب من أن الواضع للعربية هو عبد الرحمن بن هرمز فلا ينبغي أن يعول عليه ، ذلك لأنها رواية من مصدر واحد ولم يوجد ما يدعمها ولا ما يقويها من أدلة أخرى حتى نستطيع أن نقف أمام الإجماع الذي رأيناه في جانب أبي الأسود الدؤلي . وعلى فرض قبولها وصحتها فإننا نستطيع أن نفهمها على الوجه الآتي :

كان عبد الرحمن بن هرمز من أصحاب أبي الأسود الذين يهتمون بالعربية وبالمحافظة عليها ، ولم يكن المجهود الذي يبذل في هذه الناحية مثلاً في دراسة مدرسية منظمة كما نتصوره الآن ، بل كان بمثابة مشاورات تتبادل ، وآراء تعطى ، ونصائح تقدم لمناسبة خطأ أو لحن لوحظ على

إنسان متكلم بالعربية أو قارئ لبعض آيات قرآنية ، ثم إن هذا المجهود لا يمكن أن يتصور دائماً صادراً عن أولئك المهتمين بأمر العربية مجتمعين ، بل كان كل منهم في حل من أن يصدر رأيه على انفراد أو يصحح لحناً دون الرجوع في ذلك إلى رأى استاذ أو الاعتماد على كتاب مدون ، فكانوا جميعاً أساتذة في العربية حريصين عليها متعاونين على سلامتها وعلى إنقاذها من ذلك المرض الاجتماعي الذي بدأ يتسرب إليها . وأمر أولئك الذين نستطيع أن نسميهم أوائل النحاة في العربية يشبه تماماً ما كان معروفاً عند أوائل النحاة في اليونانية واللاتينية والسريانية ؛ إذ أن كل واحد منهم كان يساهم بنصيب من ناحيته في تلك الملاحظات اللغوية التي أصبحت فيما بعد أساساً لوضع النحو ؛ ثم إن هذا التعاون لم يمنع واحداً منهم أو أكثر من أن يخطو خطوة عملية في وضع اللبنة الأولى من هذا البناء ، ومع ذلك فقد كان هذا المجهود الأول يعزى إليهم جميعاً .

وعلى ضوء هذا يمكن أن يقال إن عبد الرحمن بن هرمز قام بنصيب من الملاحظات النحوية الأولى في اللغة العربية ، وكانت هذه الملاحظات تلقى مشافهة لا تدويناً ، ولعله في هذا الميدان قد ساهم بنصيب كبير حتى إن ثعلب روى أنه الواضع للعربية .

وهذا الذي ذكرناه بالنسبة للملاحظات النحوية الأولى عند اليونانيين واللاتينيين ، والسريان وكذلك بالنسبة للنحاة الأوائل لهذه اللغات المختلفة

يفسر لنا أيضاً ما ذكره الرواة من أولية الوضع في النحو العربي لغير عبد
الرحمن بن هرمز ، إذ المسألة في نظرنا لا تعدو أن تكون نشاطاً
ملحوظاً واهتماماً أوسع في دائرة الأخطاء العربية وتصحيح اللحن فيها
ومراعاة الدقة في التعبير . ولعل نشاط عبد الرحمن بن هرمز قد ازداد بعد
أبي الأسود الدؤلي حتى كاد يغطي عليه مما جعل ثعلب ينسب إليه أولية
الوضع لهذا العلم ، ويخيل إلينا أن كلمة الوضع عند هؤلاء الرواة كانت
تطلق على من يبذل نشاطاً واسعاً في العربية كما كانت تطلق كذلك على
الواضع الحقيقي لأوليات النحو .

ومن هنا نجد نسبة الوضع الأول للنحو العربي تعزى الى كثيرين ،
ومن يفهم الجو العام للانتاج النحوي الأول في البيئات العديدة لا يجد
حرجاً في تفسير ذلك كما أنه لا يجد صعوبة كبيرة في استخلاص رأى يلس
فيه وجه الحقيقة معتمداً على أدلة جزئية أخرى تعززه وتقويه . وإذا كان
الرواة ، كما لاحظنا ، قد توسعوا في اطلاق كلمة « الواضع الاول للعربية » ،
فاستباحوا لأنفسهم اطلاقها على من بذل جهداً في تخليص العربية مما شابهها
من لحن وضعف فإنهم قد احتاطوا من ناحية أخرى فلم يطلقوها على
من أشرف على هذه المهمة من ولاية الأمر فلم نر ولم نسمع بأن
زياد ابن أبيه أو الحجاج بن يوسف الثقفي قد اشتركا في وضع النحو بالرغم
مما أبدياه من حرص على اللغة وقدماه من معاونه في سبيل تخليصها والمحافظة
عليها ؛ أما الأول فقد مد يد المساعدة إلى أبي الأسود الدؤلي ، وفي

بعض الروايات هو الذى أمره بوضع النحو وألح عليه فى ذلك ؛ وأما الثانى
فهو الذى باشر الخطوة الثانية فى المحافظة على اللغة وضبطها وذلك بنقط
الإعجام الذى وضعه نصر بن عاصم الليثى .

هذا وأمر نصر بن عاصم بالنسبة لوضع النحو يكاد يكون أدق وأشكلى
من أمر عبيد الرحمن بن هرمز ، ذلك أن نصر بن عاصم قد قام بخطوة
إيجابية فى ضبط اللغة العربية وحل كثير من إشكالاتها بواسطة نقط الإعجام
الذى أصبح ضرورياً بعد أن دخلت اللغة فى مرحلة الكتابة واتسعت فيها
دائرة التسجيل فكانت حاجتها الى ضابط يميز الحروف المتشابهة كالباء والتاء
والثاء والنون ، وكالسين والشين ، وكالذال والذال وكالراء والزاي ، وكالصاد
والضاد وكالطاء والظاء ... الخ .

نقول كانت حاجتها الى ضابط يميز هذه الحروف بعضها عن بعض لا
تكاد تقل عن حاجتها الى نقط الشكل الذى يميز أواخر الكلمات . وما يزيد
الموقف دقة بالنسبة لنصر بن عاصم هو أن بعض الرواة ينسب إليه أنه
وضع كتاباً فى النحو . بل إن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى يذهب إلى
أبعد من ذلك فيروى أن كتاب نصر بن عاصم يعتبر أول كتاب فى
النحو على التحقيق ^(١)

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١

ومع هذا فإننا نستطيع في غير كبير عناء أن نفهم موقفه فيها بطلان
إليه البحث ، ونستخلص حقيقة موقفه دون تعارض مع ما نسب إلى أبي
الأسود الدؤلى من وضع اللبنة الأولى في بناء النحو العربي . ذلك أن الخطوة الإيجابية
التي قام بها نصر بن عاصم ولم ينسبها واحد من الرواة - فيما اطلعنا - إلى
غيره ينبغي أن نخرجها عن دائرة النحو بالرغم من مساهمتها الفعالة في خدمة
اللغة وتخليصها عن كثير من الأخطاء التي كانت معرضة لها . وبالرغم كذلك
من مشاركتها إلى حد كبير في حركة تنقية اللغة التي امتاز بها عصر الدولة
الأموية في بيئة العراق .

وأما ما نسب إليه من وضع كتاب في النحو فهناك من الملابس ما
يجعلنا - على فرض صحته - نستسيغه ونقبله دون أن يكون ذلك مصدرا للطعن
في نسبة أولية الوضع في النحو لأبي الأسود الدؤلى ، ذلك أن المدة التي
عاشها نصر بن عاصم بعد وفاة أبي الأسود كفييلة بصهر بعض الملاحظات
النحوية والتوسع فيها ، ثم الاقدام على خطوة جديدة في ذلك الميدان
- خطوة التأليف والتدوين - بعد أن ظلت الملاحظات النحوية مدة من الزمن
تصدر عن أساتذة العربية مشافهة وتنقل عن طريق الرواية والسماع . فلقد
عاش نصر بن عاصم عشرين سنة بعد وفاة أبي الأسود أى من ٦٩ إلى
٨٩ هـ ، وهذه الفترة ليست بالبسيطة ولا بالقصيرة بالنسبة لتطور علم من
أهم العلوم العربية ؛ من حيث الضرورة إليه وخصوصاً في وقت بدأت

العقلية العربية تتصل بالعقلية الأجنبية وتستمد منها عناصر المعرفة الإنسانية وأوليات العلوم .

محتمل إذن أن يكون نصر بن عاصم قد ألف في النحو العربي كتاباً ، ومحتمل أيضاً أن يكون قد برز في العربية واحتل مكان الصدارة فيها بعد وفاة أبي الأسود ؛ وما يؤيد هذا الاحتمال ويزيدنا ثقة فيه واطمئناناً إليه هو أن الحجاج بن يوسف قد وكل إلى نصر بن عاصم دون سواه مهمة وضع نقط الاعجام وإزالة اللبس الخطير الذي كانت اللغة عرضة له بعد أن انتشرت الكتابة وأصبحت أداة لتسجيل المعارف ونقل الأفكار .

وإذا لاحظنا هذه الظروف التي أحاطت بنصر بن عاصم وبمكانته في العربية ، ثم أدخلنا في حسابنا تقدير القدماء وفهمهم لمعنى العربية وتوسعهم فيها لدرجة إطلاقها على كل مجهود يبذل من أجلها في سبيل المحافظة عليها وتخليصها من الشوائب التي لحقت بها أو كانت عرضة لها ، نقول إذا لاحظنا كل ذلك أمكننا أن نفهم في يسر نسبة بعض الرواة أولية الوضع في العربية إلى نصر بن عاصم دون أن يكون في هذا تعارض مع ما نسبته جمهورهم إلى أبي الأسود الدؤلي ، وذلك إما لتفرده بخطوة جديدة في ضبط اللغة وإما لتوسعه في المجهود الذي بذله معاصروه وعلى الخصوص بمجهود أبي الأسود ، وإما لوضعه أول كتاب في النحو كما سوغنا احتمال ذلك . وإن كان من العسير أن نطمئن إليه ؛ إذ أننا قد استعرضنا تراجم العلماء

وقوائم الكتب المؤلفة في فروع المعرفة العربية على اختلافها ، وذلك كله في كتاب الفهرست وهو أهم مرجع في ذلك وأوفاه على الإطلاق ، ومع ذلك لم نقف على أثر لذكر كتاب ألفه نصر بن عاصم في النحو ؛ وعجيب أن يسقط هذا الكتاب - ان كان قد وجد - من قوائم ابن النديم وهو العالم المحقق المدقق الجماعة .

والآن بعد مناقشة هذه الروايات المتضاربة في نسبة أولية الوضع للنحو العربي واستبعاد ما يمكن استبعاده منها وتعليل ما يمكن احتمال صحته نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون إن واضع اللبنة الأولى في بناء النحو العربي إنما هو أبو الأسود الدؤلي دون سواه ، ودليلنا على ذلك بعد اتفاق جمهور الرواة من القدماء على أنه الواضع الأول للعربية ما يأتي : -

أولاً - إن واحداً من هؤلاء الرواة ، حتى من بين من نسب الوضع الأول إلى غير أبي الأسود ، لم يتعرض لنفي هذه النسبة إليه ليتخذ من ذلك وسيلة لإثباتها إلى غيره على انفراد ، بل اكتفى بنسبة الوضع الأول إلى من يراه وترك لمن يأتي بعده مهمة الفهم والتفسير لمعنى الوضع في العربية والتأسيس لها . وإن من يدرس الظروف الاجتماعية إذ ذاك ، ومن ينظر نظرة شاملة وفاحصة معا في ملابسات هذا العلم وفي عدم الدقة وقلة التحري التي اتصف بها القدماء في تعبيرهم والتي كانت مثار الكثير من الشك

والخلاف بالنسبة لمن جاء بعدهم ^(١) ، نقول إن من يفعل ذلك لا يجد صعوبة في تعليل هذا التضارب واستخلاص حقيقة يطمئن إليها ويعتمد عليها وعلى هذا يسلم لنا تصحيح نسبة الوضع الأول لأبي الأسود ولا يطمعن في ذلك ما يرويه الآخرون من نسبة الوضع في العربية إلى غيره .

ثانياً - ما عثر عليه من آثار مادية قديمة تصور لنا ما ذكره الرواة خاصة بمجهود أبي الأسود في العربية ، ومن هذه الآثار مصحف مخطوط قد عثر عليه في مسجد عمرو بن العاص في مدينة القسطنطينية ، ويعتبر هذا الأثر حتى اليوم أقدم مصحف مخطوط في العالم ، ولا يزال بحالته التي وجد عليها في المكتبة الخديوية في القاهرة ، وهذا المصحف قد جمع في نسخه العملين اللذين قام بهما أبو الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم الليثي ، فالشكل الذي وضعه أبو الأسود قد رسم بمداد أحمر وبنفس الطريقة التي نسبها الرواة إلى أبي الأسود وأما نقط الاعجام فقد رسم بمداد أسود وبنفس الطريقة التي عرفت كذلك عن نصر ابن عاصم . وهناك أثر مادي آخر ينبغي أن يضاف إلى هذا المصحف ذلك هو عدد الصفحات التي كانت في مكتبة ابن أبي بكرة محمد بن الحسين ورآها صاحب الفهرست بنفسه وروينا نصه في هذا منذ قليل . وهذا الأثر وإن لم يصل إلينا إلا أنه ليس من السهل أن نطمعن فيه ،

^(١) قد لاحظ هذه الحقيقة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في الجزء الأول من

كتابه - تاريخ آداب العرب - ص ٣٣٧ هامش رقم ٢

لأن ابن النديم قد عرف بدقته في النقل والرواية ، فهو حين يرى بنفسه
يقول رأيت وحين يسمع من شخص يقول حدثني فلان أو سمعت من فلان ، وحينما
لا يطمئن إلى شيء أو لا يتأكد منه لا يتحرج من أن يقول - لم أر -
أو يصحب هذا القول بعبارة تدل على عدم اطمئنانه إليه ، وهكذا تفيض
تعبيراته من أول الكتاب إلى آخره بما يدل على تحفظه في النقل ودقته في
الرواية وصراحته في التعبير . ولو أدخلنا في حسابنا إلى جانب هذا ما هو
معروف من قصر الزمن بين أبي الأسود وابن النديم ، فالمسافة بين وفاة
الأول ومولد الثاني لا تكاد تتجاوز قرنين وربع قرن من الزمن ؛ إذ أن
الأول منها مات سنة ٦٩ هـ ، والثاني مات حوالي سنة ٣٨٠ هـ ، نقول لو
أدخلنا في حسابنا أيضاً هذا الاعتبار لضعف ثقتنا وأكد طمأنينتنا بما يذكره
لنا صاحب الفهرست .

وكل ما أمكن أن يوجه من نقد - فيما اطلعنا عليه - إلى هذه الصفحات
الأربع في النحر المنسوبة إلى أبي الأسود الدؤلي هو ما ذكره
الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ^(١) من أن أبا الأسود لم يكتب
بنفسه هذه الصفحات وإنما كان أصحابه هم الذين يكتبون ذلك عنه ، ثم
خلص الأستاذ الرافعي إلى القول بأن كل ما كتبه أبو الأسود بنفسه إنما هو صحيفة
في الأدب عرفت بتعليق أبي الأسود وكانت مصدر خلاف ومشار جدل

(١) - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١

بين النحاة ، سواء لدينا أكانت الصحائف الأربعة التي نسبها ابن النديم
إلى أبي الأسود من كتابة أبي الأسود نفسه أم من كتابة أصحابه عنه فإن
الذي يهمنا في هذا المقام إنما هو التأكد من أن ما تحتوى عليه هذه
الصحائف من النحو أو من الكلام في الفاعل والمفعول إنما هو من عمل
أبي الأسود الدؤلي ، ولا يطعن في ذلك أن تكون الصحائف قد كتبت
بيد شخص آخر ما دامت بمعرفته وتحت إشرافه ، كما لم يطعن في شكله
للقرآن بطريقة النقط أن كان ذلك بيد كاتب لئن ينفذ طريقة أبي الأسود
ويسجل ما يمليه عليه أبو الأسود .

ونظن بعد هذا أن ذلك التمهيد الذي قدمناه ، وتلك الخطوات التي
سلكناها في بحث هذه النقطة ، وهذه النتائج التي وصلنا إليها ، كل ذلك
كاف للتأكد من أن أبا الأسود كان الواضع الأول للنحو العربي .

ولنترك الآن - مكتفين بهذا - الكلام عن أبي الأسود ، ولننتقل إلى
الحديث عن نقطة أخرى فيها من الدقة ، ولها من الخطورة ما يجعلها في
كفة أخرى معادلة لمسألة الواضع الأول للنحو العربي ونعني بتلك النقطة
اللبنية الأولى في بناء النحو العربي .

ماهي اللبنة الأولى في بناء النحو العربي ؟

إن أمر هذه اللبنة - بعد الذي قدمناه - سهل ميسور ، فواضعها
هو أبو الأسود ، وهنا نجد من الخلاف والاضطراب عند القدماء بالنسبة

لهذه المسألة ما يعادل الخلاف والاضطراب بالنسبة للواضع الأول للنحو
 العربي ، وهامى ذى كتب الرواة تعرض علينا صورة مشوهة المعالم ، غير
 دقيقة الملامح عن أولية الوضع فى النحو ، تشبهه تماماً نفس الصورة التى
 رأيناها عن الواضع الأول لهذا النحو ، فمرة تطالعنا هذه الكتب بأن
 أول ما وضع أبو الأسود فى النحو العربى إنما هو باب التعجب ، وذلك
 على أثر لحنه بدرت من ابتذته فى صيغة التعجب ؛ ومرة أخرى تطالعنا هذه
 الكتب نفسها بأن أول ما وضع أبو الأسود إنما هو باب الفاعل والمفعول
 وذلك على أثر لحنه بدرت من شخص فارسى ؛ ومرة ثالثة تقرر هذه
 الكتب بأن أول ما وضعه أبو الأسود إنما هو حروف النواصب ، وذلك
 بإرشاد من على بن أبى طالب عليه السلام ، وقد يضاف إلى ذلك حروف
 الجوازم أيضاً ، ومرة رابعة تذكر هذه الكتب بأن أبا الأسود أول ما
 فكر فى النحو فكر فى الكلام ، ثم وضع أقسامه من اسم وفعل وحرف ،
 وهكذا من التشقيق ، والتفريع والخلاف ما يترك الباحث فى نفس الحيرة
 التى أحسنا بها وصورناها عندما كنا نتحدث عن الواضع للنحو العربى وفى
 الواقع أننا لو أهملنا عمل العقل ، واستسلمنا لسل ما ذكره الرواة دون
 تمحيص لانتبهنا إلى أن أهم أبواب النحو ، ورءوس مسائله ، بل وكثيراً
 من التفصيل فيها قد وضعها أبو الأسود الدؤلى ، وذلك صعب فهمه ،
 عسير قبوله إذ أنه كيف يتصور ذلك وما رأينا فى تاريخ علم من
 العلوم الانسانية أنه بدأ ، ونما ، وأشرف على الكمال فى حياة رجل واحد

وعلى يد رجل واحد ؟

إن حياة العلوم طويلة شاقة ، وتكون فيها لكي تثبت على اقدامها يحتاج إلى مجهود جبار ، لا من شخص واحد ، ولكن من جماعات متآلفة متعاونة ، وأما من الأمثلة على ذلك تاريخ النحو اليوناني وتاريخ النحو اللاتيني ، فالأول قد استفد أجيالا ولم يشرف على درجة الكمال إلا بعد قرون ؛ والثاني بالرغم من استعاضته بمنهج الأول ، وبمجهود رجال النحو اليوناني لم يثبت على قدميه إلا بعد مضي ما يزيد على ثلاثة قرون .^(١)

^(١) من الثابت أن النحو اليوناني بدأ يأخذ طريقه إلى الحياة في خلال القرن الخامس قبل الميلاد على أيدي أساتذة الحركة السوفسطائية في أثينا ؛ ثم أخذ ينمو ويستقل عن العلوم اللغوية الأخرى ، ولكنه لم يتم له ذلك إلا في أواخر القرن الثاني بعد الميلاد ؛ وكان ذلك على يد عالم يوناني من علماء الإسكندرية اسمه *Denys de Thrace* ؛ ومعنى هذا أنه استمر نحواً من سبعة قرون من الزمن ؛ وهذا مع ما هو معروف عن اليونان من ثقافة ونشاط ، ومع ما امتازوا به من سعة المعرفة ، وطول الباع في الأبحاث العلمية .

أما النحو اللاتيني فتمد بدأ بدوره في خلال القرن الثاني قبل الميلاد بفضل مجهود عالم لغوي لاتيني يسمى *Varro* ؛ ولكنه لم يكمل إلا في خلال القرن الثاني بعد الميلاد على يد نفس العالم اليوناني *Denys de Thrace* ؛ أي أنه بقي أكثر من ثلاثة قرون .

ولكى نتصور المجهود العنيف فى ذلك ، والصعوبة التى يتعرض لها العلم فى تأسيسه وتكوينه نأخذ جزئية واحدة من جزئيات النحو العربى فنتمثلها فى عهدىها الاول ، ونتصورها على حقيقتها ، ولتكن هذه الجزئية أقسام الكلام اسم ، وفعل ، وحرف ، او حروف النواصب ، إن ، وأن ، وكأن ؛ ولكن ، وليت ، ولعل ؛ او نواصب المضارع - أن ولن ؛ واذن ، وكى ؛ وحتى ؛ ولام التعليل ؛ او ... او ... الخ .

قد يبدو لنا الآن سهولة تصور انحصار الالفاظ العريضة فى الاسم ، والفعل ، والحرف ؛ او انحصار حروف النصب للأسماء فى إن ، وأن ، وكأن ، ولكن ، وليت ، ولعل ؛ غير أن هذه السهولة ليست فى الواقع إلا ثمرة مجهود أجيال عديدة ، وطوائف من العلماء قد أفنوا حياتهم فى الدرس ، والتحصيل ، ثم فى الشرح ، والتفصيل . ولكن جزئية من هذه الجزئيات كانت تتطلب حتماً من يعرض لها قبل وجودها ، ويريد وضع إحصاء لها قبل تأسيسها ؛ نقول إن بحث جزئية من هذه الجزئيات كان يتطلب حتماً استقراراً شاملاً للغة ، ومفرداتها ، واستيعاباً عاماً لنصوصها ، وتراكيبها ، وأساليبها ، حتى يمكن حصر مفردات هذه الجزئية ، ومعرفة استعمال هذه المفردات ، وعقد المقارنات بين أساليبها فى الاستعمال ، ومعرفة أوجه الشبه بين هذه المفردات من ناحية اللفظ ومن ناحية المعنى ومن ناحية العمل ، ثم إدراك الفروق بين هذه المفردات فى كل ذلك حتى يمكن

الجمع بينها في باب واحد من حيث الوظيفة ، والعمل ، والفرقة بينها في
 نفس الباب من حيث اللفظ والمعنى ، وليس ذلك كله بالشئ الهين اليسير .
 إن الباحث الناقد لمثل هذه المسألة ، لو لم يكتب ، في إدراك
 خطورتها ، وتصوير صعوبتها ، بما أشرنا إليه من تفرع البحث ، وامتداد
 جوانبه ، وتعدد أطرافه ، وبما قدمناه من الكلام في تاريخ العلوم ،
 وخصوصاً النحو اليوناني ، واللاتيني ؛ نقول إن الباحث الناقد ، لو لم
 يكتب بذلك ، ينبغي أن يطلع على النصوص الأدبية التي كانت معروفة
 في صدر الإسلام ، ويقرأ التاريخ ، ويلم بسير العلماء الأوائل في الإسلام ،
 ويعرف الكثير عن تاريخ نشأة العلوم الإسلامية ، ثم يعود بخياله وذاكرته
 إلى الوراء ليعيش فترة من الزمن ، على ضوء ذلك مع أبي الأسود
 الدؤلي ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون بن الأقرن ، ونصر ابن
 عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، وعيسى بن عمر الثقفي ، وأبي عمرو ابن
 العلاء وعبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، ويونس بن حبيب ؛ ليرى كيف كان
 هؤلاء الرجال يشارسون العلم ، ويواجهون مسائله ، ثم يتبادلون الرأي
 في نواحي المعرفة ، وليسمع ما كان يدور في حلقات الدرس ، في البيوت
 نارة وفي المساجد أخرى ، من الكلام في اللغة ، وفي النحو ، وفي الصرف ،
 وفي الأدب ، وفي الدين ، وفي التفسير ، وفي الحديث ، بل وفي غير ذلك
 من الكلام في السياسة ، وفي التاريخ ، وفيما يتعلق بشئون المجتمع ،

وليفهم كيف كان هؤلاء العلماء يستقون معارفهم وإلى أى المراجع يرجعون ،
وكيف كان طلابهم يحون تلك المعارف ، وأى المناهج فى تنظيمها يسلكون ،
ثم ليعد إلينا بعد ذلك يحدثنا عما رأى ، وما سمع ، وما فهم . وما نظننا
مغالين حين نقول : إنه سيحدثنا عن خليط هائل من المعرفة لا
يكاد المرء يميز فيه مادة عليية من مادة عليية أخرى ،
واستطراد طويل فى التول قد يكون فيه من دواعى الإغراء ، ووسائل
التشويق ما يمسك الانتباه ، فإذا ما تابع الطلاب الأستاذ ، وانتهوا معه
إلى آخر الكلام يكون قد غاب عنهم أوله ، وطريقة أخرى فى فهم
الأمور ومعالجتها ، وفى منهج التفكير وأساليب التعبير .

ولإذن فكيف يمكن أن نقبل كل ما نسبته الرواة إلى أبى الأسود
من وضع فى النحو ؟

يخيل إلينا أننا لو استسغنا كل ما عزوه إلى أبى الأسود ولم نحتكم فيه إلى
طبيعة العلوم ونشأتها ، ولا إلى طبيعة البيئة التى كان يعيش فيها أبو الأسود
لظهر لنا من خلال أقوالهم علم فى النحو يكاد يكون واضح المعالم ،
مستوفى البحث ، محدد الأهداف ، بل ربما كان نحو أبى الأسود أدق نظاما
وأكثر تفصيلا من نحو سيبويه وبينهما نحو قرن من الزمان ؛ وليس
أمام القارئ ، لكى يستوضح هذه المسألة ، سوى أن ينظر فى باب الفاعل
وفى باب حروف النصب للأسماء من كتاب سيبويه ، سبرى فى الأول

خليطاً من المعارف ، واضطراباً في القواعد ، فهناك كلام في الفاعل ، وفي
النائب عن الفاعل ، وفي الفعل المتعدي ، وفي الفعل اللازم ، وفي الفعل
المبني للعلوم ، وفي الفعل المبني للجهول ، وفي الفعل المتعدي إلى مفعولين ،
وفي الفعل المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل ، ثم يستطرد فيذكر الأفعال الناسخة
مثل كان وأخواتها مقارناً المبتدأ والخبر بالفاعل والمفعول . (١)

وسيرى في الثاني قصوراً وعدم شمول ، فهناك الحروف النواصب خمسة ؛
بينما هي في نحو أبي الأسود ستة . (٢)

وبعد الذي قدمناه من عرض سريع للبيئة العربية ، والمجتمع العربي أيام
أبي الأسود ، ومن كلام موجز عن طبيعة العلوم الإسلامية ونشأتها
نستطيع أن نقرر في صراحة أن منهج البحث العلمي الحديث ليس على
استعداد لقبول كل الروايات التي تنسب وضع النحو إلى أبي الأسود
الدؤلي ، ولسنا كذلك على استعداد - مخافة الإطالة - لمناقشة كل هذه

(١) انظر كتاب سيبويه ج ١ ص ١٠ - ٢٨ . طبعة باريس سنة ١٨٨١ م

(٢) انظر كتاب سيبويه ص ٢٤١ - ٢٥٠ من الجزء الأول طبعة باريس

سنة ١٨٨١ م . حيث ينص مرات على أن هذه الحروف خمسة ، وانظر
كذلك - إنباه الرواه على أنباء النحاة للقفطي ج ١ ص ٤ طبعة دار الكتب
المصرية سنة ١٩٥٠ م حيث يعد هذه الحروف ستة بطريقة واو العطف
التي تقتضي المغايرة ؛ وهو ينسب ذلك إلى أبي الأسود وعلى بن أبي طالب .

الروايات وتفنيدها ، مكتفين - على سبيل المثال - بما أشرنا إليه من تفنيد بعضها هنا ، وبما قدمناه من مناقشة لآراء العلماء بالنسبة للواضع الأول للنحو العربي هناك .

وإذن فإن الذى نستطيع أن نطمئن إليه ، ونقرره على ضوء ما تقدم حتى الآن ، هو أن اللبنة الأولى التى أرساها أبو الأسود الدؤلى فى بناء النحو العربى كانت شكله للقرآن عن طريق النقط كما أجمع الرواة على ذلك ، ونرجح أنه بعد أن تمت له هذه الخطوة - وهى ليست باليسيرة كما تتصورها الآن - قد تلاها ، وربما يكون قد صحبها كلام وملاحظات عما هو مرفوع وعما هو منصوب ، وعما هو مجرور ؛ ومدى هذه الملاحظات وذلك الكلام ليس من السهل أن تتبينه ، ولا أن نحده ، فقد ضاعت كل الآثار المادية التى تنير أمامنا الطريق فى هذا . ولعل طول المدارس ؛ وكثرة المناقشة بين أبى الأسود وطلابه قد قادتاهم إلى الكلام فى معنى التعجب ، وفى معنى الفاعلية والمفعولية ، غير أننا نشك كثيراً فى أنهم بوبوا للنحو ، وفصلوا فى قواعده ، ووضعوا له هذه المصطلحات العلية التى تطالعنا فى روايات المتقدمين ، وفى كتب المتأخرين .

ولسنا فى هذا نتجنى على الرواة ، ولا نلقى القول على عواهنه ، ولكننا نحتمكم إلى الآثار المادية الوحيد الذى حدثنا عنه وعن ضياعه عالم ثقة ليس من السهل أن نطعن فيه ؛ ذلك هو ابن النديم صاحب الفهرست ، إذ

يقول عن الأوراق التي رآها عند ابن أبي بكرة أنها كانت تحتوى على كلام
 في الفاعل والمفعول من أبي الأسود : ولم يقل إنها تحتوى على باب الفاعل
 وباب المفعول ، ^(١) ونرجح كذلك أن هذه الملاحظات النحوية التي
 بدأ بها أبو الأسود وتبعه فيها طلابه قد بقيت ملاحظات تتناول النصوص
 الأدبية من شعر ونثر حتى النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ، أي
 حتى عهد عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، ويونس بن جبيب ، والخليل بن
 أحمد ؛ ولم ترق هذه الملاحظات النحوية إلى أن تكون قواعد مجردة ،
 لا صلة لها بالنص الأدبي نفسه ؛ وذلك كأنه يقال مثلا إن حروف النصب
 في الفعل المضارع هي كذا وكذا ، أو الحروف الناصخة لحكم المبتدأ والخبر
 هي كذا وكذا أو الحروف التي تجر الأسماء هي كذا وكذا ... الخ ؛
 وإنما كانت النصوص الأدبية نفسها هي ميدان الملاحظات ، ومادة الدرس ،
 وعماد النقاش ، كأن يقال مثلا إن هذا الفعل المضارع في هذه الجملة قد
 نصب هنا ولم يرفع كما نصب الفعل المضارع في بيت من الشعر لامرئ
 القيس ، أو للنايعة ، أو للأعشى ثم يذكر نص البيت ، وربما يورد كل
 ما تستحضره الذاكرة من الشواهد الأدبية في هذا ؛ وهكذا يمضي النحويون
 في مناقشاتهم وفي ملاحظاتهم الخاصة بالمسائل النحوية كرفع الاسم إذا
 وقع في أول الجملة أو بعد لفظ يدل على حدث ، ونصبه إذا كان دالا على

(١) انظر الفهرست ص ٦٠ - ٦١

زمان ، أو مشيراً إلى مكان أو مبيناً لحال ذات من الذوات .

وبدلنا على صحة ذلك أمران نذكرهما باختصار :

الأمر الأول : هو ما نجده في النحو اليوناني أو النحو اللاتيني عند نشأة كل منها على أيدي أوائل النحاة اليونانيين واللاتينيين ؛ فقد كانت مسائل النحو إذ ذاك عامة ومنصبة على نصوص الأدب من شعر ونثر ، ولم تصل إلى مرحلة القواعد المنضبطة ، ولا إلى التجريد العلى المطلق إلا بعد أجيال .

الأمر الثاني : هو ما نجده من صورة واضحة لتلك الملاحظات والمناقشات في أقدم أثر نحوي وصل إلينا ، وهو كتاب سيبويه ؛ فإننا لو نظرنا فيه بإمعان لوجدناه يطالعنا في كل أبوابه بأمثال هذه الملاحظات ، وعلى الخصوص حينما ينقل إلينا في ثانيا مسائله آراء يونس بن جبيب ، أو آراء الخليل بن أحمد .

وإذا أضفنا إلى هذين الأمرين تصورنا للبيئة العربية في صدر الدولة الأموية ، وما كانت تتحمله العقلية العربية إذ ذاك من معرفة علمية ، ومقدرة على التجريد ؛ نقول إذا أضيف هذا إلى الأمرين السابقين ظهر لنا في وضوح نوع النحو الذي وضعه أو فكر فيه أبو الأسود الدؤلي ، وعز علينا قبول الروايات التي تنسب إلى أبي الأسود وضع أبواب منظمة وضوابط مجردة في النحو العربي كالرواية القائلة بأنه وضع باب الكلام وقال إنه يشتمل على اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ؛ أو الرواية الأخرى القائلة بأنه وضع باب النواسخ ، وقال - بعد مشاورة علي بن أبي طالب - إنه يشتمل على إن ، وأن ،

ولكن ، وكان ، وليت ، ولعل ١١١ (١)

ولم نذهب في استدلالنا بعيداً ، ونحاول في إثبات ما نحن فيه هنا أن نلجأ إلى طريق العقل ، والمقارنة ، وذلك أشبه ما يكون بطريق التجريد الذي نحاول أن نهدمه ، أو نستبعده في هذه المسألة بالذات ؛ نقول لم نذهب في هذا بعيداً وأماننا من الأشياء المادية في ذلك العصر بالذات ما يصور طبيعة العقلية ، ويوضح نوع العمل الذي كان يشغل نخاع العرب في ذلك الوقت ؟ إن طريقة نقط الشكل عند أبي الأسود ، وطريقة نقط الإجمام عند نصر بن عاصم كلتاهما ترينا عملاً آلياً ، بدائياً ، بعيداً عن معنى التجريد ، ويكاد لا يكون للعقل أى تدخل فيه ؛ فكيف يتلاءم هذا العمل الآلى « الميكانيكى » مع التجريد المطلق ؛ الذى نلاحظه في أبواب النحو المنسوبة إلى أبي الأسود الدؤلى ؟

أما طريقة الشكل ، وهى اللبنة الأولى في بناء النحو العربى ، فقد استمدتها أبو الأسود الدؤلى من النحاة السريانيين ؛ ونحن نقرر مبدئياً بأنه ليس فى ذلك ما يضير النحو العربى ، ولا ما يقلل من قيمة مجهود أبى الأسود فيه . إن موقف أبى الاسود فى هذا يشبه إلى حد كبير موقف الكثير منا

(١) انظر إنباه الرواه على أنباه النحاه للقبطى ج ١ ص ٤ - ٥ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠

الآن ؛ فنحن نحاول أن نتصل بالغرب نتعلم لغته وندرس ثقافته ، ونعرف
مناهج البحث عنده ؛ وإذا ما ألمنا بشيء من ذلك عدنا إلى معارفنا الخاصة ،
واتخذنا من فروعها المختلفة ميدانا لتطبيق تلك المناهج لكي نبحث ثقافة
الشرق بحثاً جديداً ، ومع ذلك فلم يقل ، ولا ينبغي أن يقال إن هذا
الصنيع يسئ إلى معارفنا ، أو يقلل من شأن القائمين به . هذا وإن من
يدرس تاريخ الحضارات ، ويقف على ما فيها من تداخل ، وما بينها من
صلات يستطيع أن يدرك في سهولة سلامة موقف أبي الأسود ، بل عظمة
صنيعه هذا في خدمة اللغة والنحو على السواء . إن الحضارة الإغريقية
القديمة قد أسست على صلاتها بالحضارة البابلية - الآشورية من ناحية ،
وبالحضارة المصرية القديمة من ناحية أخرى ؛ ومع هذا فلم يمنعها ذلك من
أن تسود العالم ، وتملأ شعوبه بمبادئها العديدة ، ومعارفها المختلفة .
ولدينا من الأدلة ما يبين في وضوح أن أبا الأسود قد استمد طريقة
نقط الشكل من لدن النحاة السريانين ؛ من هذه الأدلة أن أبا الأسود قد
اتخذ بيئة العراق موطناً ، وكان بها والياً إدارياً ، وفيها عالماً لغوياً ، وزعيماً
دينيّاً ؛ ونحن نعلم أن هذه البيئة كانت قبل الفتح العربي ، وبعده مغزوة
باللغة السريانية ، وبالمعارف السريانية ؛ وكانت إلى جانب ذلك
أهلة بالعلماء السريان ، وميداناً لدراساتهم ، ومناقشاتهم ، وجدلهم ،
لا في الناحية الدينية ، أو الفلسفية فقط ، ولكن في مختلف العلوم الإنسانية ،

ومنها اللغة والنحو ؛ ونعلم أيضاً أن اللغة العربية قد تعرضت - بعد اتساع
الفتوح الإسلامية - إلى نفس الازمة التي تعرضت لها اللغة السريانية في
خلال القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد ؛ ظهور لغات أخرى في ميدان
الحديث والكتابة ، وانتشار اللحن بين الناطقين ، والخوف من أن يمتد
هذا اللحن إلى نصوص الكتاب المقدس . //

هذه هي مظاهر الازمة التي مرت بها اللغة السريانية في القرنين الرابع
والخامس الميلادى ، واللغة العربية بعد اتساع الفتوح . ولقد كان من
نتائج هذه الازمة عند السريان أن فكروا في وضع ضوابط لشكل كتابهم
المقدس ؛ ولم تكن هذه الضوابط سوى طريقة النقط التي استعملها أبو
الاسود الدؤلى في ضبط شكل القرآن . من هذا نرى أن المقدمات متشابهة
والظروف متشابهة ، والنتائج متشابهة ، وكلا العاملين قد حدث في بيئة واحدة ؛
أليس من العناد إذن أن نقول إن أبا الاسود الدؤلى لم يستمد طريقة نقط
الشكل من السريانيين الذين سبقوه بنفس العمل ؟

بقي علينا أن نوضح كيف اتصل أبو الاسود باللغة السريانية وبعلمائها ؛
والامر في ذلك سهل ؛ إذ أن صلته بالعلماء ليس من السهل أن يشك فيها ؛
فقد كانوا الطبقة المستنيرة المثقفة في بيئة العراق ، وكانوا فوق ذلك
يمارسون نشاطاً في هذه البيئة لا يجارى من ناحية الدرس ، والتفكير ؛ ولا
يفغى مطلقاً لعالم دينى لغوى ، وحاكم إدارى كأبى الاسود أن يجهل وجود

هذه الطبقة ؛ فهو لابد وأن يكون قد اتصل بها ، وخالطها ، وتحدث إليها ،
وتعرف على كثير مما تهتم به من المسائل العلمية ؛ وإذا كان الأمر كذلك
فليس هناك ما يستلزم أن يكون أبو الأسود قد تعلم اللغة السريانية لكي
يأخذ منهج شكل النصوص الدينية عن أصحابها ؛ فمن الممكن جداً أن يأخذه
عن طريق الترجمة ، سواء من العرب الذين يعرفون السريانية ، أم من
السريانيين الذين يعرفون العربية . على أننا نظن بل نرجح أن أبا الأسود
كان يعرف اللغة السريانية معرفة تمكنه من التفاهم بها ، وقراءة بعض
نصوصها إلى حد ما ؛ وذلك لإقامته الطويلة في بيئة العراق ، واهتمامه
الشديد بالأبحاث اللغوية والدينية أثناء إقامته في تلك البيئة ، وهي تكاد
تسكون بيئة سريانية في أول عهد اتصال العرب بها ، ولما ورد في الآثار
من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه قد حثوا على تعلم اللغات
الأجنبية وأولاهها في ذلك الوقت ، بالنسبة للمهتمين بالبحث ، والمعرفة ،
والتفكير ، هي اللغة السريانية .^{١٧}

ومما يشهد بذلك ما عرف من أن علي بن أبي طالب كان ينطق في
أحاديثه أحياناً بألفاظ أجنبية ، مثل كلمة - قالون - باللغة اليونانية .^(١)

^(١) انظر فقه اللغة للثعالبي ص ٤٥٥ القسم الأول ؛ ويلاحظ هنا أن الثعالبي
يذكر أن هذه الكلمة رومية ، وهو من قبيل الخلط عند القدماء في تسمية ما
هو يوناني بالرومي .

ومثل هذا ، وإن كان قد استعمل على سبيل التبسط أو الفكاهة من
الإمام على كرم الله وجهه ، إلا أنه كان بمثابة الدعوة الصريحة لتعلم
اللغات الأجنبية ؛ ونحن نعلم مبلغ ما تحدثه إشارة الرئيس أو كلمته من
أثر في المجتمع ؛ فقد تكون كلمة تلقى ، أشد تأثيراً وأسرع سرياناً في الشعب
من كتاب يؤلف أو قانون يوضع .

ولعل القارئ لا يجد صعوبة في فهم الصلة بين طريقة النقط التي وضعها
أبو الأسود لشكل النص القرآني ، وبين النحو العربي ؛ إذ أنها كانت بمثابة
الخطوة الأولى التي يشار حولها كلام في الموضوع ، وفي المنصوب ، وفي
المجروح ، وفي الساكن . وحكاية أبي الأسود مع زياد ابن أبيه ، وطلبه
كاتباً لقنا يكتب ما يملئ عليه ، وشرحه لطريقة الشكل الذي يريده ؛ كل
ذلك مبين واضح في المصادر القديمة مثل الفهرست لابن النديم ^(١) وإنباه
الرواة على أنباه النحاة للقطي ^(٢) ولا يزال لدينا حتى الآن أثر قديم
يشرح لنا هذه الطريقة عملياً ولا يدع مجالاً للشك في تطبيق طريقة أبي
الأسود ؛ ذلك هو مصحف قد وجد في مسجد عمرو بن العاص في القاهرة
ولعله أقدم مصحف مخطوط في العالم ، قد شكل بنفس الطريقة التي شرحها
أبو الأسود لكاتبه ؛ ومن حسن الحظ أن عشر على هذا المصحف ولا يزال

^(١) الفهرست ص ٦٠

^(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة ص ١٠ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠

محفوظاً في دار الكتب المصرية .

\\ ونعود الآن فنقرر أن الذي وجد من النحو العربي في أيام أبي الأسود هو ما وضعه من طريقة الشكل للنصوص القرآنية ثم بعض ملاحظات عامة مجملة على الفاعل والمفعول ، وربما على غير ذلك أيضاً مما لا يخرج عن دائرة الإجمال . ١١

وهنا نتف بالبحث عند هذه النقطة ونترك النحو العربي وليدا لا يستطيع أن يثبت على قدميه ، ونعبد في نفس الوقت بأن نوالى البحث في مراحل تطور هذا العلم عند العرب ، وإلى أى حد كان يعتمد على الأثر الأجنبي ، وسيكون هذا في كتاب آخر أو في جزء خاص يتبع هذا الكتاب .

وبعد فإننا ، جرياً على سنن التأليف من ذكر نتائج البحث في فصل خاص أو خاتمة ، نعلن أننا كنا نضع أمام أعيننا دائماً رسم منهج على صحيح لدرس بعض المسائل ، ومناقشة بعضها الآخر ، ونظن أننا حققنا هذا الغرض واستطاع القارئ أن يلمس ذلك فيما تعرضنا إليه من أول الكتاب إلى آخره .

أما النتائج فإننا نستطيع أن نختصرها فيما يأتي :

أولاً : الاهتمام إلى فكرة عالية صحيحة عن اللغة ، ونشأتها ، وتطورها ، وعلى الخصوص اللغة العربية .

ثانياً : درس نظرية النحو بمعناه الفني ، ومعرفة مدى ما يستفيد الدارس من وراء هذه النظرية بالنسبة لنشأة اللغة ونموها ، وبالنسبة لموقف النحاة منها ، وفهمها لها ، وتأسيس قواعدهم عليها .

ثالثاً : معرفة نظرية النحو بمعناه العلمي ، ثم الاهتمام إلى رأى واضح في نشأة النحو العربي ، ومعرفة واضعه الأول وبيان خطواته الأولى . والله نسأل أن يوفقنا للوفاء بما وعدنا !!

فهرست المراجع

يرى القارىء هنا مجموعة من المراجع وقد يبدو له فيها شيء من الخلط ، ولكننا راعينا في ترتيبها أن تكون في طائفتين : الأولى - المراجع العربية ؛ الثانية - المراجع الأجنبية ما بين يونانية ولا تينية ، وفرنسية .
ثم إننا رتبنا كل طائفة ترتيباً أبجدياً حسب عنوان الكتاب ، ضاربين صفحاً عن المؤلف ، وتاريخ التأليف .

المراجع العربية :

- ١ : ابراز المعاني من حرز الأمان لشهاب الدين أبي القاسم المقدسي « مخطوط »
- ٢ : إحياء النحو للاستاذ ابراهيم مصطفى
- ٣ : أسواق العرب للأفغانى
- ٤ : إظهار الأسرار (مخطوط)
- ٥ : الأملى للقالى
- ٦ : البيان والتبيين للجاحظ
- ٧ : الأزمدة والامكنة للبرزوقى
- ٨ : الأصابه لابن حجر
- ٩ : الإشتقاق والتعريب لعبد القادر مصطفى المغربى
- ١٠ : الاغانى لأبى الفرج الاصفهانى
- ١١ : الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى
- ١٢ : البحر المحيط لأبى حيان محمد بن يوسف
- ١٣ : الجامع الصحيح للبخارى
- ١٤ : الخصائص لابن جنى
- ١٥ : الدرر اللوامع على جمع الجوامع للشنقى على
- ١٦ : الرد على النجاة للقرطبى (نشره الدكتور شوق ضيف)
- ١٧ : الشعر والشعراء لابن قتيبه
- ١٧ : الصاحبى لابن فارس
- ١٩ : العراق وما توالى عليه من حضارات للدكتور حسن عون
- ٢٠ : العربية ليوهان فوك (ترجمة الدكتور النجار)
- ٢١ : العوامل المائه للجرجاني
- ٢٢ : الفهرست لابن النديم
- ٢٣ : الفیصل بشرح المفصل للأستاذ محي الدين
- ٢٤ : القراءات واللمحات للأستاذ حموده
- ٢٥ : القرطية لابن قتيبه
- ٢٦ : الكامل للبرد
- ٢٧ : الكتاب لسيبويه
- ٢٨ : اللغات فى القرآن لاسماعيل بن عمرو المقرئ
- ٢٩ : المثل السائر لابن الاثير
- ٣٠ : المختص لابن سيده
- ٣١ : المزهرة للسيوطى
- ٣٢ : المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية
- ٣٣ : المغنى لابن هشام
- ٣٤ : المفصل للزخشرى

- ٣٥ : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٥٧ : شذور الذهب لجمال الدين بن هشام
السكريم محمد فؤاد عبد الباقي الانصارى
- ٣٦ : المعجم في بقية الاشياء لأبي هلال ٥٨ : شرح الاشتموني على ألفية ابن مالك
العسكري للاشتموني
- ٣٧ : المقابسات لأبي حيان التوحيدى ٥٩ : شرح المفصل لابن يعيش
٣٨ : النوادر في اللغة لأبي زيد الانصارى ٦٠ : صبح الاعشى للقلقشندي
- ٣٩ : الوساطة للجرجاني ٦١ : صفة جزيرة العرب للهمداني
- ٤٠ : بغية الوعاه للسيوطي ٦٢ : طبقات الشعراء لابن سلام
- ٤١ : بلوغ الأرب للأوسى ٦٣ : فجر الاسلام للاستاذ احمد أمين
- ٤٢ : تاريخ اليعقوبى لليعقوبى ٦٤ : فقه اللغة للعالي
- ٤٣ : تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق ٦٥ : قصة الحضارة للاستاذ ول
الرافعى ديورانت (ترجمة الاستاذ محمد بدران)
- ٤٤ : تسميل الامانى في شرح عوامل ٦٦ : معانى القرآن للفراء
- الجرجاني للشيخ احمد بن محمد بن مصطفى ٦٧ : معجم الادباء لياقوت
- ٤٥ : تفسير جامع البيان للطبرى ٦٨ : معجم البلدان لياقوت
- ٤٦ : تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازى ٦٩ : مقدمة ابن خلدون لابن خلدون
- ٤٧ : تفسير الكشاف للزخشري ٧٠ : نزهة الالباء في طبقات الادباء
- ٤٨ : التيسير في التفسير لعمر بن محمد النسفى لابن الأنبارى
- ٤٩ : حاشية الامير للامير ٧١ : نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها
- ٥٠ : حاشية الخضرى على ابن عقيل للخضرى للاب انستاس مارى السكرملى
- ٥١ : حاشية الدسوقي على المغنى للدسوقي ٧٢ : نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة
- ٥٢ : حاشية الهبان على الاشتموني للصبان ٧٣ : نقد النثر لقدامة
- ٥٣ : حاشية الشهاب على اليبضاوى للشهاب ٧٤ : همع الهوامع على جمع الجوامع
- ٥٤ : خزانة الادب لعبد القادر البغدادى للسيوطى
- ٥٥ : رغبة الآمل من كتاب الكامل ٧٥ : وادى الرافدين مهد الحضارة
- للشيخ سيد المرصفي للاستاذ ليونارد وولى تعريب احمد
- ٥٦ : السيرة لابن هشام عبد الباقي

المراجع الأجنبية

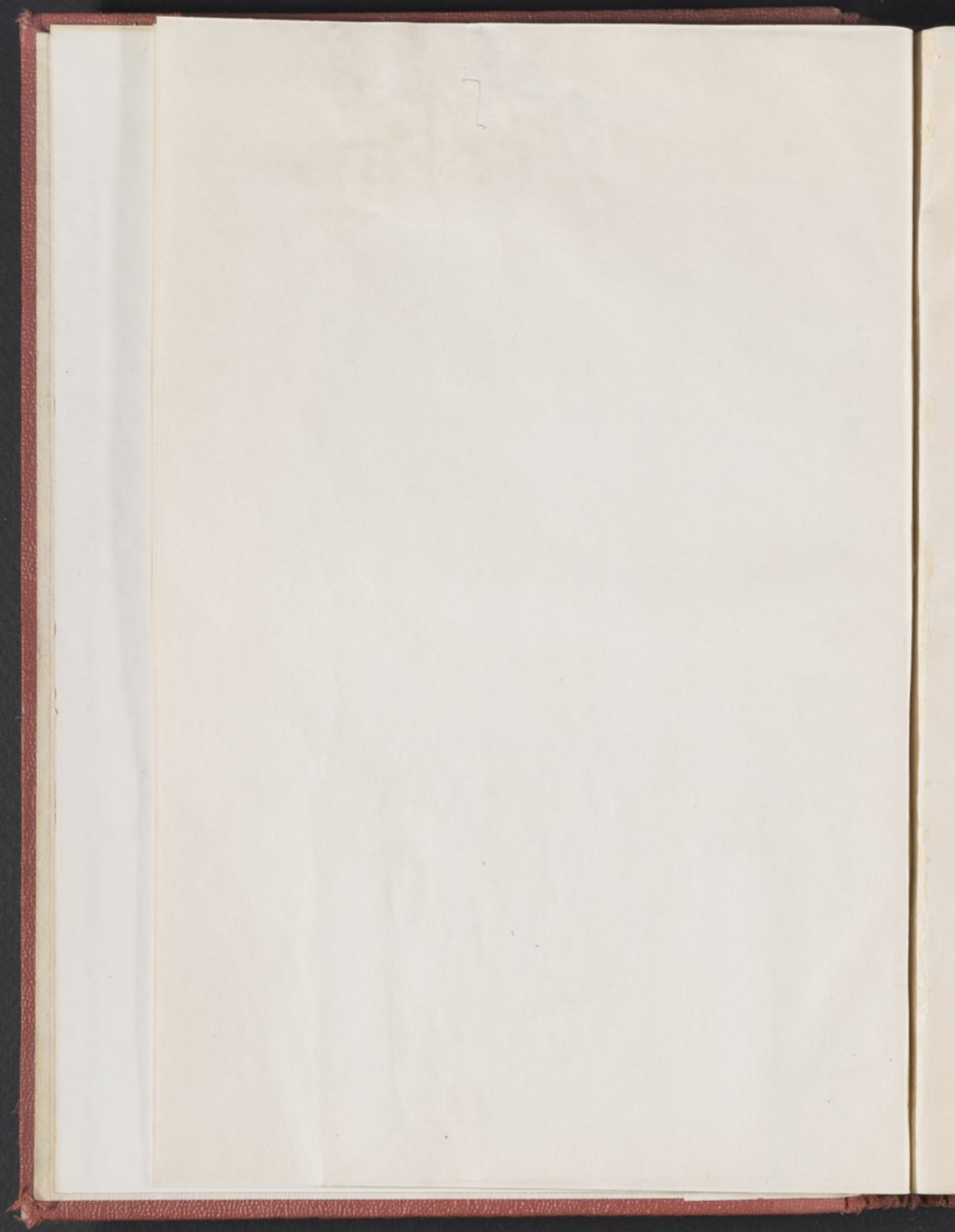
- 1-Aeneida Virgilius
- 2-Annales P.Cornelius Tacitus
- 3-Bibliothèque historique de Diodore de Sicile
- 4-De Lingua Latina Varro
- 5-De Natura deorum Cicero
- 6-A Grammar of the Classical arabie language by Martimer .S.Howell
- 7-Grande Encyclopedie française
- 8-Histoire Herodote
- 9-Historiae P. Cornelius Tacitus
- 10-Histoire des lettres Amedée Duquesnel
- 11-Histoire générale des langues sémitiques par. E. Renan
- 12-Histoire de la litterature francaise des origines à nos jours. par
ch. M. des granges
- 13-Histoire illustrée de la litterature latine par g. humbert
- 14-Institutio oratoria Fabius Quintilianus
- 15-La poésie latine par Frédéric Plessis
- 16-L'Exeploration de l'arabie depuis les temps anciens j usqu'à nos
jours. R.H Kiernan traduit de l'anglais par charles moury
- 17-le genie litteraire parDr. A.Remond et Paul Vouvencel
- 18-Manuel d'Histoire de la litteratnre grecque par Alfred croiset et
maurice croiset
- 19-Nouvelle histoire grecque par Robert Cohen
- 20-Nouvelle histoire romaine par guglielmo Ferrero

التصويب

ص	س	الصواب	ص	س	الصواب	ص	س
٥	٩	لثقتت	٩	٧٨	المأذبة	٩	٧٨
١٣	١٨	نذكر	١٣	٧٨	لا تتصور	١٣	٧٨
١٤	٢	اهداء	١٤	٣٨	الفارسي	١٤	٣٨
١٦	١٣٨	في عهد عضد الدولة	١٦	٢٨	عرضها	١٦	٢٨
٢١	٧٨	ويشهد لذلك بما	٢١	٩	التشريع	٢١	٩
٣٠	١٣	الطفل	٣٠	١١	إذ أنه	٣٠	١١
٣٢	٢	فهو لا يستطيع بعد ، أن	٣٢	٦	البابليين	٣٢	٦
٣٧	٧	فكل	٣٧	١٧	إلى دراسة	٣٧	١٧
٥٠	٢	وقد انتهينا من ذلك	٥٠	٩	ولكننا حين نجرد	٥٠	٩
٥١	١٦	لم يكن يدخل	٥١	١٥	لا ينطق باللعن	٥١	١٥
٥٨	٧	عن سبب بقاء	٥٨	٣	أهلي	٥٨	٣
٦١	١٨	ص ٤٨٨	٦١	١٦	يا أبتا	٦١	١٦
٦٤	١٤	ما تعد لنا حسابا	٦٤	١٦	٢ - وأما ما نجده	٦٤	١٦
٦٨	٢٨	احدى عشرة	٦٨	٣	منقطر به	٦٨	٣
٧١	٩	يا حسينان	٧١	٤	انستاس	٧١	٤
٧٤	١٦	المعنى	٧٤	٦٨	أن يشاركها غيرها فيها	٧٤	٦٨
٧٦	١٦	بنو عامر	٧٦	١	تجد	٧٦	١
٧٩	١٢	لا يدرون	٧٩	٨	برفع	٧٩	٨
٨٢	١٠	يا أبتا	٨٢	١	ملاحيها	٨٢	١
٨٨	٥	نصب	٨٨	١٠	وأت أمرها قاصدا	٨٨	١٠
٨٨	١٨	الكتاب ج ١ ص ١٤٣ ط مصر	٨٨	٥	هيجنى	٨٨	٥
		ص ١٢٠ ط باريس وهناك خلاف		١٣	ويضاف		١٣
		بين الطبعين		١٢	البرة		١٢
٩٣	١٥	تقرر	٩٣	٤	في هذا المظهر	٩٣	٤
٩٦	١	أنا أظننا	٩٦	٨	بعض ما ذكره	٩٦	٨
٩٧	١٧	ويضى مائتان ؟	٩٧	١٣	ومن الكتاب فارون Varrou	٩٧	١٣
١٠٦	١٠	أنفسهم	١٠٦	٩	جهدهم	١٠٦	٩
١٠٨	٤	ابن الحائل	١٠٨	١٦	Terra Opus	١٠٨	١٦
١١٥	١٥	Terra opus	١١٥	٥	manus	١١٥	٥
١١٧	٢٠	ويمكن أن يقال أيضا :	١١٧	٦	manum	١١٧	٦
		Rosae factae a deis sunt		١١	manus		١١
		Manus		٢	domum		٢
		Domus		١٣	الفرب		١٣
		انتاجهم		١٥	ولكن الغريب هو أنه		١٥
		تمادى		١	ولأن يكاد		١
		وأن العرب		١٠٨	ولأن كادوا ليستفزونك من		١٠٨
		فريق		٤٨	الأرض		٤٨
		آتية		١٤٨	وادی الرافدين		١٤٨
		التراكيب أن الاسم بعد اسم		٥	خبيبر		٥
		الموصول		٥	بأس		٥
		سكان يقال		١	وأت		١

التصويب

ص	س	الصواب	ص	س	الصواب	ص	س
١٤٩	١٤	سواء	١٥٨	١١٥	تقام من ١٥ رمضان إلى آخره	١٤٩	١٤
١٥٠	١٧	لذلك	١٦٠	٤٠٣	ما لا يمكن أن يدرك إلا بتأمل	١٥٠	١٧
١٥٩	٥٥	تبدأ أول ذي القعدة	١٦٥	٧	الخطر	١٥٩	٥٥
١٦٠	٥٥	خورات	١٦٧	٧	Faux	١٦٠	٥٥
١٦٦	٢	أذن	١٧٤	٢	أنباء	١٦٦	٢
١٧١	١	أنت من أدونهم	١٨٠	١	إذ	١٧١	١
١٧٨	٩	أنت نلاحظه	١٩٢	٧	خالف	١٧٨	٩
١٨٣	٧	الأسباب	١٩٣	٥	أبا عمرو	١٨٣	٧
١٩٢	١٥	أدبرت	١٩٧	١٣	للقاري	١٩٢	١٥
١٩٢	١٥	طبقات الشعراء	١٩٩	٣	ولا من خلفها	١٩٢	١٥
١٩٣	١٠	في انتشارها	٢٠٠	١٢	وفيمن أسس	١٩٣	١٠
١٩٨	١٣	واللغة قد وجدت	٢١٥	١٦	أنهم يسمون	١٩٨	١٣
٢٠٠	٦	وهو وإن كان	٢٢٠	١	هذه اللبنة	٢٠٠	٦
٢٠٦	٤	في معاني القرآن ومشكله	٢٢٠	١٣	والمفاتيح والنحوين لأنه	٢٠٦	٤
٢١٨	٦	يقول لسان العرب	٢٣١	٣	العريضة	٢١٨	٦
٢٢٠	١٣	الخلا	٢٣٤	١٧	ذلك ، وإن	٢٢٠	١٣
٢٢٣	١٢	أصحاب الحديث مثل	٢٤٦	٨	كان	٢٢٣	١٢
٢٣٤	١٦	أبي الأسود	٢٤٩	٨	الأغريقية	٢٣٤	١٦
٢٥٢	٨	المرفوع			سرجع رقم ٦٦ ... (مخطوط)	٢٥٢	٨
٤		فهرست المراجع ... وانجليزية				٤	



1974

MAR

Y

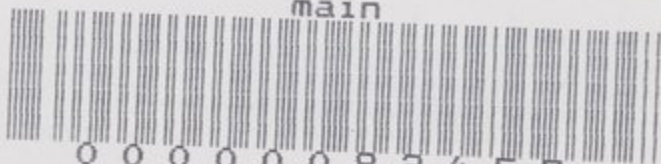


DUE

82457

PJ
6095
A92x
1952

main



0 0 0 0 0 0 8 2 4 5 7

PJ 6095 A92x 1952/c.1

ابن مسعود

ابن القائل ضاح

2 - JUL 2008

